

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه
الاسكندرية



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

روايات الكتاب

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية (إهداء)

رقم التسجيل ٧٧٠٤٧

مجلة شهرية لنشر القصص العالمة

الطبعة الثانية
(١٩٩٩)

813.54
لا
أ

أكلت الموت

عن مخطوطة
ابن فضلان

بقام

مايكل كرايتون

ترجمة

تيسير كامل



دار التهليل

« لا تمدح النهار حتى ياتي المساء ،
ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى
يجرب ، ولا الصبية حتى تتزوج ، ولا الجليد
حتى تعبره ، ولا تمدح شرابا حتى تشرب
منه » .

مثل شعبي من امثال الفايكنج
« وجد الشر منذ اقدم العصور »
مثل عربي

تقديم

تقديم ووايات الهلال للقارىء العربى رواية « اكلة الموتى Eaters of » ، التى حققت فى اوروبيا والولايات المتحدة اعلى ارقام التوزيع ، ويصدق على هذه الرواية القول : « هذه بضاعتنا ردت اليينا .. » ، فهى اعادة صياغة مخطوط الرحالة العربى ابن فضلان بأسلوب روائى عصري ، يحافظ على الوقائع والاحداث التى سجلها فى رسالته ..

وكان الاولى بأولئك الذين لا يملون الحديث عن ذخائر التراث العربى ، ان يقوموا بجهد مشابه لما قام به الكاتب الامريكى مايكل كريشون Michal Critchon ويقدمون التراث فى ثوب جديد وصياغة معاصرة ..

فما زالت كتابة الرحالة العرب تبحث عن من يقدمها ، وهى تكاد تكون المراجع الوحيدة التى تنقل القرون الوسطى ، وما زالت مؤلفات الرحالة العرب عيون العالم المعاصر على هذه المرحلة التاريخية ، عندما كان العلم مزدهرا فى بلادنا ، وهذا ما دفع امام المستشرقين الروس كراتشكوفسكى الى القول : « انه لولا العرب لما قام علم الجغرافيا » ..

وتصف رسالة ابن فضلان بلاد الروس والبلغار والاتراك واصقاع الشمال النائية ، وهى المصدر الرئيسى لتاريخ الشمال المسجل فى وقت لم تكن تعرف فيه هذه الدول القراءة والكتابة ..

وكان ابن فضلان احد افراد البعثة التى اوفدها الخليفة العباسى المقتدر الى بلاد الصقالبة « الروس » لمساعدتهم فى مواجهة تحرشات دولة الخزر اليهودية ، فيذكر ابن فضلان : « ان ملك الصقالبة المشى ابن بلطوار طلب بعثة لكى تفقحه فى الدين وتعرفه شرائع الاسلام ، وتبنى له مسجدا وتقيم له حصنا ضد ملوك الخزر الذين يعتدون على قومه ويفرضون عليهم الضرائب ، وكان ملك الخزر يخطب من يشاء من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصبا ، والخزرى يهودى وابنة الصقلبي مسلمة ! » ..

وقد رحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر عام ٣٠٩ هـ
(٢١ يونيو ٩٢١ م) ، وعبر نهر جيحون ووصل الى بخارى ثم
توغل حتى وصل الى نهر الفولجا ، وهناك اختطفه جماعة من
الفايكنج وأخذوه الى الشمال الاسكندنافية ، وعند عودته سجل وصف
الرحلة بكل أحداثها في رسالته الى الخليفة ..

وبقيت أقسام من الرحلة مجهولة ، ولكنها طبعت في الغرب ،
وترجمت ، ولم تصل الى خزائننا العربية ..

حتى نشر وحقق مخطوط ابن فضلان الدكتور سامي الدهان
في دمشق عام ١٩٥٩ ، وحققها في ذات الوقت الدكتور بير فراوس
دولوس ، الأستاذ في جامعة أوصلو بالنرويج ، وأخيرا بعث فيها
الحياة الكاتب الأمريكي كريشون عندما صاغها بأسلوب روائي شيق .
وجعل القصة على كل لسان ..

ويقول كريشون : « يعد مخطوط ابن فضلان أقدم تسجيل
معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الاسكندنافية ، وهو بذلك
وثيقة فريدة من نوعها ، تصف بدقة متناهية أحداثا وقعت منذ
ما يزيد عن ألف عام » ..

وقدم المؤلف عملا جذابا بعد أن أمسك بالخط الروائي للرحلة
وقدم من خلالها العادات والتقاليد التي كان يعيشها مجتمع الشمال .

مقدمة بقلم : مصطفى نبيل

تقدم مخطوطة ابن فضلان اقدم وصف معروف لشاهد عيان حول حياة النايكنج ومجتمعهم . وهذه المخطوطة وثيقة نادرة ، تصنف بتفصيل حتى حوادث وقعت منذ اكثر من الف عام . ومن الطبيعي ألا تكون قد بقيت كاملة غير منقوصة عبر هذه الحقبة الطويلة جدا من الزمن . فلهذه المخطوطة تاريخها الخاص ، وهو تاريخ ليس اقل شانا واثارة من النص ذاته .

اصل ومنشأ المخطوطة

في يونية من عام ٩٢١ ميلادية ارسل خليفة بغداد احد افراد حاشيته ، وهو احمد ابن فضلان سفيرا الى ملك البلغار . وقد امضى ابن فضلان ثلاثة اعوام في رحلته دون ان ينجز مهمته ، لانه وهو في طريقه الى بلاد البلغار التقى بمجموعة من رجال الشمال وكان له بينهم مغامرات عديدة .

وعندما عاد اخيرا الى بغداد ، سجل ابن فضلان تجاربه ومغامراته على شكل تقرير رسمي قدمه الى البلاط . الا ان تلك المخطوطة الاصلية اختلفت منذ زمن طويل ، ولكي نعيد تجميعها وبناءها من جديد كان علينا ان نعتمد على مقاطع متفرقة حفظت في مصادر لاحقة .

وافضل هذه المصادر المعروفة هو معجم جغرافي عربي كتبه ياقوت ابن عبد الله الحموي في فترة ما من القرن الثالث عشر . يضمن ياقوت معجمه عددا كبيرا من المقاطع المروية من تقرير ابن فضلان ، الذي كان قد مضى عليه آنذاك قرابة الثلاثمائة عام . فلا بد من الافتراض ان ياقوت كان يعتمد على نسخة من الاصل . الا ان هذه الفقرات القليلة نسبيا على اى حال قد اعيدت ترجمتها مرات عديدة من قبل علماء كثيرين حديثين .

كما اكتشف مقطع آخر في روسيا في عام ١٨١٧ ونشر باللغة الألمانية من قبل أكاديمية القديس بطرسبرج في عام ١٨٢٣ . ويتضمن هذا المقطع مقاطع معينة نشرت سابقا من قبل ج . ل . راسميوسن في عام ١٨١٤ . وقد اعتمد راسميوسن على مخطوطة وجددها في كوبنهاجن ، ثم اختفت منذ ذلك الحين ، وهي مخطوطة يشك كثيرا في أصلها ، كما كان هناك ترجمات سويدية وفرنسية وانجليزية ، أيضا في تلك الفترة ، إلا أنها جميعا غير صحيحة إلى حد الاسفاف الظاهر ، ولا تقدم أى معلومات جديدة .

وفي عام ١٨٧٨ تم اكتشاف مخطوطتين جديدتين في المجموعة الاثرية العائدة للسير جون امرسون . والسير جون ، الذى كان سفير بريطانيا في القسطنطينية ، كان واحدا من اولئك الجامعين الشرهين الذين كانت جماعتهم للاقتناء تتجاوز بكثير اهتمامهم بالاثر المكتسب . وقد اكتشفت المخطوطتان بعد وفاته ، ولا يعرف احد متى حصل عليهما .

احدى هاتين المخطوطتين هي مخطوطة جغرافية بالعربية كتبها احمد الطوسى ، يرجع تاريخها الى عام ١٠٤٧ ميلادية . وهذا ما يجعل مخطوطة الطوسى اقرب زمنيا من كل المخطوطات الاخرى لمخطوطة ابن فضلان الاصلية ، التى يفترض انها كتبت حوالى الفترة بين عامى ٩٢٤ - ٩٢٦ ميلادية . إلا أن العلماء يعتبرون مخطوطة الطوسى اقل المصادر اهلا للثقة : فالنص مليء بالاطعاف الفاضحة وانعدام الاتساق الداخلى ، ورغم انها تقتبس بشكل مطول من « ابن الفقيه » الذى زار بلاد الشمال ، فان مراجع كثيرة تتردد في قبول هذه المخطوطة .

اما المخطوطة الثانية فهي مخطوطة امين الرازى ، المؤرخة تقريبا حوالى الفترة ما بين عامى ١٥٥٨ - ١٥٩٥ ميلادية . وهي مكتوبة باللاتينية ، وحسب قول كاتبها فقد ترجمت مباشرة من النص العربى لابن فضلان . وتتضمن مخطوطة الرازى بعض المعلومات عن اترك الاوغوز ، كما تتضمن فقرات عديدة تتعلق بالمعارك ضد وحوش الضباب ليست موجودة في المصادر الاخرى .

وفي عام ١٩٣٤ اكتشف مخطوط اخير مكتوب بلاتينية المعصور

الوسطى وجد في دير كسيموس قرب ثيسالونيكيا شمالي اليونان .
وتحوى مخطوطة كسيموس بعض المعلومات والتعليقات الاضافية
عن علاقات ابن فضلان بالخليفة وعن مغامراته مع مخلوقات بلاد
الشمال . الا ان كاتب مخطوطة كسيموس وتاريخها كليهما غير
مؤكدين .

ان تجميع هذه الترجمات العديدة ، والتي ظهرت عبر فترة تزيد
عن الالف عام ، ونشرت بالعربية واللاتينية والالمانية والفرنسية
والدنمركية والسويدية والانجليزية ، لهو مهمة ذات ابعاد هائلة .
ولا يمكن ان يقدم على مثل هذه المهمة الا واسع المعرفة . فقد جمع
بيرفراوس دولوس استاذ الادب المقارن في جامعة اوسلو في
النرويج كل المصادر المعروفة وبدأ بتنفيذ مهمة الترجمة الهائلة ،
تلك المهمة التي شغلته حتى وفاته عام ١٩٥٧ . وقد نشرت اجزاء
من ترجماته في مجلة وقائع المتحف الوطني في اوسلو في عامي ١٩٥٩
- ١٩٦٠ ، لكنها لم تثر الكثير من الاهتمام العلمي ، او من اهتمام
العلماء ، ربما لان تلك المجلة محدودة الانتشار .

لقد كانت ترجمة فراوس دولوس ترجمة حرفية في المقدمة التي
كتبها فراوس دولوس شخصيا لترجماته اشار الى انه « من طبيعة
اللفات ان لا تكون الترجمات الجميلة (دائما) صحيحة ، وان الترجمة
الصحيحة تكتشف جمالها الخاص بها دونما مساعدة » .

في اثناء اعدادى لهذه النسخة الكاملة والمنقطعة لترجمة فراوس
- دولوس ، قمت باجراء بعض التغييرات او التنقيحات . فقد
حذفت بعض المقاطع المكررة ، وقد بينت هذا في سياق النص .
كما انى غيرت بنية الفقرات ، بادئا كلام كل متحدث اقتبس منه
مباشرة بفقرة جديدة ، متبعا بذلك الاعراف الحديثة في الكتابة .
كما حذفت اشارات اللفظ عن الاسماء العربية واخيرا . غيرت احيانا
النص الاصلى غالبا بتغيير مواقع الجمل الثانوية او الوصفية بحيث
يصبح المعنى اكثر قربا للفهم والادراك .

الفايكنج

هناك تباين واضح بين الصورة التي يرسمها ابن فضلان للفايكنج
وبين النظرة الاوروبية التقليدية لهؤلاء الناس . فاولى اوصاف

الفايكنج الأوروبية سجلها رجال الدين . اذ كانوا الشهود الوحيدين الذين كانوا يستطيعون الكتابة في تلك الايام ، وقد نظروا الى رجال الشمال الوثنيين نظـرة رعب خاص . وهذا مقطع مفرط الغلو التقليدي ، اقتبسـه « د . م . ولسون » عن كاتب ايرلندي من كتاب القرن الثاني عشر .

« وبكلمة موجزة ، رغم انه كان هناك مائة رأس معمم بحديد الفولاذ فوق كل عنق ، ومائة لسان لاسع ، حاضر البديهية ، بارد ، لا يصدا ، صفيق وقح في كل رأس ، ومائة صوت ثرثار عال لا يتوقف في كل لسان فلم تكن تستطيع ان تعيد او تروى ، او تعدد او تخبر . بما عاناه الايرلنديون جميعا ، رجلا ونساء ، عامة ورجال دين ، شيبا وشياپا ، نبلاء وأشقياء ، من الادي ومن الايداء والاضطهاد . وفي كل بيت ، من قبل هؤلاء الناس الاشداء ، الهانجين الغاضبين ، والوثنيين تماما » .

يـميز العلماء المعاصرون ويعترفون بان مثل هذه الروايات التي تجمد الدم في العروق عن غزوات الفايكنج ؟ مبالغ فيها الى حد كبير . ومع ذلك فان الكتاب الاوربيين ما زالوا يميلون الى استبعاد الاسكندنافيين واسقاطهم باعتبارهم برابرة دمويين غير ذوي اهمية بالنسبة الى التيار الرئيسي للثقافة الغربية والافكار الغربية ، وغالبا ما كان يحصل هذا على حساب منطق ما . فد نجد تالبوت رايسى يكتب مثلا :

« ربما كان دور الفايكنج ما بين القرنين الثامن والحادي عشر اكثر تأثيرا بالفعل من اي مجموعة بشرية مفردة في اورپيا الغربية » .

وهكذا كان الفايكنج رحالة عظاما ، كما انجزوا مغامرات بارزة في عالم الملاحة وكانت مدنهم مراكز عظيمة للتجارة ، وكان فهم اصيلا مبدعا ومؤثرا . وقد تباهاوا بادبهم الرفيع وبثقافتهم المتطورة . هل كانت حقا حضارة ؟ . اعتقد انه لا بد من الاعتراف بانها لم تكن كذلك .

فلمسة الانسانية ، والتي هي علامة الحضارة كانت غائبة تماما . . وكلها زاد انتباهنا حين قراءة هذه الافكار ازداد وضوح عدم .

منطقيتها . وفى الواقع لابد وأن يتساءل واحد منا : لماذا يشعر العلماء الاوربيون عالى الثقافة الإذكياء بأنهم احرار فى اسقاط الفايكنج من حسابهم وبما لا يتجاوز الايماءة العابرة ؟ ولماذا الانشغال بالقضية اللغوية حول ما اذا كان للفايكنج حضارة ام لا ؟ فالوضع واضح سهل الفهم بمجرد أن يعترف الواحد منا ويميز الانحياز الاوربي طويل الامد والتابع من الآراء التقليدية عن فترات ما قبل التاريخ الاوربي !

فكل طفل غربى يذهب الى المدرسة يلقن باسهاب ان الشرق الادنى هو مهد الحضارة ، وأن أولى الحضارات قد برزت ونهضت فى مصر وفيما بين النهرين ، يغذيها نهر النيل واحواض نهري دجلة والفرات . ومن هنا انتشرت الحضارة الى كريت واليونان ، ومن ثم الى روما واخيرا الى برابرة شمالى اوربا .

اما ما الذى كان هؤلاء البرابرة يفعلونه بينما كانوا ينتظرون وصول الحضارة اليهم فغير معروف ، ولم يكن هذا السؤال يثار غالبا . فالتأكيد كان على عملية امتصاص هذه الحضارات وتمثلها وهى العملية التى لخصها الكاتب « كوردن تشايلدن » بأنها طمس البربرية الاوربية بواسطة الحضارة الشرقية . ولقد بنى العلماء المعاصرون هذا الراى كما فعل العلماء الرومان واليونان قبلهم . يقول جفرى بيبى : ينظر الى تاريخ اوربا الشمالية والشرقية ويقيم من الغرب والجنوب مع كل المفاهيم المسبقة لرجال اعتبروا انفسهم متحضرين ينتظرون من عل الى رجال اعتبروهم برابرة .

من وجهة النظر هذه يكون الاسكندنافيون فعلا وبكل وضوح ابعد الناس عن منبع الحضارة ومنطقيا آخر من يكتسبها ، وبناء على ذلك ربما كانوا يعتبرون آخر البرابرة ، او شوكة مزعجة فى جاضرة تلك المناطق الاوربية الاخرى ، التى تحاول ان تستوعب حضارة الشرق وحكمته .

وتكمن المشكلة فى ان هذا الراى عن فترة ما قبل التاريخ الاوربي قد تم اسقاطه خلال الخمسة عشر سنة الماضية اذ ان تطور تقنيات تحديد التاريخ الصحيح بواسطة الكربون قد ادى الى فوضى كبيرة فى الترتيب الزمنى الماضى ، ذلك الترتيب الذى كان يدعم الآراء القديمة القائمة على اساس الانتشار « انتشار الضوء » . ويبدو

الآن انه مما لا شك فيه ان الاوربيين كانوا يبنون قبورا هائلة (ميغالينية) قبل ان يبنى المصريون اهراماتهم ، و « استون هينج » Stone Henge أقدم من حضارة اليونان (الميسينية) ، كما ان دراسة المعادن واستعمالها في أوربا ربما سبق تطور مهارات تصنيع المعادن في اليونان وطراودة .

لم يميز بعد معنى هذه الاكتشافات ولكنه قطعاً من المستحيل الآن ان نعتبر أوربي ما قبل التاريخ متوحشين ينتظرون بخمول بركات الحضارة الشرقية . بل على العكس من ذلك فانه يبدو ان الاوربيين قد نموا مهارات تنظيمية من المكانة بما يكفي لتصنيع أحجار هائلة الحجم ، كما يبدو انه كان لهم معرفة فلكية كافية لبناء « استون هينج » الذي هو أول مرصد في العالم .

وهكذا فان الانحياز الاوربي نحو الشرق المتحضر لا بد وان تثار حوله الاسئلة . وفي الحقيقة فان مفهوم البربرية الاوربية يجد ذاته يحتاج الى اعادة نظر فيه . فاذا اخذنا كل هذا بعين الاعتبار نجد ان هذه البقايا البربرية ، الى الفايكنج ، يكتسبون أهمية جديدة ، وعندها نستطيع ان نعيد دراسة ما هو معروف عن اسكندنافيين القرن العاشر .

اولا يجب ان نميز او نعترف بان الفايكنج لم يكونوا ابدا مجموعة موحدة بشكل واضح ، فما رآه الاوربيون لم يكن سوى مجموعات متناثرة ومنغلقة من جوالى البحار اتوا من منطقة جغرافية واسعة - فاسكندنافيا اكبر من البرتغال واسبانيا وفرنسا مجتمعة - وكانوا يبحرون من دويلاتهم الاقطاعية المنغلقة بغرض التجارة او القرصنة او كليهما ، فقلما كان الفايكنج يميزوا بين هذه وتلك . لكن ذلك ميل مشترك بين كثير من جوالى البحار بدءا من اليونانيين الى الاليزابيين .

وفي الواقع فانه بالنسبة لشعب كان يفتقر الى الحضارة ولم يكن يشعر بالحاجة الى ان ينظر الى ما وراء المعركة القسامة فان الفايكنج يظهرون سلوكا هادفا ومنضبطا الى ابعد حدود الانضباط ، وكبرهان على تجارتهم واسعة الانتشار فان مقاطع اللغة العربية تبدأ بالظهور في اسكندنافيا بدءا من عام ٦٩٢ . وفي خلال الـ ٤٠٠ عام التالية امتدت رقعة انتشار القرصنة والتجار من الفايكنج حتى وصلت

الى الارض الجديدة غربا (نيو فاوند لاند) وامتدت جنوبا حتى وصلت الى صقلية واليونان حيث ترك الفايكنج نحو منهم على أسود (دلوس) ، وشرقا حتى جبال الاورال في روسيا ، حيث تم اتصال تجارهم ، بالقوافل القادمة من طريق الحرير الى الصين . لم يكن الفايكنج بناء امبراطوريات ، ومن المسالوف القول ان تأثيرهم غير هذه المنطقة الواسعة لم يكن دائما او لم يترك اثرا دائما ، ولكنه دام بما فيه الكفاية ليورث اسماء اماكن لكثير من المناطق في انجلترا ، بينما اعطوا لروسيا اسم الامة نفسها . وذلك من اسم القبيلة الشمالية (روس) ، اما بالنسبة للآثر الاكثر وضوحا لفنهم الوثني ، ولطاعتهم التي لا تعرف الملل ولنظام القيم عندهم فان مخطوطة ابن فضلان تبين لنا كم من القيم الشمالية التقليدية قد تم الاحتفاظ بها حتى يومنا هذا . وفي الحقيقة فان هناك شيئا مألوفا الى حد كبير وشبيها بالرؤية المعاصرة لطريقة حياة الفايكنج كما ان فيها شيئا يحببها الى نفس القارىء بعمق .

لمحة عن المؤلف

لا بد من كلمة عن ابن فضلان ، ذلك الرجل الذي يتحدث الينا بصوت متميز واضح ، رغم مضي اكثر من ألف عام ، ورغم مصافي الناقلين والمترجمين المنتمين الى عدد كبير من التقاليد الثقافية واللغوية .

لا تكاد نعرف عنه شخصا اى شيء . من الواضح انه كان متعلما مثقفا ، ومن تجاربه يبدو انه لم يكن متقدما في السن . وهو يكتب بشكل لا لبس فيه مبينا انه من معارف الخليفة الذي لم يكن يحبه كثيرا . (لم يكن وحيدا في هذا المجال ، لان هذا الخليفة - المقتدر - قد اطيح به مرتين ثم قتله واحد من ضباطه) .

اما عن مجتمعه فاننا نعرف اكثر من ذلك . فقد كانت بغداد ، مدينة السلام ، في القرن العاشر الميلادي ، اكثر مدن الدنيا حضارة . وكان يعيش اكثر من مليون مواطن ضمن اسوارها الدائرة المشهورة . وكانت بغداد مركز الاستقطاب والاثارة الفكرى والسياسى ، يحيط بكل ذلك جو من الرشاقة والاناقة والبهاء

الخارقة للعادة . فكانت هناك حدائق معطرة ، وغايات ظليلة باردة ، كما كانت هناك الثروات المكدسة لامبراطورية مترامية الاطراف .

كان عرب بغداد مسلمين شديدي الايمان وكانوا على صلة بالشعوب تنظر وتتصرف وتفكر بطرق تختلف عن طرقهم . وكان العرب في الواقع اقل شعوب ذلك الزمان اقليمية ، وهذا ما جعلهم مراقبين متفوقين للثقافات الاجنبية .

وواضح ان ابن فضلان ذكي دقيق الملاحظة فهو مهتم بكل الحياة اليومية ومعتقدات الشعب الذي يلتقى به . وكثير ما شاهده قد صدمه على انه سوقي ، بذيء وبربري ، ولكنه لا يهدر وقته في اظهار اشمزازة ، فما ان يعبر عن اعتراضه حتى يعود الى ملاحظاته التي لا تغفل شيئا . وهو يدون ما يراه بحد من العجرفة تشير الاعجاب .

قد يبدو اسلوبه في تدوين مشاهداته ذاتيا بالنسبة للمقاييس الغربية ، فهو لا يروي لنا قصة كما تعودنا ان نسمع القصص . ونحن ميالون لان ننسى ان حسنا الدرامي يرجع في اصوله الى تقاليد شفوية - وهو عرض حي مباشر يقدمه شاعر امام جمهور غالبا ما كان قلنا نافذ الصبر ، او ربما خاملا يغلبه النعاس بعد وجبة دسمة . فاقدم حكاياتنا ، كاللياذة وملحمة بيولف واغنية رولاند ، كانت جميعها مهياة لتغنى من بين مغنيين كانت مهمتهم الاساسية والتزامهم الاول التسلية والترفيه .

لكن ابن فضلان كان كاتباً ، ولم يكن هدفه الرئيسي التسلية ، كما لم يكن تمجيد راع يصفى اليه او تأكيد اساطير المجتمع الذي يعيش فيه . بل على العكس من ذلك ، كان ابن فضلان سفيرا يقدم تقريرا ، فلهجته هي لهجة محاسب ضرائبي ، لا لهجة شاعر ، ولهجة عالم مهتم بالاصول الانسانية ، لا لهجة كاتب مسرحي . وهو في الواقع يستخف غالبا باكثر العناصر اثارة في روايته بدلا من ان يدعها تتداخل بسرده الواضح المسطح .

ويبدو ان هذه المزية ، مزية المراقبة البعيدة عن الذاتية ، تصبح احيانا مزعجة الى حد نعجز معه في التعرف على اي نوع من الملاحظين الخارقين للعادة كان ابن فضلان . فلمئات السنين تلت ابن فضلان كان العرف بين الرحالة ان يكتبوا احداثا خيالية عن

أعاجيب الأماجم - كالحیوانات الناطقة والرجال المجنحين الذين يطیرون ، ولقاءات بأفراس البحر وأحادى القرن . وحتى مائتى عام مضت ، كان الإوریون ، والذين كانوا فى غیر هذه الأحوال أناسا وأعين ، یملأون صحفهم ومجلاتهم بكلام هراء عن القردة الأفريقية التى كانت تشن الحرب على المزارعين وغير ذلك .

أما ابن فضلان فإنه لا یترك العنان لخیاله . فكل كلمة تردده صدى صدق ، وحتى حین یدون ما سمع به سمعا فإنه حریص على أن یبین ذلك . وهو حریص بنفس القوة أن یحدد متى یكون شاهد عیان : ولهذا یستعمل جملة « رأیت بعینی الاثنتین . . رأیت بأمر عینی » مرارا وتكرارا .

وفى النهاية ، فإن خاصية الصدق المطلق هى التى تجعل روايته مرعبة الى هذا الحد . أما فیما یعلق بلاقائه بوخوش الضباب ، أو « بأكلة الموتى » كما یسمیهم ، فإن قصته مروية بنفس تلك العناية بالتفاصيل ، ونفس ذلك الشك الواعى الذى یميز كل أجزاء المخطوطة الأخرى .

وعلى أیه حال ، فالقارىء قادر على أن یتصدر حكمه بنفسه .

والرجلان یتمتقاها بالجلد حتى ماتت ثم وافی اذ
ثم وأسعدنا بالنار ثم معنی القهقري قناه الى السفینه و
من حطب السفینه یطبخه وواحدة وین الاخرین على باب أسه وهو عربان
یا حرق الحطب المعیا الذى تحت السفینه ثم وافی الناس بالحطب والقطب ومع
بواضعیة نذاهب راسها فیقهلها ذلك الحطب ویخذ النار فی الحطب
لئلا یجاء النار بجمه ما فیها
صغیر

تمردج من المخطوطة الو

الفصل الاول

يوم ان غادرنا مدينة السلام

الحمد لله الرحمن الرحيم ، سيد العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وحفظه في سلام دائم مقيم وصلى عليه الى يوم الدين .

وبعد فهذا كتاب احمد بن فضلان بن العباس بن الرشيد بن الحمد ، وهو وكيل لحمد بن سليمان سفير المقتدر الى ملك الصقالبة ، يروى فيه ما كان قد رآه في بلاد الاتراك وبلاد الهوزار وبلاد الصقالبة وبلاد الباسكر وبلاد الروس وبلاد اهل الشمال ، وما عرفه من تاريخ ملوكهم والطرق التي يتعرفون حسبها في الكثير من شئون حياتهم .

وصلت رسالة المش بن بلطوار ملك الصقالبة ، الى امير المؤمنين المقتدر . وقد طلب فيها ان يرسل من يستطيع ان يشقفه في امور الدين وان يفقهه في الدين ويعرفه شعائر الاسلام ، وان يبني له مسجدا وان يشيد له منبرا يحمل رسالة الاسلام حتى يعتنقها شعبه في كل ارجاء المملكة ، وليقدم له النصيحة ايضا في مجال بناء الحصون والتحصينات ضد ملوك الخزر من اليهود الذين يعتدون على قومه . وقد رجا الخليفة ان يقدم له هذه الاشياء ، وكان الوسيط في هذه القضية هو دادر الحرامى .

لم يكن امير المؤمنين المقتدر ، خليفة قويا عادلا ، لكنه كان اسير ملذاته وخطب ضباطه المتملقة الذين كانوا يسخرون منه ويطلقون النكات عليه خلف ظهره . اما انا فلم اكن واحدا من هذه الجماعة ، كما لم اكن من المقربين الى الخليفة بصورة خاصة وذلك للسبب الذى سأذكره :

كان يعيش في مدينة السلام تاجر متقدم السن اسمه ابن قارن وكان رغم فناءه في كل شيء يفتقر الى قلب كريم والى حب الانسان .

كان يخزن ذهبه وأيضا وبنفس الطريقة زوجته الشابة ، التي لم يكن قد رآها أحد ، ولكن الكل تحدث عن جمالها الذي كان يفوق كل وصف . وفي أحد الايام أرسلنى الخليفة لاسلم رسالة لابن قارن ، فحضرت الى بيت التاجر واستأذنت بالدخول اليه ومعى رسالتى مختومة . وحتى هذا اليوم لا اعرف شيئا عن محتوى هذه الرسالة ، ولكن ليس هذا هو المهم .

كان التاجر خارج البيت يقضى بعض الاعمال . اوضحت للحاجب اننى يجب على ان انتظر عودته لان الخليفة قد امرنى بان اسلم الرسالة باليد . وهكذا سمح لى البواب بالدخول الى البيت ، وهو الامر الذى استغرق بعض الوقت ، فباب البيت محصن بعدد كبير من الاقفال والقضبان والاعمدة كما هو مألوف فى منازل البخلاء . وبعد طول انتظار ادخلت البيت وانتظرت طيلة النهار ، حيث اشتد على الجوع والعطش ، ولكن لم يقدم لى اية مرطبات من قبل خدم التاجر العفن .

وفى آخر الظهر ، وبينما كل شىء حولى فى البيت ساكن والخدم نيام ، غالبنى النعاس انا ايضا . وفجأة رايت امامى شبعا ملفعا بالبياض ، امرأة شابة جميلة عرفت فيها الزوجة التى لم يرها رجل ابدا . لم تنطق بينت شفة الا انها قادتنى بايماة منها الى غرفة اخرى وهناك اقفلت على الباب . واستمتعت بها حالا وبلا انتظار ، وهى فى ذلك المجال لم تكن بحاجة الى اى تشجيع ، فقد كان زوجها عجوزا ، ولا شك مهملا ايضا . وهكذا مضى الظهر وبعد الظهر بسرعة كبيرة حتى سمعنا رب البيت يعود اليه . وفى الحال نهضت الزوجة وغادرت الغرفة ، ولم تكن قد نطقت بكلمة واحدة فى حضورى ، بينما تركت انا لارتب ثيابى بسرعة وقلق .

كان يمكن ان اصاب بالهلع والخوف والجزع بالتأكيد لولا تلك الاقفال الكثيرة التى اعاقت دخول البخيل الى داره . ووجدنى التاجر ابن قارن فى الغرفة المجاورة ورمانى بنظرة اشتباه وريبة متسائلا لم لست فى باحة الدار حيث ينتظر الرسل عادة . اجبته باننى كنت جائعا واننى قد اغمى على فقمت ابحث عن الطعام والظل . كانت تلك كذبة مفضوحة ولم يصدقها ابدا ، فاشتكى الى الخليفة الذى كما علمت سر الامر فى سريره ولكنه اضطر لان

يلبس وجهه العبوس أمام الناس . وهكذا فحينما طلب حاكم الصقالبة بعثة من الخليفة ، اصر هذا الحاقد ابن قارن على ان ارسل انا الى هذه المهمة ، وهكذا كان .

كان من ضمن جماعتنا سفير ملك الصقالبة الذي كان يدعى عبد الله بن بسطو الهزاري ، والذي كان رجلا متعبا صاحب ثرا . وكان هناك ايضا تاقن التركي وبارس الصقلي . كان كلاهما مرشدا في رحلتنا ، وفي الجماعة كنت انا واحد منها ايضا . وكنا نحمل الهدايا للحاكم ولزوجته واطفاله ولقاداته . كما كنا نحمل بعض العقاقير التي وضعت تحت رعاية سوسق الراسي . فكانت مجموعتنا اذن مشكلة على هذا النحو .

وهكذا انطلقنا يوم الخميس الحادي عشر من صفر سنة ٣٠٩ (٢١ يونية ٩٢١) انطلقنا من مدينة السلام (بغداد) . توقفنا يوما واحدا في نهروان ، ومن هناك انطلقنا بسرعة حتى وصلنا الدسكرة حيث توقفنا لمدة ثلاثة ايام . ثم تحركنا قدما ودون اي التفاتات حتى وصلنا حلوان . وهناك بقينا يومين انطلقنا بعدها الى قرمسين حيث مكثنا يومين ايضا . ثم انطلقنا في رحلتنا حتى وصلنا همدان حيث بقينا ثلاثة ايام . ومن هناك انطلقنا الى صوى حيث بقينا يومين ومنها الى رى حيث بقينا احد عشر يوما بانتظار احمد ابن علي شقيق الراسي لانه كان في « حوار الرى » . ثم ذهبنا الى « حوار الرى » وبقينا هناك ثلاثة ايام .

(هذا المقطع يقدم لنا صورة عن وصف ابن فضلان للرحلة والاسفار . وربما كان ربع المخطوطة او يزيد مكتوبا بهذه الطريقة ، ساردا ببساطة اسماء المناطق واقامته فيها وعدد الايام التي قضاها في كل منها . لهذا فان معظم هذه المادة قد تم حذفها) .

(وواضح ان رفاق ابن فضلان كانوا مسافرين صوب الشمال وانهم في آخر المطاف اضطروا ان يتوقفوا بسبب الشتاء .)

كانت اقامتنا في الجرجانية طويلة ، فقد مكثنا هناك بعض ايام شهر رجب (نوفمبر) وطيلة شهر شعبان ورمضان وشوال . وكان سبب اقامتنا الطويلة هذه البرد وقساوته . وقد قيل لى ان رجلين اخذا الجمال الى الغابات ليأتيا بالحطب . ويبدو انهما نسيا ان ياخذا قاذحة وقتيلا معهما ، ولهذا ناما طيلة الليل بدون نار .

وعندما أصبحنا فى اليوم التالى وجدا ان الجمال قد تجمدت
وتصلبت بسبب البرد .

والحق انى رايت سوق وشوارع الجرجانية مهجورة بسبب
البرد ، فكان الواحد يستطيع ان يلذع الشوارع دون ان يلتقى
بأى انسان . ومرة ، وبينما كنت خارجا من الحمام ، دخلت الى
بيتى ونظرت الى لحيتى رايتها كتلة من الجليد وكان على ان افركها
قريبا من النار . ولقد أمضيت ليلى ونهارى فى بيت كان ضمن بيت
آخر حيث اقيمت خيمة تركية مصنوعة من اللباد ، كما لففت انا
نفسى بشياب كثيرة وسجاجيد ايضا . ولكن رغم كل هذا كان خدائى
غالبا مايلتصقان بالوسادة ليلا .

فى هذا البرد القارس كنت ارى الارض تشكل احيانا بعض
الشقوق الهائلة ، وربما كنت تقع على شجرة هائلة قديمة وقد
انشطرت نصفين بسبب هذه الشقوق .

فى حوالى منتصف شوال من عام ٣٠٩ (فبراير ١٩٢٢) بدأ
الطقس يتغير كما بدأ النهر يدوب وبدانا نجمع الاشياء الضرورية
لرحلتنا ، فاشترينا جمالا تركية وقوارب جلدية مصنوعة من جلد
الجمال وذلك استعدادا لعبور الانهار التى كان علينا ان نعبرها فى
بلاد الاتراك .

كما جمعنا زادا ومؤونة من الخبز والدخن (او الجاروس) واللحم
المقدد يكفيننا لثلاثة اشهر . ولقد نصحنا معارفنا فى المدينة الى
لبس الكثير من الثياب وخزن الحاجيات قدر حاجتنا اليها . كما
وصفوا لنا المشاق المقبلة علينا بتعابير مخيفة ، وكنا نعتقد بانهم
كانوا يبالغون فى قصتهم ، الا اننا حين جابها هذه المشاق وجدناها
اعظم بكثير مما وصفوا .

ارتدى كل منا معطفا وفوق ذلك المعطف معطفا وفوق ذلك المعطف
قفطانا وفوق القفطان عباءة وفوق هذا وذاك ارتدى كل منا خوذة
من اللباد لم يكن يطل منها الا العينان . كما ارتدى كل منا تحت
كل ذلك زوجا من الثياب الداخلية فوقها سروال كما ارتدى خفين
يعلوهما حذاءان . فعندما كان الواحد منا يريد ان يعتلى جملة
لم يكن يستطيع حراكا لكثرة ثيابه .

كان الفقيه والمعلم والرهط الذين سافروا معنا من بغداد قيد
تركونا الان خشية دخول هذا البلد الجديد وهكذا فقد انطلقنا انا
والسفير وصهره وحاجباه تاقن وباريس لوحدنا(١) .

اصبحت القافلة الان جاهزة للانطلاق استاجرنا مرشدا لنا من
سكان المدينة كان اسمه قلاووظ . ثم ، معتمدين على الله القوى
العزیز ، انطلقنا يوم الاثنين الثالث من ذى القعدة عام ٣٠٩
(الثالث من آذار ٩٢٢) من بلدة الجرجانية .

وفي نفس ذلك اليوم توقفنا فى البلدة المسماة زامكان اى بوابة
بلاد الترك . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى تقدمنا الى جت ،
وهناك تساقط علينا من الثلج ما جعل الجمال تفوض فيه حتى
الركب ، فتوقفنا هناك يومين .

ثم اسرعنا الخطا باتجاه مباشر صوب ارض الاتراك دون ان نلتقى
باحد فوق هذا الجرف المستوى الاجرد . وغدينا الرجال طيلة
عشرة ايام من البرد القارس والعواصف الثلجية التى لم تنقطع والتى
اذا ما قورن برد خوارزم بها بدا وكأنه ايام صيف جميلة ، الى حد
اننا نسينا كل مشاقنا السابقة وكنا على وشك ان نتخلى عن
مهمتنا كلها .

وفى احد الايام حينما كنا نتعرض لطقس من اشد ما عرفناه
برودة كان الحاجب تاقن يركب بمحاذاى ، وبجانبه احد الاتراك
الذى كان يحدثه بالتركية . ضحك تاقن وقال لى : « هذا التركي
يسأل : ماذا سيفعل الله بنا ؟ فهو يقتلنا من البرد . لو عرفنا ماذا
يريد لقدمناه له » .

وعندها قات : « قل له ان الله يريد ان يقول « لا اله الا الله »
ضحك وقال : « لو كنت اعرف ذلك لقلته » .

(١) خلال المخطوطة لا يبدو ابن فضلان دقيقا فى وصف حجم وتشكيل مجموعته .
وسواء كان هذا الاممال يعكس التراض ابن فضلان ان القارىء يصف تشكيلة القافلة
او انه كان نتيجة فقدان بعض فقرات النص ، فانه لا احد يستطيع ان يكون متاكدا من
السبب وقد تكون الاعراف الاجتماعية عاملا فى هذا ، لان ابن فضلان لا يبين ابدا ان
مجموعته كانت تتجاوز عددا ، من الافراد قليلا ، بينما كانت فى الواقع تعد مئة رجل او
تزيد . كما كانت تعد ضمن ذلك العدد من الخيول والجمال . لكن ابن فضلان لا يعد
حرفيا - المبيد والخدم واعضاء القافلة الاقل قيمة كاعضاء حقيقيين - فى هذه البعثة .

ثم دخلنا فى غابة فوجدنا كميات كبيرة من الخشب الجاف فتوقفنا وأشعل افراد القافلة النار وتدفانا ثم خلعنا ثيابنا ونشرناها لتجف .

(من الواضح ان جماعة ابن فضلان قد بدأت تدخل الان فى منطقة دافنة لانه لا يشير من الان فصاعدا الى البرد القارس) .

انطلقنا ثانية واستمرينا فى الرحيل كل يوم بدءا من منتصف الليل وحتى وقت صلاة الظهر ، حين كنا نبطيء السير ثم نتوقف نهائيا . بعد ان مضى علينا خمس عشرة ليلة على هذه الوتيرة من الترحال وصلنا الى جبل كبير عليه صخور كثيرة ضخمة هائلة ، كما وجدنا ينابيع ماء تنطلق من الصخور ويستقر ماؤها فى برك . ومن هذا المكان عبرنا الارض حتى وصلنا الى قبيلة تركية تسمى قبيلة اللاوغوز .

الفصل الثانى

تقاليد وطرق حياة الاتراك الاوغوز

الاوغوز قبائل رحل لهم بيوت من الشعر واللباد . يقيمون لفترة من الزمن فى مكان ما ثم يرحلون عنه الى مكان آخر . وبيوتهم موضوعة هنا وهناك طبقا لعادات القبائل الرحل . ومع انهم يعيشون حياة قاسية فانهم يشبهون الحمر التى ضلت . فليس بينهم وبين الله اية روابط دينية . وهم لا يصلون أبدا ولكنهم بدلا من ذلك يدعون رؤساء قبائلهم آلهة ، وحين يستشير أحدهم رئيس قبيلته حول أمر من الامور فانه يخاطبه قائلا « الهى ماذا أفعل بهذا الامر او ذاك ؟ » .

وتصرفاتهم وممارساتهم تركز على المشورة فيما بين بعضهم البعض وحسب . ولقد سمعتهم يقولون « لا اله الا الله ومحمد رسول الله » ولكنهم يقولون هذا ليتقربوا من المسلمين لا لانهم يعتقدون به .

ويدعى حاكم الاتراك الاوغوز « يابغو » . وهو الاسم الذى يطلق على الحاكم كما . ان كل شخص يحكم هذه القبيلة يحمل هذا الاسم .

ولا يفستل الاوغوز ابدا ، لا بعد التبرز ولا بعد التبول ، كما انهم لا يستحمون بعد الجنابة ولا فى اى مناسبة من المناسبات . فهم لا يستعملون الماء ابدا وخاصة فى الشتاء ولا يستطيع التجار او اتباع محمد ان يتوضئوا بحضورهم الا ليلا حين لا يراهم الاتراك ، لانهم كانوا يفضبون ويقولون « هذا الرجل يرغب فى ان يسحرنا لانه يفمر نفسه بالماء » ، وكانوا يجبرونه على دفع غرامة .

ولا يستطيع اى من اتباع محمد ان يدخل بلاد الاتراك الا اذا وافق احد الاوغوز ان يستضيفه ، حيث يمكث معه ويقدم له الثياب والحلى من بلاد الاسلام ، ويجلب لزوجته بعض التوابل والدخن والزبيب والجوز . وعندما يصل المسلم الى بيت مضيفه ، يقيم له هذا الاخير خيمة ويقدم له الاغنام لكي يذبحها المسلم بنفسه . فالاتراك لا يذبحون ابدا ولكنهم يضربون القنم على راسها حتى تموت .

ونساء الاوغوز لا يتحجبن ابدا بحضور رجالهن او الرجال الاخرين . كما لا تغطى المرأة ايا من اجزاء جسدها فى حضور اى شخص . فقد توقفنا فى احد الايام عند تركى وكنا جالسين فى خيمته . وكانت زوجة الرجل حاضرة . وبينما كنا نتبادل اطراف الحديث كشفت المرأة عن فرجها وحكته ، وقد رايناها تفعل ذلك ففطينا عيننا وقلنا « استغفر الله العظيم » . عند ذلك ضحك زوجها وقال للمترجم « قل لهم اننا نكشفه بحضوركم فافضل ان ترونه علنا من ان تناولوه سرا » .

والزنا غير معروف بينهم ابدا فكل من يكتشفونه زانيا يقتلونه فيقربون غصنى شجرتين ثم يربطونه بالفصنين ويتركون الشجرتين تستقيمان مرة ثانية بحيث يشطر الرجل الذى ربط الى الشجرتين الى شطرين .

كما ان الاتراك يعتبرون عادة ممارسة اللواط خطيئة رهيبة . فقد حدث مرة ان تاجرا اتى ليقيم مع عشيرة كوداركن . وقد اقام مع مضيفه بعض الوقت ليشتري القنم . وكان للمضيف ابن امزد

فحاول الضيف دون ياس أن يفوى الصبي حتى جعله يخضع
لشيئته . وفي تلك اللحظة دخل المضيف التركي وضبطهما بالجزم
المشهود .

أراد الاتراك أن يقتلوا التاجر ومن ثم الصبي لهذا الجرم ، ولكن
بعد توصلات كثيرة سمح للتاجر أن يفدى نفسه . فدفع لمضيفه
أربعمائة رأس من الغنم لقاء ما قبله بابنه ثم غادر التاجر بلاد الاتراك
على جناح السرعة .

وينتف الاتراك لحاهم باستثناء الشوارب .

وعادات الزواج عندهم هي كالتالى : يطلب احدهم يد انثى من
عائلة اخرى مقابل (مهر) قدره كذا وغالبا ما يتضمن المهر هذا
جمالا ودوابا وأشياء اخرى . ولا يستطيع احد أن يتخذ لنفسه
زوجة حتى يكون قد وفى بالتزامه الذى التزم به وتفاهم مع رجال
تلك العائلة . فاذا ما وفى بهذا الالتزام فانه يأتى اليهم بدون رفاق
دونما ضجيج أو لقط ويدخل المنزل الذى تقيم فيه المـروس
ويضاجعها (يأخذها) بحضور والدها وامها واخوتها فلا يمنعونه
من ذلك .

واذا مات رجل له زوجة واطفال فان اكبر ابنائه يتخذها زوجة
له ان لم تكن امه .

واذا مرض احد الاتراك وكان له عبيد ، فانهم يعتنون به ولا يقترب
اى من افراد عائلته منه طيلة فترة مرضه . اذ تقام له خيمة منفصلة
عن بيوت الاخرين ولا يغادرها حتى يموت او يشفى اما ان كان عبدا
او رجلا فقيرا فانهم يتركونه فى الصحراء ويتابعون طريقهم .

وحين يموت احد الوجاه يحفرون له حفرة كبيرة على شكل بيت
ويذهبون اليه ويلبسونه قرطقا كما يلبسونه حزامه وقوسه ويضعون
كأس شرب خشبية فيها مشروب مسكر فى يده . ثم يأخذون كل
ممتلكاته ويضعونها فى ذلك البيت . ثم يضعونه هو نفسه فيه ايضا
ثم يبنون بيتا آخر فوقه وينشئون فوقه قبة مصنوعة من الطين .

ثم يقتلون الخيول . يقتلون مئة أو مئتين ، حسب ما كان يملك
منها ، وفى موقع القبر . ثم يأكلون لحمها ما عدا الرأس والحوافر
والجلد والذيل التى يعلقونها على اعمدة خشبية ويقولون « هذه
مراكبه التى سيركبها فى طريقه الى الفردوس » .

اما ان كان بطلا وقتل الكثير من الأعداء ، فانهم ينحتون تماثيل خشبية بعدد أولئك الذين قتلهم ويضعونها على قبره ، ويقولون « هؤلاء هم حجابة الذين يقومون على خدمته فى الجنة » .

وهم احيانا يؤجلون قتل خيوله ليوم او يومين ، الى ان يحضهم احد شيوخهم قائلا « لقد رايت الميت فى نومي وقال لى : اصغ الى : انت ترانى ها هنا وقد تجاوزنى رفاقى حين دهنت قدمائى عن ان تلحق بهم . اننى لا استطيع اللحاق بهم فبقيت وحيدا » . فى هذه الحالة يذبح الناس خيوله ويعلقونها فوق قبره ، وبعد يوم او يومين يأتى اليهم نفس ذلك الشيخ ويقول « لقد رايت الميت فى حلمه وقال لى : « قل لاهلى اننى قد نجوت من مأساتى » .

وهكذا يحافظ الشيخ على تقاليد الاوغوز ، اذ بغير هذه الوسيلة قد تنشأ الرغبة عند الاحياء بابقاء خيول الميت (1) .

وبعد طول انتظار عاودنا الرحيل عبر المملكة التركية . وفى صبيحة احد الايام التقينا بتركى . كان قبيح الشكل قدر المظهر وقع الخلق وضيع الطبع . قال « قفوا » . فتوقفت القافلة اجمعها اطاعة لامره . ثم قال « لا يتقدم اى منكم » . قلنا له « نحن اصدقاء الكوداركن » . فبدأ يضحك ساخرا وهو يقول « ومن هو الكوداركن ؟ اننى اخرى على لحيته » .

لم يدر اى منا ماذا يفعل حيال هذه الكلمات ، ثم صاح التركى قائلا « بكند » اى « خبز » فى لفة خوارزم . قدمت له بضع أرغفة من الخبز . فاخذها وقال « يمكنكم استئناف رجلكم الان ! اننى اشفق عليكم » . وصلنا الى مقاطعة القائد العسكرى الذى كان اسمه اترك ابن القاطجان ، الذى بنى لنا خياما تركية لتقيم بها . وكان له نفسه مؤسسة ضخمة فيها الكثير من المنازل والخدم .

وقد ساق لنا الغنم لنذبحها كما وضع الخيول تحت تصرفنا

(1) يعتقد فارزان احد المجيبين بآبن فضلان بان هذه الفقرة الاخيرة تكشف عن حى عالم انسانى حديث لا يسجل عادات شعب من الشعوب فحسب وانما يسجل ايضا آلية الفعل والية التصرف ليثبت هذه المادات . فالمعنى الاقتصادى لقتل خيول قائد قبل رحال هو المعادل القريب من ضريبة الموت الحديثة ، اى ان هذا المعنى يبيل لتعطيل تراكم الثروة الموروثة فى عائلة ما . ورغم انه مطلب دينى فان ما كان يمكن لهذا التصرف ان يكون ممارسة جماهيرية اكثر مما هو فى الوقت الراهن وببيوت ابن فضلان بهارة بالغة كيف كانت تفرض هذه الممارسة على المترددى .

لتركبها . ويتحدث الامراك عنه كأفضل فرسانهم ، وفى الحقيقة رأته فى يوم من الايام ، عندما كان يتسابق معنا على فرسه ، وحين طارت اذنة فوق رءوسنا ، رأته يشد قوسه ثم يوجه فرسه الى ما تحت الاوزة ويطلق عليها سهمه ويصيبها ويقتلها .

قدمت له بزة من « الميرف » كما قدمت له زوجا من النعال من الجلد الاحمر ، ومعطفا من البروكار . وخمس معاطف من الحرير فتقبلها بفيض من تعابير المديح الحارة ، ورفع طرف معطفه البروكار الذى ارتداه لكى يعرض ثيابه الشرف (التكريم) التى قدمت لها لتوى . عندها رأيت أن القرطق الذى كان يرتديه تحت معطف البروكار كان ممزقا قدرا ولكن علمت أن من عاداتهم أن لا يخلع الرداء الذى يرتديه ملامسا جسده حتى يفنى ذلك الرداء من تلقاء ذاته . وفى الحقيقة كان قد نتف كل لحيته وحتى شاربيه بدا لنا على صورة الخصى . ومع ذلك ، فكما لاحظت ، كان فى الواقع أفضل فرسانهم .

كنت اعتقد أن هذه الهدايا الجميلة لابد وأن تكسبنا صداقته ، الا أن الامر لم يكن كذلك ، فقد كان رجلا خداعا مأكرا .

فى احد الايام ارسل فى طلب القادة المقربين اليه ، واعنى بذلك ترهان وينال وكلنر . كان ترهان الاكثر تأثرا بينهم ، كان كسيحا أعمى وذا يد مشوهة . استدعاهم ثم قال لهم « هؤلاء هم رسل ملك العرب لزعيم البلغار ، وأرى أنه لا يجوز لى أن اتركهم يعرفون دون استشارتكم » .

عندها تحدث ترهان فقال « هذه قضية لم نر لها مثيلا من قبل . فلم يحدث أن اجتاز سفير السلطان بلادنا منذ أن كنا نحن وأجدادنا هنا . وانه (استشم) مكيدة يدبرها لنا السلطان . فقد ارسل هؤلاء الرجال فى الواقع الى قبائل الهوزار ليحركها ضدنا . فالأفضل أن نشطر اجساد هؤلاء السفراء الى شطرين وناخذ كل ما معهم » .

واضاف مستشار آخر : « كلا فالأفضل أن ناخذ كل ما معهم ونتركهم عراة ثم يعودوا من حيث أتوا » .
وقال آخر : « كلا فنحن لنا أسرى عند ملك الهوزار فواجبنا أن نرسل هؤلاء لتفتديهم بهم » .

واستمروا في نقاش هذه الامور بينهم سبعة ايام بلياليها ، بينما نحن في حالة شبيهة بحالة الاموات حتى وافقوا اخيرا على فتح الطريق والسماح لنا بالمرور . قدمنا لترهان حلة شرف او تكريم مؤلفا من (جبتين) من « المريف » وبعض التوابل والدخن وبعض ارغفة الخبز . .

ثم استأنفنا رحلتنا حتى وصلنا الى نهر باجند . وهناك استقلينا قواربنا الجلدية التي صنعت من جلد الجمال بعد ان نشرناها وحملنا عليها بضائعنا التي انزلناها عن الجمال التركية . وعندما كان يمتلئ القارب كانت تجلس فيه مجموعة من خمسة او ستة اشخاص ، يحملون بايديهم اغصان اشجار يستعملونها كمجاديف ثم ياخذون بالتجاديف بينما الماء تحمل القارب وتعزله في دوائر لولبية . واخيرا عبرنا . اما فيما يتعلق بالخيول والجمال فقد عبرت النهر سباحة لوحدها .

من الضروري جدا حين عبور نهر من الانهار ان تنقل اول الامر مجموعة من المحاربين مع اسلحتهم عبر النهر قبل كل القافلة حتى تقام نقطة حراسة وحماية لصد هجوم الباسكر بينما تقوم باقى القافلة بعبور النهر .

وهكذا عبرنا نهر باجندى ثم نهرا آخر يسمى غام بنفس الطريقة التي عبرنا بها النهر الاول . ثم عبرنا نهر اوديل وادرن ووارز واحتى ووبنا ، وكلها انهار كبيرة .

حتى وصلنا قبائل البسكنز . كان هؤلاء ينصبون خيامهم قرب بحيرة هاذئة وكانها البخر . وهم قوم سمر غامقو السمرة . كما انهم شعب قوى يحلق رجاله لحاهم . وهم فقراء بالمقارنة مع قبائل الاوغوز ، لاني رايت بين الاوغوز من كان يمتلك عشرة آلاف من الخيول ومائة الف من الغنم . لكن قبائل البسكنز كانوا فقراء ولم نمكث بينهم غير يوم واحد .

ثم انطلقنا حتى وصلنا نهر جيحون . وهو اكبر واعرض واسرع نهر زايناه . وفي الحقيقة رايت بنفسى كيف كانت القوارب الجلدية تنقلب فيه راسا على عقب ويفرق كل من كان فيها . كثير من افراد جماعتنا ماتوا كما ان كثيرا من الجمال والخيول نفقت غرقا . عبرنا هذا النهر بصعوبة فائقة ثم غدينا الترحال لعدة ايام اخر وعبرنا

نهر سيحون ، ثم نهر آزن ثم نهر باجاج ثم نهر سمر ثم نهر كنال
ثم نهر سوح ثم نهر كيقلو . وفيها النهاية وصلنا الى بلاد الباسكر .
(تتضمن مخطوطة ياقوت وصفا قصيرا لكوث ابن فضلان بين
الباسكر ، الا ان العديد من العلماء يشكون في صدق هذه المقاطع .
اما الوصف الحقيقي فهو غامض الى حد الغرابة قدر ما هو ممل ،
وهو يتضمن بشكل رئيسي قوائم بأسماء الاسياد والنبلاء الذين
التقى بهم . ويرى ابن فضلان نفسه ان الباسكر لا يستحقون ان
يهتم بهم ، وهي بحد ذاتها جملة لا يمكن ان تصدر عن هذا الرحالة
الذي لا يشبع فضوله) .

واخيرا تركنا ارض الباسكر وعبرنا نهر جرمسان ثم نهر اورن
ثم نهر اورم ثم نهر تيج ثم نهر امباش ثم نهر غاوش . وبين الانهار
التي ذكرنا كان هناك بين كل نهر ونهر رحلة يوم او يومين او ثلاثة
او اربعة ايام في كل حالة .
ثم وصلنا الى بلاد البلغار ، التي تبدا عند شواطئ نهر الفولجا .

الفصل الثالث

اول اللقاءات مع اهل بلاد الشمال

لقد رايت بام عيني كيف وصل رجال الشمال مع عتادهم ،
واقاموا خيامهم على شاطئ نهر الفولجا (1) . لم ار في حياتي قط
اناسا مردة كهؤلاء ؛ فكلهم طوال كأشجار النخيل ، محمرو الوجنت
موردوها . ولا يرتدون الشلحات ولا القفطان لكن الرجال منهم
يرتدون ثوبا من القماش الخشن مردود الى احد الجانبين بحيث تبقى
احدى اليدين حرة .

(1) في الواقع كانت الكلمة التي عبر بها ابن فضلان عن هؤلاء هي (الروس) ،
وهو اسم قبيلة معينة من اهل الشمال . خلال النص يسمى احيانا الاسكندنافيةين
بالاشارة الى اسماهم القبلية الخاصة ، ويسميهم احيانا الفرنجة كتعبير عن الاصل
(او المرق) . ويحصر المؤرخون الآن استعمال تعبير الفرنجة بالاشارة الى المرتزة
الاسكندنافيةين الذين استخدمتهم الامبراطورية البيزنطية . ومنعا لكل اختلاط ، تم في
هذه الترجمة استعمال تعبيرى «اهل الشمال» و «رجال الروس» في كل مكان منها .

ويحمل كل من اهل الشمال فاسا وخنجرا وسيفا ، ولا تراهم ابدا بغير هذه الاسلحة . وسيوفهم عريضة ذات خيوط مموجة وفرنجية الصنع . ومن رهوس اظافرهم حتى اعناقهم ترى الرجال منهم موشمين بصور الاشجار ، والاحياء والاشياء الاخرى .
اما النساء منهم فيحملن على صدورهن صنادوقا صغيرا من الحديد والنحاس او الفضة او الذهب حسب غنى وثروات أزواجهن . كما يحملن خاتما مثبتا على هذه الصناديق وفوق الخاتم خنجرا ، والكل مثبت الى صدورهن . وحول اعناقهن يلبسن الاطواق الذهبية والفضية .

انهم اقدر خلق الله . فهم لا ينظفون انفسهم بعد الذهاب الى المراض ، ولا يفسلون انفسهم بعد الجنابة اكثر مما تفعل الحمر الشاردة .

وهم ياتون من بلادهم ويرسون سفنهم في الفولجا ، وهو نهر عظيم ، ثم يبنون على ضفتيه بيوتا خشبية . وفي كل من هذه البيوت يعيش عشرة او عشرون او اقل او اكثر من ذلك . ولكل رجل مصطبة يجلس عليها برفقة البنات الجميلات اللواتي يعرضهن للبيع . وحيانا يقوم بالاستمتاع باحداهن بينما صديق له يتمتع النظر . وحيانا يقوم عدد منهم بالقيام بنفس المتعة في وقت واحد وكل على مرأى من جميع الاخرين .

وبين وقت وآخر يلجأ تاجر الى احد هذه البيوت ليشتري فتاة فيجد سيدها مشغولا بعناقها ولا يكف عن ذلك حتى يقضى وطره . وهم لا يرون في هذا امرا مثيرا للاستغراب .

وفي كل صباح تأتي جارية وتحضر معها طشتا من الماء وتضعه امام سيدها . ويبدأ السيد بغسل وجهه ويديه ثم شعره الذي يمشطه فوق الوعاء . وبعدها ينظف انفه ثم يبصق في الطست ، ينقل كل ذلك الى الماء امامه . وعندما ينتهي تحمل الفتاة الطست الى الرجل الذي يليه والذي يقوم بنفس العمل . وهكذا تستمر بنقل الطست من رجل الى آخر حتى يكون كل من في البيت قد مخط وبصق في الطست وغسل وجهه وشعره .

هذه هي طبيعة الامور بين اهل الشمال كما رايتها بام عيني . ومع ذلك فحين حللنا بينهم كان هناك بعض الشعور بعدم الرضى بين هؤلاء المردة ، والسبب يعود لما يلى :

كان رئيسهم الكبير وهو رجل اسمه وغلف قد وقع مريضا ، فاقبمت له خيمة مرض على مسافة من المعسكر وترك معه الخبز والماء . لم يقترب منه أو يكلمه أحد ، كما لم يزره أحد طيلة الفترة . ولم تعده عبيده ، لان اهل الشمال يعتقدون ان الانسان يجب ان يشفى من اى مرض يصيبه بقوته وقدرته . وكان الكثيرون بينهم يعتقدون ان وغلف لن يعود للانضمام اليهم في معسكرهم وانه سوف يموت .

ولهذا تم اختيار واحد منهم ، وهو نبيل شاب يدعى بيولف ، اختيار ليكون زعيمهم الجديد ، ولكنه لم يقبل طالما ان الزعيم المريض مازال حيا . كان هذا هو سبب الاضطراب حين حولنا بينهم . الا انه مع ذلك لم تكن هناك اى من مظاهر الاسى او البكاء بين الناس المعسكرين على نهر الفولجا .

ويعلق اهل الشمال اهمية كبيرة على واجبات المضيف . فهم يحييون كل زائر بحرارة وكرم ويقدمون له الماء واللباس ، كما يتبارى الكبار والنبلاء بينهم لكسب شرف اعظم التكريم . وقد احضر اعضاء قافلتنا امام بيولف واقبمت على شرفنا وليمة كبيرة ترأسها بيولف نفسه . وكان رجلا طويلا قويا ذا جلد وشعر ولحية بيضاء ناصعة البياض . وكانت له هبة الزعيم .

واعترافا بكرم الوليمة اكل رجالنا بشكل مثير للنظر ، ومع ذلك فقد كان الطعام كريها كما ان تقاليد الوليمة كانت تتضمن الكثير من التراشق بالطعام والشراب ، والكثير من الضحك والمرح . وكان مألوقا في وسط هذه الوليمة الوقحة ان نبلا من نبلائهم يلهو بجارية على مرأى من جميع اتباعه .

حين رأيت كل ذلك ادرت وجهى وقلت « استغفر الله رب العالمين » فضحك رجال الشمال طويلا لخرجى . وقد ترجم لى احدهم بما معناه انهم يعتقدون بان الله ينظر بكثير من العطف الى مثل هذه الملذات المكشوفة . وقد قال لى « انتم العرب مثل عجائز النساء ، انكم ترتجفون لمنظر الحياة » .

فقلت مجيبا « انما انا ضيف بينكم وارجو من الله ان يقودنى الى طريق الصواب » .

وكان هذا سببا لضحك تلاميذهم الاول ولكنني لم اجد سببا
جعلهم يكتشفون نكتة فيما اقول .

وتحمل عادات اهل الشمال عميق الاحترام لحياة الحرب . وفي
الحقيقة فان هؤلاء الرجال الضخام يجاربون باستمرار ، ولا يعرفون
السلام ابدا لا بين بعضهم ولا بينهم وبين كل القبائل من كل
الانواع . وهم يتفنون بأغاني حروبهم وشجاعتهم ، ويعتقدون بان
موت المحارب وهو يقاتل هو اعظم الشرف .

واثناء وليمة بيولف غنى جماعة منهم اغنية عن الشجاعة
والمعارك فلاقت اعجابا كبيرا رغم ان القليلين فقط اصفوا اليها . اذ
ان خمر اهل الشمال القوية سرعان ماتحيلهم الى حيوانات وحمير
شاردة . ففي وسط الاغنية كان هناك هتافات عالية ومبارزات
مميّزة بسبب خناقة بين محاربيهم . لم يتوقف المغني عن غنائه رغم
هذه الاحداث ، وفي الحقيقة رايت الدم المتطاير يرشم وجهه لكنه
مسحه دون ان يتوقف عن الغناء .

لقد ترك في ذلك اعظم الاثر .

وحدث الان ان امر بيولف الذي كان مخمورا كالاخرين ، بان
اغني لهم اغنية . وقد اصر على ذلك اصرارا كبيرا . ورجبة في الا
اغضبهم رتلت بعضا من القرآن الكريم بينما المترجم يكرر كلماتي
بلسانهم . لكنهم لم يجدوا فيما رتلت شيئا افضل مما في اغاني
مغنيهم الجوال ، وقد استغفرت بعد ذلك ربي على الطريقة التي
استقبلت بها كلماته المقدسة واستغفرته ايضا على الترجمة ، التي
احسست بانها كانت عقيمة ، لان المترجم نفسه كان في الحقيقة
سكرانا .

بقينا بين اهل الشمال يومين ، وفي صبيحة اليوم الثالث بدانا
نهية انفسنا للرحيل ولكن اخبرنا المترجم بان الزعيم وغلف قد مات
فأثرت ان ابقى لاشهد ماسيحدث بعده .

في بادىء الامر مددوه في قبره الذي اقيم فوقه سقف ، وعلى مدى
عشرة ايام حتى اتموا تفصيل وخياطة ثيابه (1) . ثم اتوا ايضا

كان هذا وحده كافيا ليدخل مشامد اعربيا نادما من طقس دافئ ، فالتقاليد الاسلامية
تأمر بالدفن السريع ، غالبا ما يكون في نفس يوم الوفاة بعد مراسيم قصيرة من الغسل
والصلاة عليه .

بامتعة وممتلكاته الشخصية وقسموها الى ثلاثة اقسام . كان القسم الاول لعائلته ، والثاني ينفق على الثياب التي صنعوها له ، اما بقية القسم الثالث فيشترون به مشروبات قومية استعدادا لليوم الذي تسلم فيه احدى الفتيات نفسها للموت وتحرق مع سيدها .

ويسلمون انفسهم كلية لشرب الخمرة بشكل جنوني يشربونها ليلا ونهارا كما ذكرت سابقا . وليس من النادر ان يموت احدهم وكاسه في يده .

توجهت عائلة وغلف بالسؤال الى جميع فتياته ووصيفاته : من منكن ستموت معه ؟ وعندها اجابت احداهن : انا . منذ اللحظة التي نظقت فيها بهذه الكلمة لم تعد حرة ابدا . حتى لو رغبت بالتراجع فانه لا يسمح لها بذلك .

تسلم الفتاة التي رضيت بذلك الى فتاتين اخريين تقومان بمراقبتها ومرافقتها حيثما ذهبت كما تفسلان احيانا قدميها . وينهمنك الجميع باعداد الميت - يفصلون الثياب له ويهيئون كل ما هو ضرورى . وخلال كل تلك الفترة تسلم الفتاة نفسها كلية للشرب والغباء وتبقى مرحة فرحة .

الفصل الرابع

في هذه الاثناء اكتشف بيولف ، وهو النبيل الذي سيلي في الزعامة ، اكتشاف منافسا كان يدعى ثوير كل . لم اعرفه من قبل ، لكنه كان قبيحا قدرا وكان اسمر غامقا بالمقارنة بهذا العرق المتورد الاشقر . وقد تأمر ليصبح هو الزعيم . علمت كل هذا من المترجم لانه لم تكن هناك اى اعراض ظاهرة في استعدادات الدفن يظهر بان اى شيء كان يجرى خلافا للعادة .

لم يشرف بيولف بنفسه على استعدادات الدفن ، لانه لم يكن من عائلة وغلف ، والعرف يقضى بان تهيب عائلة الميت امور جنازته . وهكذا انضم بيولف الى جموع المحتفلين والمبتهجين كما لم يمارس اى تصرف ملكى ، اللهم الا اثناء وليمة المسناء ، حين جلس على المجلس العالى الذى كان مخصصا للملك .

كان يجلس على النحو التالي : عندما يكون أحد رجال الشمال ملكا حقا ، فانه يجلس على رأس الطاولة وعلى كرسى حجري كبير له ذراعان حجريان . هكذا كان كرسى وغلف ، لكن بيولف لم يجلس في هذا الكرسى كما قد يجلس أى انسان غادى ، بل جلس على أحد الدراعين ، وهو وضع اذى به الى السقوط حينما شرب كثيرا او حين كان يفرط في الضحك . وكانت العادة انه لا يستطيع الجلوس على الكرسى حتى يتم دفن وغلف .

خلال كل هذا الوقت كان ثوركل يتأمر ويعقد الاجتماعات مع النبلاء الاخرين . وقد علمت انه كان يشتبه بى كمشعوذ او ساحر مما أزعجنى كثيرا . وقد اخبرنى المترجم الذى لم يكن يصدق ايا من هذه القصص بان ثوركل قال باننى كنت السبب فى وفاة وغلف كما انى كنت السبب فى أن يصبح بيولف الزعيم الجديد ، ولكن والحق اقول ، لم يكن لى دور فى اى من هذه الامور .

بعد بضعة ايام ، طلبت اذنا بالرحيل برفقة ابن باسطو وتاقن وبارس ، ولكن رجال الشمال لم يسمحوا لنا بالمغادرة قائلين انه يجب علينا أن نبقى حتى يوم الجنازة ، ومهددين بطعننا بالخناجر التى كانوا يحملونها دائما وهكذا بقينا .

وحين حل اليوم الذى ستلتهم فيه السنة اللهب وغلف والفتاة قربت سفينته من شاطئ النهر ، ثم اقيمت حولها اربعة اكوام من الحطب والاشخاب الاخرى كما وضعت حولها تماثيل خشبية كبيرة على شكل مخلوقات بشرية .

وفى هذه الاثناء بدأ الناس بالمشى جيئة وذهابا مرددين كلمات لم افهمها . فلغة اهل الشمال ثقيلة على السمع يصعب فهمها . فى حين مدد الزعيم الميت فى قبره على مسافة من السفينة والذى لم يكونوا قد نقلوه منه بعد . ثم اتوا بما يشبه السرير ووضعوه فى السفينة ثم غطوه بالقماش اليونانى المذهب ووسائد من نفس القماش ثم جاءت حيزبون شمطاء كانوا يدعونها « ملك الموت » فنشرت الحاجيات الشخصية على السرير . كانت هى التى اشرفت على خياطة الثياب وكل التجهيزات الاخرى ، كما كانت هى ايضا التى ستدبح الفتاة . لقد رايت الحيزبون بمعنى كانت سمراء ذاكنة غليظة البنية ولها ملامح تدخل الهلع الى القلب .

حين اتوا الى القبر ازاحوا السقف واخرجوا الميت ، عندها رايت
بانه قد اصبح اسود حالكا بفعل برودة تلك البلاد . ويقربه في
القبر وضعوا المشروبات القومية والفواكه كما وضعوا عودا ، وهذه
اشياء اخرجوها كلها الان . اما ولف الميت فانه لم يتغير فيه شيء
الا لونه .

والان رايت بيولف وثوركل يقفان جنبنا الى جنب يتبادلان تعابير
الصداقة القوية اثناء مراسيم الدفن ، ومع ذلك كان واضحا انه
لم يكن ثمة اى صدق في مظهريهما .

بجلل الملك الميت ولف بالثياب ، بدءا من الثياب الداخلية
الى الجرابيات والحذاء والقفطان المصنوع من القماش المذهب كما
وضع على راسه عمامة مصنوعة من القماش المذهب . ومزركشة
بجلد السمور الاسود . ثم حمل الى خيمة في السفينة ، وهناك
اجلسوه على سرير منجد وسندوه بوسائد ثم احضروا شرابا قويا
وفواكه وريحانا وضعوها كلها بجانبه .

ثم احضروا كلبا قطعوه نصفين والقوا به في السفينة . ووضعوا
كل أسلحة ولف بجانبه ثم جاءوا بحصانين جعلوهما يعدوان حتى
صارا ينضحان عرقا . بعدها قتل بيولف احدهما بسيفه وقتل ثوركل
الآخر ثم قطعوهما قطعما صغيرة بسيفهما ورموا القطع في
السفينة . كان بيولف اقل سرعة في قتل الحصان وقد بدا وكان
هذا كان ذا مغزى بالنسبة للمراقبين ولكننى لم افهم مغزاه .

ثم اتى بشورين قطعما قطعما والقيا في السفينة . واخيرا اتوا بديك
ودجاجة فقتلوهما والقوا بهما في السفينة ايضا .

في هذه الاثناء كانت الفتاة التي نذرت نفسها للموت تتمشى
جئة وذهابا ، وتلج الخيمة بعد الاخرى من الخيام التى بنوها هناك .
وكان كل من فى هذه الخيام يضاجمها وهو يقول « خبرى سيدك
اننى ما فعلت هذا الا حبا به » .

وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم قادوا الفتاة الى شيء كانوا
قد اقاموه على شكل اطار الباب . وضعوا قدميهما على سواعد
الرجال الممدودة فرقعها هؤلاء فوق الاطار . هناك نطقت بكلمات
بلغتها وانزلوها بعدها . ثم رفعوها مرة ثانية ففعلت ما فعلته من

قبل . ومرة أخرى أنزلوها ثم رفعوها مرة ثالثة . ثم أعطوها دجاجة
قطعت رقبتها ورمتها بعيدا .

استفسرت من المترجم عما كانت تفعل فأجاب : « في المرة الأولى
قالت : الله ! انى أرى هنا أبى وأمى ، وفي المرة الثانية : الله !
الان أرى كل أقاربي الموتى جالسين ، وفي المرة الثالثة : الله ! هو
ذا سيدي يجلس فى الفردوس . ما أجمل الفردوس ما أروع
خضرتها . ومعه أرى رجاله وغلمانه . انه يدعونى فخذونى اليه » .
ثم قادوها الى السفينة . وهنا خلعت سواربها واعطتها الى
الحيزبون الشمطاء التى كانت تدعى ملاك الموت التى ستقتلها
فيما بعد . ثم خلعت خلخالها وقدمتها الى الوصيفتين اللتين كانتا
تقومان على خدمتها ، واللتين كانتا ابنتى ملاك الموت . ثم رفعوها
الى السفينة دون أن يدخلوها الى الخيمة .

والان جاء رجال بتروسهم وبلطاتهم وقدموا لها كأسا من الشراب
القوى . أخذت الكأس وغنت فوقه ثم أفرغته فى جوفها وأخبرنى
المترجم أنها قالت « بهذا أرحل عن هؤلاء الاعزاء لى » ثم قدم لها
كأس آخر شربته أيضا وبدأت بفناء طويل . وامرتها الحيزبون بأن
تشرب الكأس حتى الجفاف ودون تباطؤ وان تدخل الخيمة حين
كان سيدها .

فى هذا الوقت بدأ لى وكان الفتاة قد داخت وبدأت وكأنها
تريد دخول الخيمة حين أمسكت الشمطاء بها فجاءة من راسها
وجرتها الى داخل الخيمة . فى هذه اللحظة بدأ الرجال بالضرب
على تروسهم بعضهم ليفيخوا ضجيج صيحاتها التى قد ترعب
الفتيات الاخريات فتدعجن عن طلب الموت مع اسبيادهن فى
المستقبل . تبعها ستة رجال الى داخل الخيمة كان كل منهم
يفتصبها بالدور . ثم القوا بها بجانب سيدها بينما أمسك رجلان
بقدميها وآخرا ببيديها . أما الحيزبون الشمطاء المعروفة بملاك
الموت فقد عقدت الان حبلا حول عنقها واعطت طرفيه الى اثنين من
الرجال ليشدوا العقدة ثم وبخنجر عريض الشفرة طعنت الحيزبون
الفتاة بين أضلعها وسحبت الخنجر بينما استمر الرجلان بخنقها
فى الحبل حتى ماتت .

اقترب اقارب الميت « وغلف » الان وأخذ احدهم قطعة من الخشب الملتهب ومشى عاريا الى الخلف باتجاه السفينة واشعلها بما فيها دون أن ينظر اليها . وسرعان ما كانت الجنازة العائمة شعلة من اللهب بينما أصبحت السفينة والخيمة والرجل والفتاة وكل شيء آخر عاصفة من النيران الملتهبة .

كان احد الرجال يقف بجانبى ينطق ببعض التعليقات موجهها كلامه للمترجم . سألت المترجم عما قيل فجاءنى الجواب هكذا : « انتم العرب لابد وأن تكونوا قوما اغبياء . فانتم تأخذون احب رجالكم اليكم وأكثرهم احتراما وتلقون بهم تحت الأرض لتلتهمهم الزواحف والديدان ، بينما نحن نحرقهم فى رمشة عين بحيث يدخلون الجنة مباشرة ودون تأخير » .

وفى الحقيقة وقبل ان تمضى ساعة من الزمن كانت السفينة والخشب والفتاة قد تحولت جميعا مع الرجل الميت الى رماد .

الفصل الخامس

ما بعد جنازة اهل الشمال

لا يجد هؤلاء الاسكندنافيون سببا للحزن فى موت أى انسان فالفقير والعبد ليسا شيئا ذا بال بالنسبة اليهم ، وحتى زعيمهم لا يثير أى حزن او دموع ، فى مساء نفس يوم جنازة الزعيم « وغلف » اقيمت وليمة كبرى فى قاعات معسكر الشماليين .

الا اننى لاحظت أنه لم يكن كل شيء على ما يرام بين هؤلاء البرابرة . تحدثت عن هذا مع مترجمى فأجاب على النحو التالى : « هى خطة ثوركل ان يراك تموت ، ومن ثم يقضى على بيولف . وقد حصل على دعم بعض النبلاء له ، ولكن هناك جدلا وخصاما فى كل بيت وفى كل حى » .

فقلت بكثير من القلق « ليس لى أى شان فى هذه القضية فكيف اتصرف ؟ » .

اجاب المترجم بان على ان اهرب ان استطعت ، ولكن ان قبض على فسيكون ذلك برهانا او دليلا على ذنبي وسوف اعاقب كلص .
ويعاقب اللص على النحو التالى : يقسوده الشماليون الى شجرة ضخمة . ويشدون حبلا قويا حوله ثم يعلقونه ويتركونه هناك معلقا حتى يتعفن ويسقط قطعا متناثرة بفعل الريح والمطر عندها تذكرت اننى لم انج من الموت الا بصعوبة على يدى ابن القاطجان ففضلت ان اتصرف كما تصرفت من قبل ، اى بقيت بين الشماليين حتى يسمح لى بمفادرتهم وباتمام رحلتى .

استفسرت من المترجم عما اذا كان من واجبى ان احمل الهدايا الى بيولف والى ثوركل ايضا لكى يحبدا رحيلى . فاجاب باننى لا استطيع ان اقدم الهدايا الى اى منهما ، وانه لم يتقرر بعد من سيكون الزعيم الجديد . ثم اضاف بان هذا سيتضح خلال يوم وليلة على ابعد تقدير .

صحيح ليس عند هؤلاء الشماليين طريقة ثابتة لاختيار زعيم جديد حين يموت القائد القديم . فقرة السلاح لها اعظم الحساب . ولكن ولاءات المحاربين ايضا والنبلاء والوجهاء لها قيمتها . وفى بعض الاحيان لا يكون هناك خليفة واضح للحاكم ، وكانت هذه الحالة احدى تلك الحالات . وقد قال مترجمى انه على ان اصبر وان اصلى ايضا . وهذا ما فعلت .

ثم هبت عاصفة هوجاء على ضفتى نهر الفولجا ، عاصفة استمرت يومين من المطر الجارف والرياح العاتية ، وبعد هذه العاصفة حط ضباب بارد على الارض . كان سميكاً ابيض ولم يكن باستطاعة اى انسان ان يرى على بعد اكثر من عشر خطوات .

الا ان نفس هؤلاء المحاربين الشماليين المردة ، والذين بفضل ضخامتهم وقوة سواعدهم وتصرفاتهم القاسية كانوا لا يهابون شيئا فى هذا العالم كله فانهم يخافون الضباب او الصقيع الاثى مع العواصف .

ويعانى رجال ذلك العرق الكثير لاخفاء خوفهم ، حتى بين بعضهم البعض . فالمحاربون يضحكون ويمرحون كثيرا ويحاولون التظاهر غير المبرر بعاطفة الهدوء . وبهذا يبرهنون على العكس . وفى الواقع

فان محاولاتهم لاختفاء خوفهم محاولات طفولية ، إذ ببساطة يدعون أنهم لا يرون الحقيقة ، ومع ذلك فكل واحد منهم وفي جميع أنحاء المعسكر يقوم بالصلاة ويقدم الاضحيات من الدجاج والديكة وإذا سأل أحد عن سبب الاضحيات ، يجيبه « انى أقدم الاضحيات من أجل سلامة عائلتي البعيدة » أو يقول « أى أقدم الاضحيات من أجل نجاح تجارتي » أو يقول « أقدم الاضحيات اكراما لهذا الفرد أو ذلك من أموات عائلتي » أو قد يقول أسبابا كثيرة اخرى ثم يضيف ! « وأيضا من أجل زوال الضباب » .

ولقد حسبته من الضرائب بالنسبة لهؤلاء الناس الاقوياء المحاربين ان يخافوا الى هذا الحد من أى شئ حتى يتظاهروا بعدم الخوف . ومن بين كل أسباب الخوف المعقولة بدا الصقيع والضباب لفكرى غير مفهوم على الاطلاق .

قلت لمترجمى ربما يخاف الرجل من الريح أو من عاصفة رملية هوجاء أو من فيضان الماء أو من اهتزاز الارض أو من البرق والرعد فى السماء ، فكل هذه قادرة على أن تؤذى انسانا أو تقتله أو تهدم منزله ، ولكن الضباب أو الصقيع ليس فيه تهديد أو ابداء . وفى الحقيقة كان هذا اقل شكل من أشكال عناصر الطبيعة المتغيرة .

أجابنى المترجم باننى كنت أحتاج الى عقيدة البحار . وقال ان كثيرا من البحارة العرب يتفقون مع أهل الشمال فيما يتعلق بالقلق بسبب الضباب الملتف ، وكذلك بسبب الضباب أو الصقيع لجوالى البحار الكثير من القلق لان مثل هذه الحال تزيد من مخاطر السفر فى المياه .

قلت هذا معقول ولكن حين يسقط الضباب على الارض وليس على الماء فاننى لم أفهم معنى أى خوف . جوابا على ذلك قال مترجمى الضباب دائما مخيف فى أى وقت اتى . وأضاف بأنه ليس هناك من فرق سواء على اليابسة أو فى الماء ، من وجهة نظر أهل الشمال . ثم قال لى ، ان الشماليين لا يخافون الضباب كثيرا حقا . وقال المترجم أيضا انه هو كرجل لم يكن يخاف الضباب . وقال انها قضية ثانوية ليست ذى بال . وأضاف « انها ليست سوى

الم بسيط داخل مفصل من مفاصل الاطراف قد ياتى مع الضباب لكنه ليس أكثر أهمية من ذلك .

بهذا أحسست بأن مترجمى كالأخرين ينكر كل شكل من أشكال القلق بسبب الضباب ويتظاهر بالامبالاة .

وحدث فى هذه الاثناء ان الضباب لم ينقشع مع انه تبخر وأصبح رقيقا فى أواخر النهار ، كما بدت الشمس كدائرة فى السماء لكنها هى أيضا كانت من الضعف بدرجة استطعت معها ان أنظر فى قلب ضوئها مباشرة .

فى نفس هذا اليوم وصل قارب شمالى فيه نبيل من قومهم . كان رجلا شابا ذو لحية خفيفة ولم يكن يرافقه فى رحلته الا عدد قليل من الخدم والعبيد ولم يكن بينهم نساء . ولهذا اعتقدت انه لم يكن تاجرا اذ ان هذه المناطق ياتى الشماليون خاصة لبيع النساء .

أرسى هذا الزائر قاربه بنفسه وبقي واقفا عنده حتى هبط الليل . ولم يقترب منه أو يحييه أى انسان مع انه كان قريبا وعلى مرأى بصر الجميع . وقد قال مترجمى : « انه أحد أقرباء بيولف وسوف يستقبل ضيفا فى وليمة المساء » .

وسألت « ولماذا يبقى عند سفينته ؟ » .

« بسبب الضباب » اجاب المترجم وأضاف « يقضى العرف ان يبقى واقفا على مرمى البصر لعدة ساعات حتى يراه الجميع ويوقنوا انه ليس عدوا قادمنا من الضباب » . قال لى هذا بشيء من التردد .

فى وليمة المساء رأيت الشاب يدخل القاعة . وهنا حى بحرارة وبكثير من الدهشة خاصة من قبل بيولف الذى بدأ يتصرف كما لو ان الشاب قد وصل لتوه ولم يكن قد مضى عليه ساعات واقفا بجانب السفينة . وبعد تحيات كثيرةلقى الشاب خطابا عاطفيا أصفى اليه بيولف باهتمام غير عادى . لم يشرب ولم يداعب الجوارى ، ولكنه بدلا من ذلك أصفى الى الشاب بصمت بينما كان الشاب يتكلم بصوت عال جهير . وحين انتهى من قصته بدأ وكان الدموع تنساب من عينيه فقدمت له كأس من الشراب .

سألت مترجمى عما قاله الشاب . وكان هذا الجواب : « انه وولف غار ، ابن روث غار ، وهو أحد ملوك الشمال العظام . وهو

قريب لبيولف ويطلب مساعدته ودعمه فى مهمة بطولية . يقول
وولف ان البلد البعيد يعانى الخوف ومن رعب لا يسمى وهو رعب
يعجز كل الناس وكل الاقوام عن مقاومته . وهو يطلب من بيولف
ان يسرع بالعودة الى البلد البعيد لينقذ شعبه ومملكة ابيه
روث غار .

سالت المترجم عن طبيعة هذا الرعب ، فقال لى « لا اسم له
استطيع ان اخبرك به » . وبدا المترجم شديد الاضطراب بسبب
كلمات وولف غار ، كما اضطرب لها كثيرا من اهل الشمال الاخرين .
ولقد رايت على ملامح بيولف تعابير داكنة حزينة ، فاستفسرت من
المترجم عن تفاصيل هذا المصاب . قال المترجم : « لا يمكن لفظ
الاسم فالنطق به محرم كى لا يستدعى الشياطين » . وبينما كان
يتكلم كنت ارى انه كان يخاف حتى من التفكير فى هذه الامور ،
وكان هلعه واضحا ولهذا توقفت عن السؤال .

كان بيولف يجلس صامتا فوق الكرسى الحجري . والحقيقة ان
جميع النبلاء والرجال والعبيد والخدم الحاضرين كانوا صامتين
ايضا . لم ينطق اى رجل فى القاعة بحرف واحد . اما الرسول
وولف غار فقد وقف امام الجمع حانى الرأس . لم ار فى حياتى
قط قوم الشمال المرحين صعبى المراس يمثل هذا الاسى والحزن .

ثم دخلت الى القاعة الحيزبون الشمطاء الملقبة بملاك الموت ،
وجلست تقرب بيولف ، ومن جقية مخبأة اخرجت بضع عظمت
لم ادر ان كانت عظاما بشرية ام حيوانية والقت بهذه العظمت على
الارض وهى تتمم بكلمات مبهمه وتمرر يدها فوق العظمت .

ثم جمعت العظمت والقيت ثانية واعيدت الكرة بكثير من الالخان
والدمدمة . ومرة اخرى القيت العظمتات ثم خاطبت بيولف .
استفسرت من المترجم عن معنى ما قالته لكنه لم يعرنى اى انتباه .

ثم ان بيولف وقف ورفع كأس شرابه القوى وخاطب النبلاء
والمقاتلين المجتمعين بخطاب طويل . وشيئا فشيئا وقف عدد من
المحاربين فى اماكنهم ليواجهوه . لم يقف الجميع . عددت الواقفين
فكانوا احدى عشر فعبر بيولف عن رضاه بهذا .

ورابت الان ايضا ان ثوركل كان بادى السرور بسبب ما جرى

واتخذ وضعا اكثر ملوكية بينما لم يعره بيولف اى اهتمام كما لم يبد اى كراهية نحوه ولا حتى اى اكتراث ، مع انهما كانا قبل قليل عدوين .

ثم ان ملاك الموت ، نفس تلك الحيزبون ، اشارت اليه ونطقت ببعض الكلمات ثم غادرت القاعة . واخيرا تكلم مترجمى فقال : « ان بيولف مدعو من قبل الالهة ان يغادر هذا المكان وبسرعة تاركا خلفه كل قضاياہ ومشاغله ليتصرف كبطل ويدفع مصاب الشمال . هذا مناسب وسوف يأخذ معه احد عشر مقاتلا ، كما سياخذك انت ايضا معه » . قلت انى فى مهمة الى البلغار ، ولا بد لى من اتباع اوامر خليفتى دون تاخير .

« لقد تكلمت ملاك الموت ا » هكذا اجاب مترجمى ثم اضاف « يجب ان تكون مجموعة بيولف ثلاثة عشر ، ويجب ان يكون احد هؤلاء من غير اهل الشمال ، وهكذا فلا بد ان تكون انت الثالث عشر » . فاحتججت على ذلك باننى لست محاربا . وفى الحقيقة قدمت كل الاعتذارات والتوسلات التى خذرت على بالى والتى يكون لها اى تأثير على هذه الجماعة الوقعة من المخلوقات . وطلبت من المترجم ان ينقل كلماتى الى بيولف ، الا انه اشاح بوجهه وترك القاعة وهو يقول لى هذه الكلمات الاخيرة « اعد نفسك كاتمن ما يكون الاعداد . ستفادر معهم مع اول ضوء المصباح » .

الفصل السادس

الرحلة الى البلد البعيد

بهذه الطريقة منعت من اتمام رحلتى الى مملكة بلطوار ملك الصقالبة ولم اتمكن من حمل امانة المقتدر امير المؤمنين وخليفة مدينة السلام . اعطيت كل ما استطعت من معلومات وتعليمات الى دادر الحرامى والى السفير ايضا عبد الله بن بسطو الحزارى ، والى الخادمين : تاقن وباريس ، ثم ودعتهم ولم اعد ادرى بما جرى لهم بعد ذلك .

أما بالنسبة لى فقد اعتبرت نفسى فى حال ليست أفضل من حال رجل ميت . وسرعان ما أصبحت على ظهر احدى السفن الشمالية المبحرة شمالا فى الفالجا مع اثنى عشر من جماعتهم اما أسماء الآخرين فكانت كالتالى : بيولف الزعيم وضابطه المرافق اكثفو ثم نبلاؤه ورجالته هفلنج ، اسكلز ، وث ، رونث ، هلفا ، ثم مقاتلوه ومحاربوه الشجعان : هلفدان ، ادغثه ، رثل ، هلتف ، وهرغر(١) . وكنت انا بينهم ، غير قادر على التكلم بلفتهم او فهم طرفهم ، لان مترجمى كان قد ترك ايضا فلم يكن لى سوى الصدفة ورحمة الله التى جعلت من احدى مقاتليهم ، وهو هرغر رجلا ذا معرفة ومحيطا ببعض اللغة اللاتينية .

وهكذا كنت أستطيع ان افهم من هرغر معنى الحوادث التى تلت . كان هرغر محاربا شابا مرحا شديد المرح ، وكان يبدو وكأنه يجد نكتة فى كل شىء ، وخاصة فى أساى وحزنى عند الرحيل .

هؤلاء الشماليون هم حسب تقديرهم افضل بحارة الدنيا ، ولقد رايت مدى حبههم للمحيطات والمياه يشع من ملامحهم . اما عن السفينة فهاكم وصفها : كان طولها قدر خمسة وعشرين خطوة وعرضها ثمانية واكثر من ذلك قليلا . كانت ممتازة البناء ومصنوعة من خشب البلوط . ربما كان لونها اسود من كل ناحية وفى كل جبهة . وكانت مجهزة بشراع مربع الشكل من القماش المزركش يجبال مصنوعة من جلد الفقمة(٢) . وكان موجه الاشرعة يقف على مصطبة صغيرة بجانب مؤخرة السفينة ويشد دفة متصلة بجانب

(١) يلاحظ منا ان وولف غار قد بقى مع اهل الشمال ولم يعد مع بيولف . يعلق جنسن على ذلك قائلا بان اهل الشمال كانوا عادة ياخذون الرسول رهينة ، ولهذا كان الرسل المناسيون ابناء ملوك او نبلاء على المقام او اشخاصا ذوى قيمة فى مجتمعهم ، مما كان يجعلهم راغبين مناسين . اما اولاف جركنسون فيدعى بان وولف غار ما بقى هناك الا خوفا من العودة معهم .

(٢) كان بعض المؤلفين القدامى يمتقدون بان هذا كان يعنى ان الشراع كان مزودا بحبل يدخل فى الشراع ويخرج منه على شكل الخيطة ، وهناك رسوم ولوحات من القرن الثانى عشر تظهر اشرعة الفايكنج وعليها زركشة من الحبال . ليس هناك من دليل على ان الحالة كانت كذلك . ما عناه ابن فضلان ان هذه الاشرعة كانت مطرزة بالمفهوم النوتى ، اى انها موجهة فى افضل زاوية لالتقاط الريح وذلك باستعمال حبال جلد الفقمة كمرابط .

السفينة على الطريقة الرومانية . كانت هذه السفينة مزودة بالمجاديف لكنها لم تستعمل أبدا ، ولكن كنا نتقدم بواسطة الأشرعة لوحدها . وعند مقدمة السفينة كان هناك نحت خشبي يمثل رأس وحش بحري رهيب ، كتلك التي نراها عادة على بعض سفن أهل الشمال . وكان هناك أيضا ذيل في المؤخرة . وفي الماء كانت هذه السفينة قوية ثابتة والرحلة فيها ممتعة ، كما أن ثقة المحاربين بأنفسهم قد رفعت من معنوياتي الى حد كبير .

وعند موجه السفينة كان هناك فراش من الجلود مرتبة فوق شبكة من الحبال وفوقه غطاء من الجلد أيضا . كان ذلك هو فراش بيولف ، أما المحاربون الآخرون فقد كانوا ينامون هنا وهناك على ظهر السفينة بعد أن كانوا يتلفعون بالجلود ، وقد فعلت أنا مثلهم .

أبحرنا لمدة ثلاثة أيام في النهر وقد اجتزنا الكثير من البلدان والمستوطنات الصغيرة على ضفتيه . لكننا لم نتوقف في أي منها . ثم وصلنا الى معسكر كبير في منعطف من نهر الفولجا . وهنا كان مئات من الناس ، كما كانت هناك مدينة كبيرة الحجم ، وفي مركزها كان هناك كنيسة (كرمين) وقلعة لها جدار من الطين وذات أبعاد كبيرة . سألت هرغر عن هذا المكان فقال لي : « هذه هي مدينة البلغار في مملكة الصقالبة وذلك هو قصر بلطوار ملك الصقالبة » . اجبته « هذا هو الملك ذاته الذي أرسلت لاقابله كممثل لخليفتي » وبكثير من التوسلات طلبت أن أنزل الى الشاطئ لاقوم بالمهمة التي كلفني بها خليفتي ، كما طلبت ذلك أيضا وبكثير من مظاهر الغضب حتى درجة الوقاحة .

لكن رجال الشمال لم يعيرونني أي انتباه ، ولم يتنازل هرغر حتى للإجابة على تساؤلاتي ومطالبتي ، وأخيرا نظر الى ضاحكا بسخرية ثم عاد ووجه انتباهه الى أشرعة السفينة . وهكذا أبحرت سفينة الشماليين بجانب مدينة البلغار وقريبة من الشاطئ الى حد كنت أسمع فيه صياح التجار وثناء الغنم ، ومع ذلك كنت بلا حول ولا قوة سوى مشاهدة ذلك المنظر بعيني . وبعد مرور ساعة حاولت مرة ثانية ولكن طلبى رفض أيضا ، إذ أن مدينة البلغار كانت على

منمطف من النهر كما قلت سابقا . وسرعان ما غابت عن ناظري . وهكذا دخلت ثم غادرت بلغاريا (ربما أصبح القارىء الان مشوشا الى حد كبير حول جغرافية المنطقة . فبلغاريا الحديثة هي احدى دول البلقان ، تحدها اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وتركيا . ولكن من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر الميلادى كانت هناك بلغاريا اخرى على ضفتى الفولجا وعلى بعد حوالى ستمائة ميل شرقى موسكو الحديثة . وذلك هو المكان الذى كان يقصده ابن فضلان . اما بلغاريا التى كانت على الفولجا فكانت مملكة مهلهلة رغم بعض الاهمية ، كما ان عاصمتها بلغار كانت شهيرة وغنية عندما احتلها المغول فى عام ١٢٣٧ م ويعتقد بان بلغاريا الفولجا وبلغاريا البلقان كانتا ماهولتين بمجموعات عرقية متشابهة من المهاجرين الذين انطلقوا من مناطق حول البحر الاسود خلال الفترة ما بين ٤٠٠ - ٦٠٠ م . ولكن المعلومات عن هذا الموضوع قليلة نادرة . وتقع مدينة البلغار القديمة فى منطقة قازان الحديثة) .

مضى ثمانية ايام اخرى ونحن فى السفينة ومازلنا فى نهر الفولجا وكانت اليابسة أصبحت أكثر جبليية ووعورة حوالى حوض النهر . والان وصلنا الى رافد آخر من روافد النهر يسميه الشماليون نهر اوكر ، وهنا اتجهنا الى الرافد الواقع على اقصى اليسار ثم استمرينا فى رحلتنا عشرة ايام اخرى . كان الهواء باردا جدا وكانت الريح قوية وكان الكثير من الثلج ما يزال يغطى الارض . وكانت هناك غابات كثيرة هائلة الحجم فى هذه المنطقة التى يسميها الشماليون فادا .

وصلنا الى معسكر لاهل الشمال اسمه ماسبورنج . كان هذا اقل مما يمكن تسميته بلدة ولكنه معسكر من مجموعة قليلة من البيوت الخشبية مبنية بحجوم كبيرة على طريقة اهل الشمال . وتعيش هذه المدينة على بيع المواد الغذائية للتجار الذين يقصدونها عبر هذا الطريق . وفى ماسبورنج غادرنا سفينتنا وسافرنا برا على ظهر الخيول لمدة ثمانية عشر يوما . كانت هذه منطقة جبليية وعرة شديدة البرودة وكنت مرهقا بسبب طول الرحلة . وهؤلاء الشماليون لا يسافرون ليلا أبدا ، كما انهم نادرا ما يبجرون ليلا ، لكنهم يفضلون

ان يرسوا سفنهم في كل مساء وينتظرون بزوغ فجر اليوم التالي قبل استئناف الرحيل .

الإ أنه رغم ذلك وقعت الواقعة التالية : خلال فترة ترحالنا تلاشت فترة الليل الى حد لم يعد يكفى لطبخ اكلة من اللحم خلاله . وقد كان يبدو لى أننى ما أكاد أستلقى لانام حتى يوقظنى الشماليون قائلين « أنهض لقد طلع النهار يجب أن نستأنف رحلتنا » . كما لم يكن النوم منشطا للقوى في هذه الاماكن الباردة .

أوضح لى هرغر أن النهار فى بلاد الشمال يكون طويلا فى الصيف ويكون الليل طويلا فى الشتاء ، وأنه نادرا ما يكونان متساويين . ثم قال لى أنه على أن اراقب السماء ليلا لارى ستارة السماء أضواء شاحبة متراقصة خضراء وصفراء وأحيانا زرقاء وهى معلقة وكأنها ستارة فى أعالي الجو . وقد دهشت أعظم الدهشة لمنظر ستارة السماء ولكن أهل الشمال لا يعدونها شيئا غريبا . ثم تابعتنا السير لمدة خمسة أيام أخرى ونحن نهبط الجبال حتى وصلنا منطقة من الغابات . وغابات بلاد الشمال باردة كثيفة فيها اشجار ضخمة هائلة . كما انها أرض رطبة باردة . وفى بعض المناطق هى من الخضرة بحيث تتألم العينان من بهر الالوان ، أما فى مناطقها الأخرى فهى سوداء مظلمة مرعبة .

تابعتنا السير لسبعة أيام أخرى خلال الغابات وقد واجهنا الكثير من المطر . وغالبا ماتكون طبيعة هذا المطر أن يسقط بغزارة تسبب الشعور بالخوف . وبين مرة وأخرى كنت أظن أننى سأغرق ، فقد كان المطر غزيرا لحد كان فيه الهواء نفسه مملوعا بالمطر . وفى فترات أخرى ، حينما كانت الرياح تقلد المطر كان يبدو وكأنه عاصفة رملية يقرص لحومنا ويحرق عيوننا ويعمى أبصارنا . (اما وأن ابن فضلان قادم من منطقة صحراوية فلا عجب أن تبهره ألوان الخضرة الساطعة والمطر الغزير)

الفصل السابع

لم يكن هؤلاء الشماليون يخافون اللصوص أبدا فى الغابات وسواء كان ذلك بسبب قوتهم الهائلة أو ندرة عصابات اللصوص قاننى فى الواقع لم أشاهد احدا فى هذه الغابات . فسكان بلاد الشمال قليلون

من كل صنف أو هكذا بدا لي خلال ترحالي هناك . وكنا غالبا ما نساغر
لمدة سبعة أيام أو عشرة دون أن نرى مستوطنة واحدة أو مزرعة أو
منزلا .

استمرت رحلتنا على الوجه التالي : كنا نستيقظ في الصباح ودون
وضوء أو غسل كنا نمتطي جيادنا ونستمر في السفر حتى منتصف
النهار . ثم كان بعض المحاربين يصطادون لنا صيدا حيوانا
كان أو طيرا . اذا كان الوقت ممطرا كان هذا الطعام
يؤكل دون طبخ . . . ولقد هطل المطر غزيرا لمدة
أيام ، وفي أول الامر رضيت بأكل اللحم نيئا ، والذي لم يكن ذبجا
حلالا ، ولكنني بعد فترة اكلته أيضا وأنا أقول « باسم الله » بصوت
هامس ، وأنا ادعو الله ان يتفهم مصابي . وعندما لم تكن تمطر ،
كانوا يوقدون نارا في منقل كانوا يحملونه معهم ثم يطبخون الطعام
عليه . ولقد اكلنا أنواع التوت والاعشاب التي لا أعرف اسمها .
ثم استأنفنا رحيلنا في الجزء الاخير من النهار والذي كان لا بأس
بطوله ، وحتى هبوط الليل حين كنا نقف لنتراح وناكل .

وكثيرا ما كانت تمطر في الليل ، فكنا نبحث عن ملجأ تحت الاشجار
الباسقة ، ومع ذلك فقد كنا ننهض مبليين وجلود نومنا مبللة أيضا .
ولم يتشكك أهل الشمال من كل هذا بل كانوا مرحين مبتهجين
طوال الوقت . كنت أنا الوحيد الذي أشكو ويفضب . لكنهم لم
يعيروني أى اهتمام .

وأخيرا قلت لهرغر : « المطر بارد » فضحك ثم قال : « كيف
يمكن ان يكون المطر باردا ؟ أنت البارد وانت التعيس . أما المطر
فليس باردا ولا تعيسا » .

كان واضحا لي انه كان يؤمن بهذه الحماقة ، وكان يظنني حقا
احمقا ان افكر بغير تفكيره ، ومع ذلك بقيت على تفكيرى .

ثم حدث في ليلة من الليالي وبينما كنا ناكل ان قلت بادنا طعامي
« باسم الله » ، فسأل بيولف هرغر عما قلت . أخبرت هرغر اننى
اعتقد بأنه يجب ذكر اسم الله على الطعام ، واننى فعلت ذلك
انسجاما مع معتقداتى . فقال لى بيولف « أهذا هو أسلوب
العرب ؟ » وكان هرغر هو المترجم .
فأجبت بما يلى : « كلا . في الحقيقة ان الذى يذبح اللبيحة هو

الذى يجب أن يذكر اسم الله . ولكننى أقول هذه الكلمات لنا
أنسى » .

وقد وجد الشماليون فى هذا سببا للضحك فضحكوا من أعماق
قلوبهم . ثم التفت الى بيولف قائلا « هل تستطيع أن ترسم
الاصوات ؟ » لم افهم قصده اولا فاستفسرت من هرغر ، ثم كار
هناك حديث تداوله الاثنان ، واخيرا فهمت انه كان يعنى الكتابة
فاهل الشمال يسمون حديث العرب ضجيجا أو أصواتا . اجبت
بيولف اننى استطيع الكتابة كما استطيع القراءة . قال انه على أن
اكتب له على الارض . وعلى ضوء نار المساء ، اخذت عصا وكتبت
« الحمد لله » . نظر جميع الشماليين الى الكتابة ثم امرت أن أقول
ما تعنيه ففعلت . وفجأة حدق بيولف فى الكتابة لمدة طويلة ورأسه
غارق فى صدره .

قال لى هرغر ، « أى اله هذا الذى تحمده ؟ » فاجبت باننى
احمد الاله الذى اسمه الله .

فقال هرغر « اله واحد لا يكفى » .

استأنفنا الرحيل ليوم آخر وقضينا ليلة أخرى ثم يوما آخر ،
وفى مساء اليوم التالى تناول بيولف عصا ورسم على الارض ماكنت
قد رسمته له وطلب الى أن أقرأها . فقلت بصوت عال « الحمد
لله » . ظهرت ملامح الرضا على وجه بيولف لهذا ، وقد وجدت انه
كان يمتحننى وقد احتفظ فى ذاكرته بالرموز التى رسمتها لى
يرينى اياها مرة أخرى .

أما اكثغو وهو مرافق بيولف ، ولكنه محارب اقل مرحا من
الاخرين شديد المراس ، فقد خاطبنى بواسطة المترجم هرغر . قال
هرغر « ان اكثغو يرغب أن يعرف ان كنت تستطيع أن ترسم صوت
اسمه » .

فقلت اننى استطيع ذلك ، واخذت عصا وبدأت أرسم على
القدرات . وفجأة قفز اكثغو واطاح بالعصا وداس على كتابتى وهو
يردد كلمات غاضبة .

قال لى هرغر « لا يرغب اكثغو أن تكتب اسمه فى أى ظرف كان .
يجب أن تعد بذلك » .

وهنا انتابتني الحيرة . وقد رايت ان اكتبوا كان غاضباً مني
اشد الغضب . كما كان الآخرون يحدقون بي بقلق وغضب وعدت
هرغرر الأرسم اسم اكتبوا او اسم اى من الآخريين . عند هذا بدا
الارتياح على وجوه الجميع .

لم يناقش بعد هذا موضوع كتابتي أبدا ، لكن بيولف ، وكلما
كانت تمطر ، كان يأمر ان اساق الى شجرة كبيرة كما صار يقدم
لى المزيد من الطعام عما كان قبلا .

لم تكن ننام دائما فى الغابات كما لم تكن دائما نركب خيولنا
عبرها . فعند اطراف بعض هذه الغابات كان بيولف ورفاقه
المحاربون يندفعون الى الامام وجيادهم تعدو خلال الاشجار الكثيفة ،
دون اهتمام او احساس بالخوف . ومع ذلك فعند غابات اخرى
كان يشد اللجام ويتوقف ، وكان المحاربون يترجلون ثم يحرقون
نارا ويقدمون قرابين من الطعام وبعض ارغفة الخبز القاسى ، او ربما
يقدمون منديلا من القماش كقربان قبل ان يستأنفوا السفر . ثم
يمتطون جيادهم دائرين حول طرف الغابة دون ان يدخلوا الى
أعماقها .

استفسرت من هرغرر عن هذا ، فأجاب بان بعض هذه الغابات
كانت آمنة وان بعضها لم يكن كذلك ، ولكن ابضاحه لم يتجاوز
هذا الحد . فسألته « ما هو الذى غير أمين فى الغابات التى تعتبر
كذلك ؟ » فأجابنى بما يلى : « هناك اشياء لا يستطيع انسان ان
يقهرها ولا يستطيع بسيف ان يقتلها ، ولا تستطيع نار ان تحرقها ،
ومثل هذه الاشياء تعيش فى الغابات » . قلت « وكيف تتم معرفة
ذلك ؟ » . هنا ضحك وقال « انتم العرب ترغبون دائما ان تكون
عندكم الاسباب لكل شىء . وقلوبكم كيس كبير مملوء بالاسباب » .
فقلت « وانتم الا تهتمون بالاسباب ؟ » فقال « انها لا تجدى شيئا .
نحن نقول يجب ان يكون الانسان حكيما باعتدال ولكن ليس مفرط
الحكمة حتى لا يعرف قدره مسبقا . فالانسان الذى يكون عقله
متحررا من الاهتمام والحرص لا يعرف قدره مسبقا » .

هنا قلت انه لايد لى من ان ارضى بجوابه . ففى الواقع فى بعض
المناسبات كنت اثير بعض التساؤلات وكان هرغرر يجيب عليها .

وحين لم اكن افهم جوابه كنت الح في السؤال وكان هو يفصل
الجواب . ولكن في بعض الاحيان حينما كنت اثير بعض التساؤلات
كان يجيب باقتضاب كما لو كان سؤالى بلا معنى . وعندها لم اكن
الح في سؤالى ، اذ لم اكن اتلقى من جواب سوى هزة من راسه .
واستأنفنا الرحيل . واستطيع ان اقول بحق ان بعض الغابات
في بلاد الشمال العذراء كانت تثير احساسا بالخوف لم اكن ادري له
سببا . ففي الليل وبينما الشماليون متحلقون حول النار كانوا
يقصون قصصا عن التنين والوحوش القاتلة ، ويحكون الحكايا ايضا
عن اجدادهم الذين قتلوا هذه المخلوقات وكانوا يقولون ان هذه هي
مصادر خوفى انا . ولكنهم كانوا يروون القصص دون اى مظاهر
الخوف ، اما هذه الوحوش فلم ار اثرا لها بعينى .

في احدى الليالى سمعت دمدمة حسبتها رعدا ولكنهم قالوا انها
صوت عويل التنين في الغابة . لست اعلم حقيقة هذا ولكنى ادون
ما قيل لى .

بلاد الشمال باردة رطبة ، وقلما ترى الشمس فيها ، فالسما
رمادية تغطيها السحب الكثيفة طيلة النهار . والناس في هذه المناطق
شاحبو الوجوه وكانها قماش قطنى ، اما شعورهم فشعراء شديدة
الشقرة . بعد ايام عديدة من السفر لم اعد اشاهد اناسا سمرا على
الاطلاق ، وفي الحقيقة كان سكان هذه المناطق يستفربون لون جلدى
وشعري الاسود . وكثيرا ما اقترب منى مزارع او زوجته او ابنته
ليلمسونى بشىء من الحذر والخوف . وكان هرغر يضحك ويقول
انهم كانوا يحاولون ازالة لوني اعتقادا منهم باننى طليته على لحمى .
انهم قوم جهلاء لا علم لهم بسعة هذا العالم . وكثيرا ما خافونى
وتحاشوا الاقتراب منى . وفي احد الاماكن الذى لا اذكر اسمه صاح
طفل في رعب قاتل وجرى ليتعلق بامه عندما رانى .

عندها ضحك محاربو بيولف بفرحة طاغية . ولكنى لاحظت الان
انه مع مرور الايام توقف محاربو بيولف عن الضحك ، واصيبوا
بنوبة مزاج سيىء كانت تزداد يوما بعد يوم . وقد قال لى هرغر انهم
كانوا يفكرون بالشراب الذى كنا قد حرمناه منه لايام عديدة .

وفي كل مزرعة او منزل كان بيولف ومحاربوه يسألون عن الشراب

الإان هذه المناطق الفقيرة نادرا ماكان فيها شراب فكانوا يصابون بخيبة امل عظيمة ، حتى اختفى كل اثر للمرح على وجوههم .

الفصل الثامن

وبعد عناء طويل وصلنا قرية وجد فيها المقاتلون الشراب فاذا كل رجال الشمال مخمورون في رمشة عين وهم يشربون بطريقة صاخبة غير هابئين بالشراب الذي كان ينسكب على لحاهم وثيابهم وهم يشربون . وفي الحقيقة فان احد افراد المجموعة ، المحارب المتزن اكتشفو غرق في الشراب حتى سكر وهو لا يزال على حصانه وسقط وهو يحاول الترجل فرفسه الحصان في راسه ، وخفت على سلامته ولكن اكتفو ضحك ورد رفسة الحصان برفسة مثلها .

بقينا في هذه القرية طيلة يومين ، وقد دهشت لذلك لانه في الماضي كان المقاتلون يظهرون استعجالا كبيرا وجدية في رحلتهم ، الا انهم هجروا كل ذلك الان مستسلمين الى الشراب والنوم العميق . وفي اليوم الثالث امر بيولف بأن نستأنف الرحيل فتحرك المحاربون وأنا بينهم ، ولم يعدوا خسارة يومين بالشيء الغريب .

لم أمد متاكدا من عدد الايام التي قضيناها في السفر ، الا اننى اذكر أننا غيرنا خيولنا خمس مرات بخيول جديدة ، وكنا ندفع ثمن هذه الخيول في القرى ذهبا أو اصدافا صغيرة خضراء قيمتها عندهم اثنان من أى شيء آخر في هذا العالم . وبعد عناء طويل وصلنا الى قرية اسمها لنبرغ تقع على شاطئ البحر . كان البحر رماديا مغبرا ، وكذا السماء ، كما كان الهواء باردا قارسا . هنا ركبنا سفينة جديدة .

كانت هذه السفينة ذات مظهر شبيه بمظهر السفينة الاولى ولكن اكبر حجما وكان الشماليون يسمونها هسبونغن ، أى عنزة البحر ، وذلك لان هذه السفينة كانت تشب على الأمواج كما يشب ذكر الماعز على عنزته ، ولان هذه السفينة كانت سريعة ولان عند هؤلاء الناس كان الماعز هو الحيوان الذى يرمز الى السرعة .

كنت خائفا من ركوب هذا البحر ، فمياهه عالية باردة شديدة

البرودة ، فاذا غطست يد انسان في هذا البحر فانها تصاب بالخدر في رمشة عين ، كان مخيفا باردا . ومع ذلك فقد كان الشماليون مرحين وقد تبادلوا النكات وشربوا طيلة المساء في قرية لنبرغ البحرية وتمعوا انفسهم بكثير من النباء والاماء . وقد قيل لى ان هذه هى عادة اهل الشمال قبل القيام برحلة بحرية ، اذ لا يعرف احد ان كان سيبقى حيا حتى آخرها ، وهكذا فانه ينزل الى البحر باقصى ما يستطيع من المتعة .

في كل مكان وصلناه كنا نستقبل بكرم لا يعرف الحدود ، فالكرم عند هؤلاء القوم فضيلة كبرى حتى ان افقر الفلاحين كان يضع كل ما عنده امامنا ، يفعل ذلك دون خوف من ان نقتله او نسرقه ولكن بطيبة وكرم عال . ولقد علمت ان الشماليين لا يتحملون ابدا اللصوص والقتلة بين قومهم ويعاملون مثل هؤلاء الناس بقسوة بالغة . وهم يعتقدون بهذا رغم حقيقة كونهم دائما مخمورين يشفون كالحیوانات البلهاء ويقتلون بعضهم البعض في مبارزات حامية . ومع هذا فانهم لا ينظرون الى هذه المبارزات على انها جريمة قتل ، اما من يقتل منهم رجلا فانه يقتل فوراً .

وبنفس الطريقة يعاملون عبيدهم معاملة طيبة للغاية ، مما اثار عجبى . اذا ممرض احد العبيد او مات بسبب مصيبة ما ، فانهم لا يعدون ذلك خسارة كبيرة ، كما ان النساء الجوارى عليهن ان يكن دائما مستعدات للاستجابة لطلب اى رجل في العلق او في الخفاء وليلا ونهارا . ليس عندهم اى عواطف تجاه العبيد ، ومع ذلك فلا يعاملونهم بوحشية ايضا ، فاسيادهم يطعمونهم ويلبسونهم دائما (١) .

وفيما بعد علمت ان اى رجل يستطيع ان يتمتع باية جارية ، الا ان زوجة احط المزارعين تقابل بمزيد من الاحترام من قبل زعماء ونبلاء الشماليين كاحترام هؤلاء الزوجات بعضهم البعض . فمحاولة اغتصاب امرأة حرة المولد ليست عبدة هى جريمة تكراء يحكم على الرجل بسببها بالشنق ، مع اننى لم ار هذا مطلقا .

(١) ماكتبه شهود عيان آخرون لا يتفق مع وصف ابن فضلان لمعاملة العبيد وللملاقات الجنسية . ولذلك فان بعض المراجع تشك في صداقته كمراتب اجتماعى . ولعى الواقع ربما كان هناك اختلافات محلية كبيرة بين قبيلة وأخرى لى اعراف معاملة العبيد والزوجات الزانيات .

ويقال أن العفة بين النساء هي فضيلة كبرى ، ولكننى قلما رأيتها تمارس ، فالزنا لا يعتبر قضية خطيرة ، وإن كانت زوجة أى رجل غالى المقام أو خفيضة شهوانية فإن نتائج ذلك لا تعتبر أمرا ذا بال . فهؤلاء القوم متحررون جدا فى هذه القضايا ، ويقول رجال الشمال أن النساء ماكرات ولا يمكن الوثوق بهن . ويبدو أنهم قد استسلموا لهذا الأمر ويتحدثون عنه بأسلوبهم المرح المعتاد .

سألت هرغر إن كان متزوجا فقال إن له زوجة . سألت بحذر بالغ إن كانت عفيفة فضحك فى وجهى وقال : « أنا أسافر فوق البحار ، وقد لا أعود ، وقد أغيب سنوات طويلة . وزوجتى ليست ميتة » . من هذا أدركت أنها لم تكن مخلصة ، ولكنه لم يابه لذلك . ولا ينتظر أهل الشمال إلى أى وليد على أنه نفل أو ابن زنا إن كانت الام زوجة . أما اطفال العبيد فهم أحيانا عبيد وأحيانا أحرار ، ولا أعرف كيف يقرر هذا الأمر .

فى بعض المناطق يعلم العبيد بعلامة هي قرط للاذن . وفى مقاطعات أخرى يرتدى العبيد عقدا من الحديد حول أعناقهم يحدد مكانتهم الاجتماعية . وفى بعض المناطق أيضا لا يوجد على العبيد أى علامات تدل عليهم وتلك هي العادة المحلية .

والعلاقات الجنسية الشاذة ليست معروفة بينهم ، مع أنهم يقولون بأن اقواما أخرى تمارسها ، أما هم أنفسهم فيدعون بأنهم لا يهتمون بالأمر ، وحيث أن مثل هذا لا يحدث بينهم فليس عندهم عقاب له .

هذا وكثير غيره علمته من أحاديثى مع هرغر ، ومن مشاهداتى لترحال جماعتنا . كما رأيت أيضا أن كل مكان كنا نرتاح فيه كان الناس يسألون بيولف عن المهمة التى قطعها على نفسه . وعندما كانوا يخبرون بطبيعتها - والتى لم أدركها حتى الآن - فإنه ومخاربه وأنا من بينهم كنا نحاط بأعظم الاحترام يرفعون صلاتهم دعاء بالتوفيق لنا ، كما يقدمون لنا أضحياتهم والحجب المحملة بأطيب التمنيات .

وفى البحر ، كما قلت سابقا ، يصبح الشماليون فرحين طروبين ، رغم أن المحيط كان عاتيا صاخبا ورهيبا بالنسبة لى ، وأيضا

بالنسبة لعدتي ، التي كانت تصاب دائما بالغثيان والاضطراب . وفي الحقيقة افرغت معدتي مرة ثم سألت هرغر لم كان هو واصحابه فرحين الى هذا الحد .

قال هرغر « لاننا سنكون عما قريب في بيت بيولف ، Yatlam المكان المعروف باسم يتلم ، حيث يعيش والده وامه وكل اقاربه ، والذين لم يرههم منذ زمن بعيد . » فقلت مجيبا « ان نذهب الى بلاد وولف غار ؟ » واجاب هرغر « نعم ، ولكنه من المناسب ان يتجه بيولف ليؤدي قروض الطاعة لوالده ولامه ايضا . » وايت في وجوههم ان كل النبلاء الاخرين والمحاربين كانوا فرحين قدر ما كان بيولف نفسه كذلك . فسألت هرغر عن سبب ذلك فاجاب « بيولف رئيسنا ونحن سعيديون لسفادته وللقوة التي سيمتلکها عما قريب . » سألته عن القوة التي تحدث عنها فاجاب « انها قوة رندنج » ، فسألت ايضا « وما هذه القوة ؟ » فاجاب قائلا « انها قوة الاجداد ، انها قوة المردة » .

يعتقد اقوام الشمال انه في عصور خلت كان العالم ماهولا بعرق من الناس المردة الذين اختفوا منذ تلك الايام . ولا يعتبر الشماليون انفسهم احفادا لهؤلاء المردة ، ولكنهم ورثوا بعضا من قوى هؤلاء المردة الاقدمين ، وبطرق لا افهمها تماما كما يؤمن هؤلاء الوثنيون بالهة عديدة ، والذين هم ايضا آلهة مردة ، ولهم ايضا قواهم الخارقة ، لكن المردة الذين تحدث عنهم هرغر كانوا رجالا مردة ، ولم يكونوا آلهة ، او هذا مابدا لي على الاقل .

في تلك الليلة رسونا عند شاطئ صخري مؤلف من احجار بحجم قبضة الانسلن ، وهناك عسكر بيولف مع رجاله وبقوا حتى الهزيع الأخير من الليل يشربون ويفنون حول النار . وقد اشترك هرغر في الاحتفال ولم يكن عنده من الصبر ما يكفي ليترجم لي معنى الاغانى ، ولهذا لم ادر ماذا غنوا ، لكنهم كانوا سعداء . ففى صبيحة اليوم التالى سيحلون في دار بيولف ، في موطن بيولف المسمى يتلم .

رحلنا قبيل طلوع الفجر ، وكان البرد من القسوة بحيث شمعت بعظامي ثن ، وكان جسمي يتالم من قساوة الشاطئ الصخري . وكنا نسافر فوق بحر صاخب وفي رياح عاتية . ابخرنا طيلة الصباح ،

وخلال هذه الفترة كان حماس الرجال يتزايد شيئا فشيئا حتى غدوا كالأطفال أو كالنساء . ولقد كان عجيبا غريبا على أن أرى هؤلاء المحاربين الأقوياء يقهقهون ويضحكون كحريم الخليفة ، ومع ذلك لم يجدوا في ذلك ما يؤذي رجولتهم .

كانت هناك نقطة على الشاطئ عبارة عن نتوء صخري عال من الحجر الرمادي جاثم على البحر المقبر ، وقد أخبرني هرغر بأن وراء هذه النقطة تقع بلدة يتلم . حاولت جهدي عبثا أن أرى بيت بيولف الأسطوري حين استدارت سفينة الشماليين حول الجرف . أما المحاربون فكانوا يضحكون ويزيد صياح ابتهاجهم ففهمت أنهم كانوا يلقون نكات وقحة كثيرة عن خططهم للتمتع بالنساء عندما ينزلون من السفينة .

ثم كانت هناك رائحة دخان فوق البحر وبعد ذلك رأينا الدخان ، وفجأة صمت الجميع وكان على رؤوسهم الطير . عندما التفقنا حول تلك النقطة رأيت بأم عيني أن تلك البلدة كان يقلفها لهيب خانق ودخان اسود معتم . ولم يكن هناك أى أثر للحياة .

نزل بيولف ورجاله من السفينة ومشوا عبر بلدة يتلم . كانت منشورة هنا وهناك جثث الرجال والنساء والأطفال . وقد التهم بعضها اللهب بينما قطع بعضها الآخر السيوف - أكوام وأكوام من الجثث . لم ينطق بيولف ورجاله ببنت شفة ولكن حتى في هذه الحالة لم يكن هناك أثر للحزن أو للبكاء أو للالام لم أر في حياتي قط قوما يتقبلون الموت كما يتقبله أهل الشمال . حتى أنا نفسي أصبت بالفشيان مرات عديدة لمشاهد القتل والدمار ، ولكنهم لم يعانون مثل هذه الحال أبدا .

وأخيرا قلت لهرغر ، « من فعل هذا ؟ » أشار هرغر إلى أعماق اليابسة ، إلى الغابات والتلال المتباعدة عن المحيط المقبر . كانت هناك كتل من الضباب فوق الغابات أشار إليها هرغر دون أن ينطق بحرف . سألته « هل هي كتل الضباب ؟ » فقال « لا تسأل أكثر من ذلك . ستطلع على الحقيقة بسرعة تفوق حتى رغبتك . »

والآن حدث الاتى : دخل بيولف أحد البيوت المدمرة التي كان يتصاعد منها الدخان ، ثم عاد الينا يحمل سيفًا ضخما هائلا . كان

السيف من الضخامة والثقل ، والحرارة القوية التي تركتها فيسه
النيران ماجعله يحمله وقد لف حول مقبضه قطعة من القماش .
والحقيقة اقول كان ذلك اكبر سيف رأته في حياتي . فقد كان بطول
جسمه وكان حده مبسطا واسعا يشبه راحتي رجلين وضعتا جنبا
الى جنب . وكان كبيرا ضخما الى حد ناء تحت حمله حتى بيولف
نفسه . سألت هرغر عن هذا السيف فقال « ذلك هو رندنج » ،
ثم امر بيولف بأن تتوجه كل الجماعة الى السفينة فانطلقنا في عباب
البحر ثانية . لم يلق اى من المحاربين نظرة وداع على المدينة المحترقة ،
« يتلم » ، انا وحدي فعلت ذلك فرايت الدمار يعلوه الدخان ورأيت
كتل الضباب على التلال المحيطة فيما وراء ذلك .

الفصل التاسع

الاقامة في تولبرغ

على مدى يومين كاملين ابحرنا على طول شاطئ منبسط ما بين
جزر كثيرة تسمى ارض الدانز ، ثم وصلنا اخيرا الى منطقة من
المستنقعات فيها معابر من انهر صغيرة تصب في البحر . هذه الانهار
لا اسم لها لكن كلا منها يسمى ويك أو فيك ، واسماء اهالي مناطق
هذه الانهار الضيقة هي الفايننج أو الوايننج ، والتي تعنى بالنسبة
لاهل الشمال المحاربين الذين يبحرون بسفنهم على طول هذه الانهار
ويهاجمون المستوطنات بطريقة الفايننج (١) .

في هذه المناطق المستنقعية توقفنا في مكان يسمونه تولبرغ ، كان
بالنسبة الى اعجوبة من العجائب . فلم تكن هناك بلدة بالمعنى
الصحيح ، ولكن كان هناك معسكر حربي ، واهله كانوا محاربين معهم
القليل من النساء والاطفال . وكانت دفاعات معسكر تولبرغ هذا تبني
بحرص ومهارة كبيرين على طراز البناء الروماني .

(١) هناك بعض الجدل بين العلماء الحديثين حول اصل كلمة « فايننج » ولكن معظمهم
يوافقون ابن فضلان على رايه بانها مشتقة من كلمة فيك vik والتي تعنى نهرا
ضيقا صغيرا .

تقع ترلبرغ عند ملتقى نهرين يصبان بعد ذلك في البحر .
والجزء الاساسى من البلدة محاط بسور دائرى من الطين وبعلو
خمنسة رجال يقفون فوق بعضهم البعض . وفوق هذه الحلقة
الطينية كان يقوم سياج خشبى يؤمن حماية اكبر . اما خارج هذه
الحلقة الطينية فكان هناك حفرة مملوءة بالماء لم أعرف عمقها .

هذه المنشآت الترابية كانت مصنوعة بشكل ممتاز ، وفيها
تناسق ونوعية من الجودة لاينافسها اى شيء أعرفه . وكان هناك
ايضا مايلى : في الجانب المحاذى لليابسة من البلدة كان هناك سور
عال على شكل نصف دائرة وكان هناك حفرة ثانية وراه .

اما المدينة نفسها فتقع ضمن اطار الحلقة الاولى التى يشقها
اربعة ابواب ، بمواجهة زوايا الارض الاربعة . وكل بوابة مجهزة
بابواب قوية من خشب البلوط لها مفاصل ثقيلة من الحديد ،
ويحرسها رجال كثيرون . كما ان كثيرا من الحرس يتجولون فوق
التاريس والاسوار ، ويقومون بالحراسة والمراقبة ليل نهار .

هناك داخل اسوار البلدة ستة عشر منزلا خشبيا متشابهة تماما :
كلها بيوت طويلة ، كما يدعوها أهل الشمال ، لها جدران منحنية
بشكل يشبه القوارب المقلوبة وقد قطعت نهاياتها وبسطت في المقدمة
والمؤخرة . طولها ثلاثون خطوة وهى اكثر اتساعا في جزئها الوسط
منها في النهايتين . وهى مرتبة على الوجه التالى : كل اربعة بيوت
طويلة تقام بشكل محكم الترتيب بحيث تشكل مربعا . وهكذا ترتب
اربع مربعات ليكون مجموعها ستة عشر بيتا (1) .

كل بيت طويل له مدخل واحد ، ولا يمكن ان يكون مدخل اى
من البيوت على مرأى من البيت الاخر . سألت عن سبب ذلك ،
فاجاب هرغر قائلا : « اذا هوجم المعسكر ، فيجب على الرجال ان
يسرعوا الى مواقع الدفاع ، وتكون الابواب عادة وبهذا الشكل مرتبة
بشكل يمكن الرجال من الاسراع الى مواقع دفاعهم دون اختلاط او

(1) هناك من يؤكد صحة كلام ابن فضلان عن طريق الدليل الأثرى (الأركيولوجى)
ففى عام ١٩٤٨ تم التنقيب واكتشاف الموقع المسكرى لترلبرغ فى زيلندة الغربية فى
الدانمارك . . . والموقع يتطابق تماما مع وصف ابن فضلان لخيم وطبيعة وتركيب
المستوطنة .

اضطراب ، بل على العكس يستطيع كل واحد منهم أن ينطلق بحرية وسرعة لياخذ مواقعه في الدفاع .

وهكذا فانه ضمن المربع الواحد يكون باب احد البيوت متجها الى الشمال ، والذى يليه الى الشرق ، والذى بعده الى الجنوب والرابع الى الغرب ، وهكذا ايضا هي الحال في كل من المربعات الاربعة .

ثم انى رايت انه في حين ان هؤلاء الشماليين كانوا ضخاما مرده ، فقد كانت هذه البوابات او المداخل منخفضة جدا كنت حتى انا اضطر معها لان انحنى عند الدخول الى احد هذه البيوت فسالت هرغر عن سبب ذلك فاجابنى « اذا ما هوجمنا يمكن ان يبقى محارب واحد داخل البيت . وبسيفه يستطيع قطع رعوس كل من يحاول دخول البيت . فالباب منخفض جدا بحيث يضطر اى داخل ان يرسل راسه اولا فيتم قطعه . وفي الحقيقة وجدت ان ترلبرغ في كل مجالات الحياة كانت بلدة مصممة للحرب والدفاع . لم تكن تجرى اية تجارة هنا كما قلت سابقا . اما داخل البيوت الطويلة فهناك داخل كل بيت ثلاثة اقسام او غرف ولكل منها باب . والغرفة الوسطى هي الاكبر وفيها حفرة لالقاء الزبالة .

ادركت الان بان اهل ترلبرغ لم يكونوا كالشماليين المقيمين على نهر الفولجا . فهؤلاء كانوا قوما نظيفين بالنسبة لعرقهم . فقد كانوا يفتسلون في الانهار ، ويتخلصون من فضلاتهم خارج الابواب في العراء وكانوا في كل مجال اكثر تفوقا مما عرفته من قبل . ومع ذلك لم يكونوا نظيفين بكل معنى الكلمة اللهم الا من باب المقارنة .

اما مجتمع ترلبرغ فمعظمه من الرجال ، والنساء كلهن جوارى اذ ليس هناك من زوجات بين النساء ، كما ان كل النساء هناك يتم الاستمتاع بهن بحرية وحسب رغبة الرجال . ويعيش اهل ترلبرغ على السمك وبعض الخبز القليل ، وهم لا يقومون باية زراعة او فلاحة ، رغم ان الاراضى المستنقعية المحيطة بالبلدة تحوى مناطق ملائمة للزراعة . سألت هرغر لماذا ليس هناك زراعة فاجابنى قائلا « هؤلاء محاربون . انهم لا يحرثون الارض » .

استقبل بيولف ورفاقه استقبالا رائعا من قبل زعماء ترلبرغ الذين كانوا عديدين ، والذين كان اكثرهم صدارة واحد يسمى ساغارد . وساغارد هذا رجل قوى عنيف وضخم ضخامة بيولف نفسه تقريبا .

وخلال وليمة المساء استفسر ساغارد من بيولف عن مهمته واسباب سفره فأخبره بيولف عن تضرعات ورجاءات وولف غار . وكان هرغر يترجم لى كل ما يقال رغم انى فى الواقع كنت قد قضيت بين هؤلاء الوثنيين وقتا كافيا لاتعلم كلمة واحدة او اثنتين من لغتهم هاكم معنى الحديث الذى جرى بين ساغارد وبيولف . تحدث ساغارد فقال : « من المعقول والمنطقي بالنسبة لبيولف ان يقوم بمهمة الرسول ، رغم انه ابن الملك روث غار ، لان ابناء روث غار العديدين قد انقلبوا بعضهم على بعض » .

اجاب بيولف بانه لم يكن يعرف شيئا عن هذا او شيء بهذا المعنى ولكنى لاحظت بانه لم يكن شديد الدهشة لذلك . كان بيولف نادرا ما يصاب بالدهشة من اى شيء . فقد كان هذا من جملة متطلبات دوره كزعيم وقائد للمحاربين وبطل لهم .

تحدث ساغارد ثانية فقال « فى الحقيقة رث غار له خمسة ابناء ، مات ثلاثة منهم على يدي واحد منهم هو وغلف المكار (1) الذى كان شريكه فى المؤامرة منادى الملك المعجوز . وولف غار وحده هو الذى بقى مخلصا وقد غادره الان » . اجاب بيولف ساغارد بانه كان سعيدا لان يسمع بهذه الاخبار وانه سوف يبقيا فى ذاكرته ، وانتهى الحديث عند هذا الحد . ولم يظهر بيولف ولا اى من رجاله اية دهشة لكلمات ساغارد ، فهمت من هذا انه من المعتاد ان يتخلص ابناء الملك بعضهم من بعض ليصلوا الى العرش .

(1) الكلمة المستعملة هنا كانت حرفيا « رجل يجيد استعمال يديه الاثنتين » كما سيتطوع فيما بعد كان الشماليون مزدوجي الايدي فى الحرب ، وكانت القدرة على حمل السلاح من يد الى اخرى تعتبر حيلة زائفة . وهكذا فان تعبير « يجيد استعمال يديه الاثنتين » يعنى انه رجل مكار او ماهر . وقد اعطيت كلمة زئبقى معنى مشابهها ، بينما تعنى الان « خداع بناور » ، ولكن فى السابق كان لها معنى اكثر ايجابية اى « صاحب موارد وغيرة » او « كثير المناورة » .

وصحيح ايضا انه من وقت لآخر قد يقتل الولد اباه الملك ليصل الى العرش ، ولا يعتبر امرا قريبا اذ ينظر اليه الشماليون كما ينظرون الى اى شجار بين سكارى المحاربين . ويردد اهل الشمال مثلا شعبيا يقول « انظر خلفك » وهم يعتقدون بان على كل انسان ان يكون مهيبا دائما لان يدافع عن نفسه ، حتى بالنسبة لوالد تجاه ولده .

عند رحيلنا سألت هرغر لماذا بنى تحصين آخر فى القسم الممتد صوب اليابسة من ترلبرغ ولم يبنوا تحصينا اضافيا كهذا باتجاه البحر . فهؤلاء الشماليون قوم جوابون للبحار بل ويهاجمون من البحر ، ومع ذلك اجاب هرغر قائلا « انها الارض ، انها اليابسة التى هى مصدر الخطر » . فسألته « ولماذا تكون الارض خطرة ؟ » فاجاب « بسبب كتل الضباب » .

الفصل العاشر

عند رحيلنا من ترلبرغ قام المحاربون المجتمعون هناك بضرب بلطاتهم على تروسهم مسببين بذلك ضجة كبيرة وكله من اجل سفينتنا التى كانت قد نشرت قلووعها . وقد اخبرت بانهم يفعلون ذلك لجر انتباه اودن ، احد آلهتهم لكى يرعى اودن هذا بعطفه رحلة بيولف ورجاله الاثنى عشر .

ثم علمت هذا ايضا : وهو ان الرقم ١٣ هو رقم ذو اهمية كبرى بالنسبة لاهل الشمال ، لان القمر ينمو ثم يصبح هلالا ثم يموت ثلاث عشر مرة فى العام فى حسابهم . ولهذا السبب فان كل حساباتهم المهمة يجب ان تحوى على الرقم ١٣ . وهكذا اخبرنى هرغر بان عدد مساكنهم فى ترلبرغ كان ثلاثة عشر يضاف اليها ثلاثة اخرى بدل ان يقول ستة عشر كما عبرت عنها انا من قبل .

واكثر من ذلك علمت ان لدى الشماليين عقيدة مفادها السنة لا تتفق تماما وبدقة مع ثلاثة عشر مرورا للقمر ، ولهذا فان الرقم ١٣ ليس ثابتا ومثبتا فى عقولهم فعروده الثالث عشر يسمى بالسحرى

او الاجنبى ، ويقول هرغر « ولهذا اخترناك وجلسنا الثالث عشر
باعتبارك رجلا اجنبيا » .

والحقيقة ان هؤلاء الشماليين قوم يؤمنون بالخرافات دون رجوع
الى المنطق او العقل او القانون وكانوا يبذون لعينى وكانهم اطفال
متوحشون ، ومع هذا فقد كنت بينهم ولهذا سكت عن كل تعليق .
وسريعا ما اكتشفت لشدة سرورى مدى حصافتى فى هذا الامر ،
لان الاحداث بدأت تجرى على الشكل التالى : كنا قد ابخرنا لبعض
الوقت مبتعدين عن ترلبرغ عندما استذكرت انه لم يحدث قط من
قبل ان قدم سكان بلدة ما طقسوس الرحيل بالضرب على التروس
لاستدعاء اودن . تحدثت بهذا لهرغر فاجاب : « هذا صحيح فهناك
سبب خاص للدعاء لاودن لاننا الان فوق بحر الوحوش » وقد بدا لى
ذلك برهانا على ايماناتهم الخرافية : سألت عما اذا كان اى من
المحاربين قد رأى مثل هذه الوحوش . فقال هرغر « فى الحقيقة
لقد رأيناها جميعا . والا فكيف نعرفها ؟ » .

ومن نبرات صوته كنت استطيع ان اميز انه كان يعتبرنى احمقا
لشكى فيما يقول .

ومر بعض الوقت قبل ان اسمع صياحا ثم ارى محاربى بيولف
واقفين وهم يشيرون الى البحر يراقبون بامعان ويتصايحون فيما
بينهم . سألت هرغر عما حصل ، فقال وهو يشير الى البحر « نحن
بين الوحوش الان » .

كان المحيط فى هذه المنطقة هائجا هادرا ، والرياح تعصف بقوة
مرعبة ، محيلة امواج البحر الى زبد ابيض تبصق الماء فى وجه
البحار وتلعب حيل المخسادة لبصره . راقبت البحر عدة دقائق
ولكننى لم ار منظر وحش البحر ، ولم يكن لدى اى سبب لتصديق
ما قالوا .

وفجأة صاح احدهم وهو يدعو الى اودن ، يصرخ مصليا ويكرر
الاسم مرات عديدة باستعطاف وتضرع ، وعندها فقط رايت وحش
البحر بعينى ، كان على شكل افعى هائلة الحجم لم ترفع رأسها
ابدا فوق سطح البحر ، ولكننى رايت جسمه يتقلب ويتلوى ، وقد
كان طويلا جدا اطول واعرض من سفينة الشماليين ، وكان لونه

اسود . بصق وحش البحر الماء فى الهواء وكأنه ينبوع ثم اندفع نحو الاعماق رافعا ذيله الذى كان مشطورا الى شطرين وكأنه لسان افعى ذو شعبتين . وكان هائلا ، حتى ان كل قسم من ذلك الدليل كان اعرض من اعرض واكبر اى من سعف النخيل .

ثم رايت وحشا آخر ثم آخر ثم آخر بعده ، يبدو انه كان هناك اربعة او ستة منها او سبعة ، وكل منها كان يتصرف كبقية اقرانه يتلوى فى الماء ويصق نافورة ثم يرفع ذيله الهائل المشطور شطرين . وعند رؤيتهم له صاح الشماليون طالبين العون من اودن ، وركع عدد غير قليل منهم على ركبهم يرتجفون على ظهر السفينة .

ولقد رايت بعينى وحوش البحر فى كل مكان حولنا فى المحيط ، ثم بعد مرور بعض الوقت ذهبت جميعا ولم ترها مرة اخرى . واستأنف محاربو بيولف جهدهم فى تسيير السفينة ، ولم يذكر اى منهم الوحوش ، ولكنى كنت مصابا بهلع شديد لمدة طويلة بعدها ، وقال لى هرغر ان وجهى كان ابيض بياض وجه رجل من الشمال ثم ضحك وسألنى « ماذا يقول الله فى هذا ؟ » وهو سؤال لم استطع الاجابة عليه (١) .

فى المساء رسونا عند الشاطيء واشعلنا نارا ، ثم سألت هرغر عما اذا كانت وحوش البحر قد هاجمت سفينة فى البحر ، وان كان ذلك قد حدث فكيف تم ذلك ، لاننى لم استطع رؤية راس اى تلك الوحوش فاجابنى هرغر بمناداته على اكثفو ، والذى هو احد النبلاء ومرافق بيولف . كان اكثفو محاربا جادا وقورا لم يكن يظهر المرح الا حينما كان يسكر وقد قال هرغر انه كان على احدى السفن التى هوجمت . وقد قال لى اكثفو ان وحوش البحر اكبر من اى شىء على سطح اليابسة واكبر من اية سفينة فى البحر ، وهى حين تهاجم فانها تدخل تحت السفينة وترفعها فى الهواء ثم تقلدتها

(١) هذا الوصف لما هو دون شك رؤية الحيتان هو امر يشك فيه كثير من العلماء . ويظهر هذا الوصف فى مخطوطة الرازى كما اوردناه هنا ، ولكنه اقصر من ذلك بكثير فى ترجمة سوغرن ، والذى يبدو فيه الشماليون وكأنهم يدبرون مقبلا ونكتة واضحة يلمبونها على المرعى . ولكن علماء آخرين ، يشكون ، فى ان يكون ابن فضلان غير مطلع او غير عالم بوجود الحيتان ، كما يبدو من وصفه هذا .

كقطعة من الخشب ثم تحطمها بلسانها المشعب . وأضاف اكثغو بأنه كان يوجد ثلاثون بحارا على سفينته ، ولكن لم ينج منهم الا اثنان بالاضافة اليه هو وما ذلك الا بعون الالهة ورحمتها . وقد تحدث اكثغو بطريقة طبيعية جدا ، والذي كان بالنسبة اليه امرا بالغ الجدية ، وقد صدقت انه كان يقول الحقيقة .

كما اخبرني اكثغو بأن الشماليين يعرفون بأن الوحوش تهاجم السفن لانها (اى الوحوش) ترغب فى الزواج بالسفينة ، اذ يظنونها احدى اناثهم . ولهذا لايبنى الشماليون سفنهم بحجوم كبيرة .

كما قال لى هرغر بأن اكثغو محارب عظيم مشهور بمعاركه ، كما يجب تصديقه فى كل شيء .

على مدى اليومين التاليين ابحرنا بين جزر بلاد الدان ، وفى اليوم الثالث عبرنا ممرًا مائيا مفتوحا . وهنا كنت خائفا من رؤية وحوش بحرية اخرى ، لكننا لم نر شيئا من هذا ، بل وصلنا فى آخر المطاف الى مقاطعة تسمى فندان . وبلاد فندان هذه جبلية وعرة مرعبة ، وقد تقدم رجال بيولف بالصلوات وبقربان كان عبارة عن دجاجة ذبحت والقيت فى اليم القى الرأس من على مقدمة السفينة ، أما الجسد فقد القى من مؤخرتها بجانب مسير الدفة .

لم نرس مباشرة عند ارض فندان الجديدة هذه ، ولكننا ابحرنا على طول الساحل ، حتى وصلنا فى آخر الامر الى مملكة روث غار . هكذا رايتها اول مرة : كانت تجثم فوق جرف عال تطل على منظر البحر المزبد الهائج الكامد . كان هناك قاعة كبيرة هائلة مصنوعة من الخشب ، قوية مهيبة . قلت لهرغر انه كان منظرا رائعا لكن هرغر وكل رفاقه بقيادة بيولف كانوا يدممون ويهزون رعوسهم . سألت هرغر لم كانوا يفعلون ذلك . فأجاب « روث غار يدعى روث غار المختال ، وقاعته الكبرى هذه هى دليل او علامة رجل مغرور . » فسالت : « لم تتحدث بهذا الشكل ؟ اهو بسبب حجمها وروعها ؟ » اذ كلما اقتربنا كنت ارى بوضوح اكبر ان القاعة كانت غنية بالزخارف والتماثيل الفضية التى كانت تتلألا من بعيد .

اجابنى هرغر قائلا « كل ما اقوله هو ان روث غار مغرور مختال

بسبب الطريقة التي اقام فيها مستوطنته في هذا المكان . فهو يتحدى
الالهة ان تقدر على تحطيمه ، يدعى بأنه اكثر من مجرد انسان وهو
الان يعاقب على كل ذلك » .

لم ار في حياتي قط قاعة عظيمة ملأى بكل ما هو رائع ونفيس
كتلك القاعة فقلت لهغر « هذه القاعة لا يمكن مهاجمتها ، اذ كيف
يمكن تحطيم روث غار ؟ » ضحك هرغر ساخرا منى وقال : « انتم
العرب اغبياء فوق كل تصور ، ولا تعرفون شيئا عن اسرار هذه
الدنيا . ان روث غار يستحق الاسى الذي اصابه ونحن فقط الذين
نستطيع انقاذه ، وحتى نحن ربما لن نستطيع » .

وقد زادت هذه الكلمات من دهشتى ، فالتفت الى اكثر مرافق
بيولف ووجدت انه كان يقف في السفينة محسبا ولا رسم معالم
الشجاعة على وجهه ، ومع ذلك فقد كانت ركبتاه ترتجفان ، وقطعا
لم تكن قساوة الريح هي التي جعلته يرتجف بهذا الشكل . لقد
كان خائفا ، كانوا جميعا خائفين ولكن لم اعرف سبب خوفهم .

الفصل الحادى عشر

مملكة روث غار في بلاد الفندان

رست السفينة على الشاطئ ، وقت صلاة العصر ، فاستغفرت
الله لاننى لم اقم بالصلاة والدعاء . ومع ذلك لم يكن بإمكانى ان افعل
ذلك بحضور الشماليين ، الذين كانوا يظنون ان صلواتى لعنات
عليهم وهددوا بقتلى ان انا صليت على مرأى منهم .

ارتدى كل مقاتل في السفينة دروع الحرب ، التي كانت على
الشكل التالى : اولا الحذاء ثم طماق من الصوف الخشن ، وفوق
هذا معطف من الفراء السميك كان يصل الى الركبتين . وفوق هذا
وضعوا دروعا كالمعاطف ، التي كان كل واحد منهم يرتديها
سواى . ثم اخذ كل منهم سيفه وعلقه فى حزامه ، ثم حملوا تروسا
مصنوعة من الجلد ، ورمحا ، ثم ارتدى كل منهم خوذة من المعدن

أو الجلد فوق رأسه (1) وفي كل هذا كان كل المحاربين متساوين باستثناء بيولف ، الذي كان يحمل سيفه في يده ، وكم كان سيفاً ضخماً هائلاً :

نظر المحاربون عالياً باتجاه القاعة الكبرى للملك روث غار مظهرين إعجاباً شديداً بالسقف المتألق ومهارة الصنع الفائقة ، واتفقوا على أنه ليس كمثلها في الكون ، بقبيها العالية ونحوتها الفنية . ومع ذلك فلم يكن هناك أي احترام في حديثهم عنها .

وبعد طول انتظار نزلنا من السفينة ، وغدينا السير على طريق مرصوف بالحجر حتى القاعة الكبرى . وقد سببت قرعة السيوف وتصادم التروس ضجة عالية . بعد أن اجتزنا بعض المسافة رأينا على جانب الطريق رأس ثور مقطوع ومعلقاً على عصا . وكان واضحاً أن الحيوان قد قتل حديثاً .

تنهد الشماليون . بعق ورسموا علامات الكتابة على وجوههم لهذا المنظر الذي لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة لى . مع حلول هذا الوقت كنت قد تكيفت إلى حد كبير مع عاداتهم في قتل بعض الحيوانات عند أقل ثورة غضب أو إثارة . ومع ذلك فإن رأس الثور هذا كان عندهم معنى خاص .

أشاح بيولف بوجهه بعيداً موجهها بصره صوب حقول أراضى روث غار ، وهناك رأى بيتاً ريفياً منعزلاً من النوع المألوف في أراضى روث غار . كانت جدران هذا البيت مصنوعة من الخشب ، وقد أحكم إغلاق ثقوبها بمجينة مصنوعة من الطين والقش ، الذي كان يجب أن يجدد بعد هطول الأمطار المتكرر . كما أن السقف مصنوع من مادة عازلة مضافة إلى الخشب . أما داخل البيت فلم يكن هناك سوى أرض ترابية وموقد إضافة إلى روث الحيوانات ، لأن الفلاحين ينامون مع حيواناتهم داخل البيوت طلباً للدفع الذي تشعه أجساد

(1) يظهر الوصف الشائع للاسكندنانيين ، يظهرهم وهم يرتدون خوفاً ذوات قرون . هذه مفارقة تاريخية أو عارض شاذ في سياق التاريخ ، ففي زمن زيارة ابن فضلان لم تكن مثل هذه الخوذات قد استعملت لمدة تزيد على الألف عام ، أي منذ العصر البرونزي الأول .

هذه الحيوانات ، ومن ثم يحرقون الروث لاشعال النيران .
امر بيولف بان نتجه الى ذلك البيت الريفي ، فانطلقنا عبر الحقول
التي كانت خضراء رغم انها كانت مشبعة بالرطوبة تحت اقدامنا .
وفي اكثر من مرة توقفت الجماعة لتتفحص الارض قبيل استئناف
المسير ، لكنهم لم يروا شيئا ذا قيمة بالنسبة لهم . اما انا شخصيا
فلم ار شيئا مطلقا .

الا ان بيولف عاد فاوقف الجماعة و اشار الى بقعة من الارض
سوداء داكنة . وهناك رايت بعيني آثار اقدام عارية - اقدام كثيرة
جدا . كانت اقداما مسطحة لم ار في الخلق ما هو ابشع منها .
فعند كل اصبع من اصابع القدم كنت ترى حفرة تدل على ظفر او
مخلب كالفرن . وهكذا فقد كانت الاشكال تبدو بشرية ، ولكنها لم
تكن بشرية ايضا . لقد رايت ذلك بعينين هاتين رغم اني لم اكد
اصدق ما كانت تراه عيناي .

هز بيولف ومحاربوه رعوسهم اما للمشهد ، ثم سمعتهم يكررون
كلمة واحدة مرات ومرات : « وندول » او « وندلون » او كلمة
قريبة من ذلك . لم ادرك معنى هذا الاسم ، ولكني احساست بانه
لا يجوز سؤال هرغر في تلك اللحظة ، لانه كان جزعا جزع الاخرين
كلهم . تابعتنا السير باتجاه البيت الريفي ، وكنا نرى بين وقت
وآخر آثارا جديدة لهذه الاقدام القرنية الاظفار على الارض . كان
بيولف ومحاربوه يمشون ببطء ، ولكنه لم يكن بطئا مصدره الحذر
اذ لم يستل احدهم سيفه ، الا انه كان نوعا من الخوف لم ادرك
كنهه ، غير اني مع ذلك شعرت بما يشعرون .

واخيرا وصلنا الى المنزل الريفي ودخلناه . وفي داخل ذلك
المنزل رايت ، ويا هول ما رايت !! رايت بعيني هذا المشهد الرهيب:
كان هناك رجل في مقتبل العمر متناسق الجسم رشيقه ، كان
جسده قد مزق اربا اربا . كان الجلد في مكان والذراع في مكان
والرجل في مكان . وكان الدم مسكوبا في برك سميكة على الارض
وعلى الجدران وعلى السقف وعلى كل سطح داخل البيت بشكل
بدا معه البيت وكأنه طلى بالدم الاحمر . وكانت هناك ايضا امرأة
وقد قطعت ايضا بنفس الطريقة . وكان هناك طفل ذكر عمره

ما يقارب العامين فصل رأسه عن جسده وقد ترك الجسد كتلة
دائمة .

كل هذا رأيته بعيني ، وكان أرهب منظر شاهدته في حياتي .
أفرغت معدتي من الرهبة وأغمي على قرابة ساعة أو أكثر عدت
بعدها لأفرغ معدتي ثانية بصورة لا ارادية .

مهما عشت لن أدرك عقلية هؤلاء الشماليين ، لأنني حتى وأنا مغمى
على كانوا هم يزدادون هدوءا وثمقلا لمشهد هذا الرعب . كانوا
ينظرون لكل ما يرونه بهدوء عجيب : ناقشوا آثار المخالب على أعضاء
الاجساد الممزقة وطريقة تمزيق اللحم البشري . كما وجهوا انتباهها
خاصا لكون جميع الرعوس كانت قد اختفت ، وايضا لاحظوا بانتباه
أكثر المناظر بشاعة وشيطانية من كل ما راوا والذي حتى وأنا أكتب
عنه في هذه اللحظة أشعر برعب شديد وهلع : كان جسد الطفل الذكر
قد مضغ بأنياب شيطانية رهيبة من ناحية اللحم الطرى على أعلى
الفخذ ، كما مضغت بنفس الطريقة منطقة الكتف . لقد رأيت هذا
المنظر الرهيب بأم عيني .

بدأت الرهبة والوقار على وجوه مقاتلي بيولف وكانوا يدمدمون
غضبا وهم يغادرون البيت الريفي . كما استمروا في توجيه انتباه
شديد الى الأرض الطرية حول البيت ، وقد لاحظوا أنه لم تكن هناك
آثار حوافر خيول . بدأ وكان هذا أمرا ذا أهمية كبرى بالنسبة
اليهم . لكنني لم أفهم السبب ، كما لم أعر ذلك أى اهتمام إذ كنت
مازلت خائر القوى ضعيف القلب وأهن الجسد .

وبينما نحن نعبث بالحقول اكتشفنا اكتشافا كان على شكل
قطعة صغيرة من الحجر أصفر من قبضة طفل وكانت مصقولة ومنحوتة
بطريقة فجأة . تجمع المحاربون ليستمعوا فيها وكنت أنا بينهم .
وجدت أنه كان جذع اثني حامل . لم يكن له رأس ولا ذراعان ولا
ساقان ، بل الجذع فقط يبطن منتفخ كبير وفوقها ثديان منتفخان
متدليان (1) . وكان هذا المخلوق في رأيي فجأ قبيحا الى أبعد الحدود
ولم يعن لى شيئا أكثر من ذلك . أما الشماليون فقد أصيبوا فجأة

(1) هذا التمثال الموصوف يتطابق الى حد كبير مع منحوتات عديدة اكتشفها علماء
الآثار في فرنسا والنمسا .

بصدمة جعلتهم يبدوون شاحبين من الجبن والخوف ، وكانت ايديهم تهتز وهي تقترب لتلمس التمثال حتى القى به بيولف الى الارض اخيرا وحطمه بقبضة سيفه ، فانتشر على الارض قطعا متناثرة من الحجر . وبعدها اصيب عدد من المحاربين بالفتيان وافرغوا معداتهم اذ كان الهلع عظيما جدا بينهم دون ان افهم لذلك سببا .

انطلقنا جميعا باتجاه قاعة الملك روثغار . لم ينطق اى منهم بحرف طيلة الرحلة التي استغرقت قرابة ساعة ، فقد كان كل واحد من الشماليين يبدو وكأنه متلفع بأفكار مريرة استغرقت كل حواسه ، ومع ذلك فلم تبد عليهم اى من مظاهر الخوف .

واخيرا استقبلنا مناد من منادى الملك على ظهر حصان قاطعا علينا الطريق . اشار الى الاسلحة التي كنا نحملها والى ملامح جماعة بيولف ، ثم صاح بكلمات انذار .

خاطبني هرغر قائلا : « انه يريد ان يعرف اسماءنا وبسرعة أيضا » . اجاب بيولف المنادى ، ومن لهجة حديثة أدركت ان بيولف لم يكن على مزاج يسمح بالاحاديث الودية . قال لى هرغر « أخبره بيولف باننا من رعايا الملك هفلغ ، من مملكة يتلم ، ونحن قد اتينا بمهمة من اجل الملك روثغار ونود ان نتحدث اليه شخصيا » ثم اضاف هرغر قائلا « يقول بيولف ان روثغار ملك عظيم » ، لكن لهجة هرغر كانت توحي بعكس ذلك .

رجانا هذا المنادى ان نستأنف سيرنا الى القاعة الكبرى وننتظر هناك بينما يتجه هو لينبئ الملك بوصولنا . فعلنا ماطلب زغم ان بيولف ورجاله لم يكونوا مسرورين من هذه المعاملة ، بل كان هناك دمدمة وهمهمة وعدم رضى ، لان من عادة الشمالي ان يكون كريما مضيافا ولم يبد هذا التصرف مهذبا اذ ابقوا فى الخارج . ومع ذلك فقد انتظروا بعد ان خلعوا اسلحتهم وسيوفهم ورماعهم دون الدروع وتركوها جميعا خارج ابواب القاعة الكبرى .

الفصل الثانى عشر

كانت القاعة محاطة من كل الجوانب بمساكن متعددة على طريقة اهل الشمال . وكانت هذه البيوت طويلة محدبة الجوانب كما كانت

الحال في توربيرغ ، الا انها كانت مختلفة من حيث الترتيب فلم يكن هنا اى مربعات بين البيوت ، كما لم يكن هناك اى تحصينات أو خنادق محفورة . وبدلا من ذلك كانت الارض بدءا من القاعة الكبرى والبيوت المحيطة بها تنحدر على شكل سهل أخضر منبسط طويل يتخلل هنا وهناك بيت ريفى أو آخر ، ثم تاتى بعد ذلك وفيما وراء هذا السهل التلال واطراف الغابات .

استفرت من هرغر عن هم اصحاب هذه البيوت الطويلة ، فقال لى « بعضها يخص الملك ، وبعضها الاخر يخص العائلة المالكة ، وبعضها يخص النبلاء ، كما أن بعضها يقيم فيه الخُدم وموظفو البلاط الادنى رتبة » . كما قال ايضا انه مكان صعب ولكنى لم ادرك ماكان يعنيه بهذا .

ثم اذن لنا بالدخول الى قاعة الملك روثغار الكبرى والتي وجدت حقا انها تعد من عجائب العالم الكبرى ، وما يزيد في ذلك كونها واقعة في بلاد الشمال العذراء . وقد كانت تسمى بين قوم روثغار باسم هاروت ، لان اهل الشمال يعطون اشياء حياتهم اسنماء بشر كما يعطون هذه الاسماء للابنية والسفن وخاصة للاسلحة . وانى اقول بحق أن هاروت هذه ، اى قاعة روثغار العظيمة ، كانت بحجم قصر الخليفة كله ، ومطعمة بالفضة وحتى ببعض الذهب والذي هو معدن نادر جدا في بلاد الشمال . وفي كل جانب منها كانت هناك رسومات وزينات كما تكون اروع الزينات والرسومات وروعة الفن . كانت في الحقيقة نصبا يرمز الى قوة الملك روثغار وعظمته .

اما الملك روثغار هذا فقد جلس في النهاية القصى لقاعة هاروت، والتي كانت من السعة بحيث بدا الملك بعيدا الى حد لم نستطع ان نراه الا بصعوبة . وكان يقف عند كتفه الايمن نفس ذلك المنادى الذى اوقفنا . القى المنادى خطابا ترجمه لى هوغر على الشكل التالى :
« هاهنا ايها الملك عصابة من المحاربين جاءوا من مملكة يتلم . وقد وصلوا حديثا من البحر ، واما قائدهم فرجل يسفى بيولف . وهم يطلبون الاذن لهم بأن يحدثوك عن مهمتهم . ايها الملك لا تجرمهم من الدخول ، فلهم اخلاق النبلاء ومن ملامح زعيمهم ارى أنه مقاتل

شجاع . فعاملهم كنبلاء أيها الملك روثغار . « وهكذا طلب الينا
الاقتراب من الملك .

بدا الملك روثغار رجلا يقترب بسرعة من الموت . لم يكن شابا ،
بل كان شعره ابيض ناصع البياض وكان جلده شاحبا شديد
الشحوب وكانت أخايد وجهه يملؤها الاسى والخوف . نظر الينا
نظرة ريبة وشك وهو يجعد عينيه او ربما انه كان اعمى او يكاد
فلم استطع التأكد من ذلك . واخيرا بدأ يلقي خطابا قال لى هرغر
ان فحواه كالتالى : « انا اعرف من هو هذا الرجل ، لاننى ارسلت
بطلبه ليقوم بمهمة بطل . انه بيولف وقد عرفته طفلا حين سافرت
عبر البحار الى مملكة يتلم . انه ابن هفلغ الذى كان مضيفى الكريم
وهذا هو ابنه يأتى الى الان ساعة الحاجة والالم . »

ثم دعا روثغار المحاربين للاجتماع فى القاعة الكبرى حيث قدمت
الهدايا واقيمت الاحتفالات .

بعدهالقى بيولف خطابا طويلا لم يترجمه هرغر لى ، اذ كان
التحدث اثناء القاء بيولف خطابه يعتبر مظهرا من مظاهر قلة
الاحترام . وعلى كل حال فقد كان المعنى كالاتى : وهو ان بيولف
قد سمع بمشاكل روثغار ، وانه كان اسفا حزينا لهذه المشاكل ،
وان مملكة ابيه هو قد هدمت بسبب هذه المشاكل نفسها ، وانه قد
اتى الان لينقذ مملكة روثغار من الشياطين التى حلت بها فاقفلقتها .
وحتى الان لم اكن قد عرفت ماذا يسمى هؤلاء الشماليون اولئك
الشياطين ، او كيف ينظرون اليهم ، رغم انى رايت افعال هؤلاء
الوحوش الذين يقطعون الرجال اربا .

ثم تحدث الملك روثغار ثانية وبشئ من التردد . ادركت من
طريقة حديثه انه كان يرغب فى ان يقول بعض كلماته قبل ان يصل
محاربوه ونبلاؤه . هذا ماقاله وترجمه لى هرغر : « يا بيولف ، لقد
عرفت اباك يوم كنت انا نفسى رجلا شابا حديث العهد بالعرش .
وانا الان عجوز كسير القلب منحنى الراس عيناي تبيكان خجلا وانا
اعترف بضعفى . فكما ترى يكاد عرشى يكون بقعة جرداء ، وارضى
اصبحت اماكن موحشة . ولست ادرى ماتضمرة الشياطين لمملكتى .
وغالبا مايقسم محاربى اثناء الليل وقد اثارت شجاعتهم الخمرة -

يقسمون بأن يحطموا هذه الشياطين . الا انه ما ان تزحف الصواء
الفجر المقبرة فوق الحقول الضبابية حتى نرى الاجساد المدماة في
كل مكان . ذلك هو مصدر الاسى في حياتي ، ولن اتحدث عنه بعد
هذا أبدا .

ثم اتى بطاولة خشبية كبيرة صفت عليها الوان الطعام ، بينما
كنت أسأل هرغر مامعنى كلمة « الشياطين » التي ردها الملك .
غضب هرغر وهددنى بعنف ان انا سألته اى سؤال آخر .

في ذلك المساء اقيمت حفلة كبرى تراسها الملك روثغار وملكته
ويليو التي كانت ترتدى ثوبا يتلألأ بالأحجار الكريمة والذهب . تراس
الملك والملكة احتفال النبلاء والمحاربين في مملكة روثغار . هؤلاء
المحاربون كانوا قوما تافهين حقيرين ، كانوا رجالا مسنين كثيرى
الشراب ، كما ان الكثيرين منهم كانوا كسيحين او جرحى . وفي عيني
كل منهم كانت تسكن نظرة خوف فارغة ، وكان هناك فراغ وعقم
في فرحتهم أيضا .

ثم كان هناك الابن المسمى وغلف ، الذي تحدثت عنه سابقا ، وهو
ابن روثغار الذي قتل ثلاثة من اشقائه . كان هذا الشاب صغير
السن رشيق القوام ذا لحية شقراء وعينين لم تكونا تستقران على
شئ بل تقفزان باستمرار من شئ الى آخر ومن مكان الى آخر ،
كما أنه لم يكن لينظر الى احد ينظر في وجهه أبدا . رآه هرغر فقال :
« انه ثعلب » . وعنى بذلك أنه زئبقى متغير متلون وداهية مكر ،
لان أهل الشمال يعتقدون ان الثعلب حيوان يستطيع ان يتخذ اى
صورة يريد .

وفي منتصف هذه الاحتفالات ارسل روثغار مناديه الى ابواب
قاعة هاروت ، فعاد هذا المنادى ليخبره بان الضباب لن يحل في ذلك
المساء . فعمت الفرحة الكبيرة لدى سماع الخبر بان المساء سيكون
صافيا ، وسر الجميع الا وغلف .

وفي لحظة معينة نهض وغلف على قدميه وقال ، « انى اشرب
نخب ضيوفنا ، وخاصة بيولف ، وهو المحارب الشجاع الحق الذى
اتى لمؤازرتنا في وقت المحنة - رغم انها قد تثبت انها معضلة

سينستحيل عليه حلها . « همس هرغر بهذه الكلمات في اذنى ،
فادركت انها كانت مديحا واهانة في نفس الوقت .

التفتت كل العيون الى بيولف انتظارا لجوابه . وقف بيولف ونظر
الى وغلف ثم قال « لست اخاف من اى شىء على الاطلاق ولا حتى
من الشيطان الفر الذى يزحف ليلا ليقتل الناس اثناء نومهم . »
ادركت من هذا انه يشير الى « الوندول » ، لكنى رايت وجه وغلف
ينقلب شاحبا ويده تقبض بشدة على الكرسي الذى كان يجلس عليه .

« هل تقصدنى انا ؟ » صاح وغلف بلسان مرتجف . فاجاب بيولف
بما يلى : « كلا ولكنى لا اخافك ابدا كما لا اخاف وحوش الضباب » .

واستطرد الشاب وغلف متحمدا مع ان الملك روثغار دعاه
للجلوس . خاطب وغلف كل النبلاء الحاضرين قائلا : « ان بيولف
هذا ، والذى وصل الينا من شواطىء اجنبية بعيدة ، يملك كما هو
واضح فخرا عظيما وقوة اعظم . الا اننى رتبت الامر لامتحان
حماسه ، اذ كثيرا ما يعنى الصلف والخيلاء عينى اى انسان » .

في هذه اللحظة رايت محاربا قويا كان يجلس الى الطاولة قرب
الباب خلف بيولف ، رايته ينهض بسرعة ليستل رمحه ويفرزه في
ظهر بيولف . حدث كل هذا في اقل من الوقت اللازم لشهقة . التفت
بيولف رافعا رمحه ثم فرزه في صدر المقاتل رافعا اياه على سارية
الرمح فوق راسه ثم ضربه بالحائط . وهكذا تسمر المحارب في
الحائط بواسطة الرمح بينما قدماه تتدليان فوق الارض وهو يرفس
بهما . كان قضيب الرمح مدفونا كله في جدار قاعة هاروت ، وقد
مات المحارب دون ان ينطق بحرف .

الفصل الثالث عشر

حدثت الان ضجة كبيرة حين التفت بيولف مواجهها وغلف ثم قال
« هكذا ساقضى على كل شر » ثم تحدث هرغر بصوت جهير موجهها
عدة اشارات الى . شعرت بالاضطراب بسبب هذه الاحداث ، وفي
الحقيقة كانت عيناه مثبتتين على ذلك المحارب الميت المسمر الى
الجدار . ثم التفت هرغر الى وقال باللاتينية « عليك ان تغنى اغنية

لبلاط الملك روثغار : فالكل يرغب في ذلك . « سألته « وماذا أغنى؟
لست أعرف ولا أغنية . « فأجاب بما يلي « عليك أن تغنى شيئاً يسر
القلب . « ثم أضاف « لا تقل شيئاً عن الهك الواحد ، فليس هنا
من يهتم . « وفي الحقيقة لم اكن أعرف ماذا اغنى ، فلم اكن مغنيا
في حياتي . مضى وقت محرج بينما الكل يتحدثون بي ثم عم القاعة
صمت كامل . وهنا قال لي هرغر « غن أغنية ملوك وبطولات في
المعارك . « قلت اننى لا اعرف مثل هذه الاغنيات ولكنى أستطيع
ان احدثهم بقصة خرافية والتي كانت تعتبر في بلادى مضحكة مسلية .
قال انى احسنت الاختيار ، فأخبرتهم - الملك روثغار وملكته ويليو
وابنه وغلف وكل النبلاء والمحاربين المجتمعين - بقصة حذاء ابي
القاسم الطنبورى التي يعرفها الجميع . تحدثت بارتياح وكنت ابتسم
طيلة الوقت ، وقد سر الشماليون في بادىء الامر وضحكوا وضربوا
على بطونهم . ولكن فجأة وقع مايلى . بينما كنت مستمرا في حكايتى
توقف الشماليون عن الضحك وانقلبوا بالتدريج الى حالة من البؤس
والتجهم ، وما أن انهيت حكايتى حتى انقطع الضحك نهائيا وكان
هناك صمت قاتل .

قال لي هرغر « ربما كنت لاتعرف ذلك ، ولكن هذه حكاية لا تدعو
الى الضحك ، وعليك الان ان تصلح مايمكن اصلاحه » ، وبعدها
تحدث حديثا اعتقد انه كان نكتة القيت على حسابى فسببت ضحكا
بين الجميع وعاد الجميع يتمتعون بحفلتهم .

(قصة حذاء ابي القاسم قديمة في الثقافة العربية وكانت معروفة
لابن فضلان ولواطنيه من اهل بغداد .

هذه القصة تروى بأشكال مختلفة ، ويمكن سردها مقتضية او
مطولة . حسب حماس الراوى . وهى باختصار تحكى حكاية ابي
القاسم ، وهو تاجر غنى وبخيل يرغب بأن يخفى حقيقة غناه لكي
يعقد صفقات اكبر وافضل في تجارته . وليوحى بمظاهر الفقر ،
فانه يرتدى زوجا من الاحذية قميء بائس قديم املا بان يضلل
الناس ، لكن حيلته مكشوفة ، اذ بدلا من ذلك يعتقد الناس حوله
بانه سخيف وان تصرفاته منافية للعقل .

وفي احد الايام يعقد ابو القاسم صفقة رابحة في تجارة الزجاج ،

فيقرر أن يحتفل ليس كما جرت العادة بدعوة أصدقائه الى حفلة كبيرة وانما بدعوة نفسه شخصا الى ترف زيارة الى الحمام العمومي . يترك ثيابه وحذاءه في الغرفة الخارجية ، فيعاتبه صديق له بارتدائه حذاء باليا غير مناسب لمقامه . يجيبه أبو القاسم بأن الحذاء مازال فيه روح ، ثم يدخل الحمام مع صديقه . وبعد قليل يصل قاض كبير الى الحمام ويخلع ثيابه تاركا وراءه حذاء فخما . في تلك الاثناء يقادر أبو القاسم الحمام فلا يجد حذاءه القديم بل يجد مكانه حذاء جديدا جميلا ، وظنا منه بأنه هدية من صديقه فينتعله ويقادر الحمام .

وحين يقادر القاضي الحمام يكتشف اختفاء حذائه ، ولا يجد سوى حذاء مهترىء بالئس يعرف الجميع انه حذاء البخيل أبي القاسم . يفضب القاضي ، ويتوزع الخدم في كل أرجاء بغداد بحثا عن الحذاء المفقود ، وسرعان ما يجدونه في قدمي اللص الذي يؤتى به الى المحكمة ليقف امام القاضي ويفرم غرامة باهظة .

ويندب أبو القاسم حظه ، وما ان يعود الى البيت حتى يلقي بحذائه المشثوم خارج النافذة حيث يسقط في نهر دجلة المليء بالطين . وبعد عدة ايام يخرج بعض الصيادين شباكهم فيجدون مع السمك حذاء أبي القاسم ، ويجدون ان مسامير الحذاء قد قطعت شباكهم فيقذفون الحذاء المشيع بالطين والماء بغضب باتجاه احدى النوافذ المفتوحة فيصادف ان تكون تلك النافذة نافذة أبي القاسم فيسقط الحذاء على الاواني الزجاجية المشتراة حديثا ويحطمها جميعا .

ويتحطم قلب أبي القاسم ويحزن كما يحزن اى بخيل عفن . فيقسم يمينا بالا بصيبه الحذاء اللعين بأى اذى بعد الان ، وللتأكد من ذلك ، يذهب الى حديقة ومع مجرفة حيث يدفن الحذاء . ويحدث ان جار أبي القاسم يراه وهو يقوم بالحفر ، وهو عمل وضيع لا يليق الا بخادم . عندها يقول الجار لنفسه : ان كان صاحب البيت يقوم بهذا العمل القذر بنفسه فلا بد ان يكون من اجل دفن كنز كبير . فيذهب الجار الى الخليفة ويقص على الخليفة قصة أبي القاسم ، اذ طبقا لقوانين البلاد فان اى كنز يكتشف في البلاد فانه يصبح ملكا للخليفة .

يستدعى أبو القاسم الى حضرة الخليفة ، وحين يبلغ بأنه لم يدفن الا زوجا من الاحذية البالية يضحك الحاشية مقهقهين لاكتشاف محاولة التاجر ان يخفى هدفه الحقيقي وغير الشرعى . يفضب الخليفة اذ يجروا احدهم على الظن بأنه من الحمق بحد يمكن معه ان تنطلي عليه كذبة كهذه فيضاعف لهذا حجم الغرامة . ويصناب أبو القاسم بصدمة شديدة حين يصدر الحكم ولكن لا مفر له من الدفع .

ويصمم أبو القاسم مرة اخرى على التخلص من حذائه مرة والى الابد . ولكي يتأكد من استحالة وقوع مشاكل جديدة فإنه يقوم برحلة خارج المدينة ويلقى بالحذاء في بركة بعيدة ويظل يراقبه حتى يفرق ثم يعود راضيا . ولكن تلك البركة تغذى قنوات الماء التي تشرب منها المدينة كلها واخيرا يسد الحذاء الانابيب . ويكتشف الحرس الذين يذهبون لازالة العائق - يكتشفون الحذاء ويميزونه بسهولة ، لان كل الناس الان صاروا يعرفون حذاء هذا البخيل سييء السمعة . ويستدعى أبو القاسم مرة اخرى الى حضرة الخليفة بتهمة تلويث مياه المدينة وتكون غرامته هذه المرة اعظم من كل سابقاتها كما يعاد الحذاء اليه .

ثم يقرر أبو القاسم ان يحرق الحذاء ، وحيث انه مازال رطبا ندبا فانه يضعه على الشرفة ليجف . فيراه كلب ويبدأ باللعب به . وهنا تسقط احدى فردتي الحذاء من بين فكى الكلب الى الشارع تحته ، حيث تصيب امرأة كانت تمر في الشارع في تلك اللحظة كانت المرأة حاملا فسببت قوة اللطمة اجهاضا . يتوجه زوجها الى المحكمة ويطالب بالتعويض عن الاضرار ، فيحكم له بها وبسخاء ، ويجبر أبو القاسم الذى اصاب بالافلاس والدمار على الدفع .

ان ماتوحى به هذه القصة العربية هو ماتستطيع الشرور ان توقعه بانسان ما لا يغير حذائه في الوقت المناسب الا أنه لاشك ان هناك معنى ضمنيا اعمق بكثير في هذه الحكاية : الا وهو فكرة الانسان الذى لا يستطيع ان يثور على قدره وهذا هو ما اقلق الشماليون بالفعل)

وهكذا مضى الليل مابين مرح وطرب واحتفالات ، ومتع محاربو بيولف انفسهم بالنساء بطريقة اباحية مطلقة . وقد رايت وغلف

الابن يحدق بيولف قبل مفادرة القاعة ، لكن بيولف لم يعرفه اى
اهتمام مفضلا الاستمتاع بالاماء والجوارى والاستمتاع بالنساء
الحررات . وبعد وقت غلبنى النعاس فَنمت .

وفى الصباح استيقظت على صوت المطارق ، وحين اطلت من
قاعة هاروت الكبرى رايت كل شعب مملكة روثغار يعملون بجهد
في بناء الدفاعات . وقد كانت هذه الدفاعات تبنى بطريقة بدائية :
كانت الخيول تجر اعدادا من اعمدة السياج التى كان المحاربون
يقومون بتقليم رءوسها حتى تصبح مديبة . وكان بيولف نفسه
يوجه اوامره بتحديد مواقع بناء الدفاعات وذلك بوضع علامات على
الارض برأس سيفه . لم يستعمل لهذا الغرض سيفه العظيم رندنغ ،
ولكنه استعمل سيفا آخر ، ولم ادر ان كان هناك سبب لهذا
التصرف .

وعند منتصف النهار ، وصلت الحزبون المسماة بملاك الموت (١)
والقت بالعظومات على الارض متممة تمتات غامضة فوقها ، ثم
اعلنت ان الضباب لا بد آت في ذلك المساء . ولدى سماع بيولف لهذا
امر بايقاف كل اعمال البناء وبدا الاعداد لوليمة كبرى . وقد شارك
الكل في هذه المهمة بعد ان اوقفوا كل جهودهم الاخرى . سألت
هرغر عن سبب اقامة تلك الوليمة ، فاجابنى باننى اسأل أسئلة
كثيرة لا داعى لها . كان ذلك صحيحا كما كان صحيحا ايضا اننى
اسأت اختيار الوقت لالقاء هذا السؤال لان هرغر كان في تلك اللحظة
يقف امام فتاة شقراء جميلة يغازلها بينما كانت تبتسم بحرارة وهى
تنظر الى .

في اواخر ذلك النهار ، استدعى بيولف اليه كل محاربيه وقال
لهم ، « استعدوا للمعركة » وقد قبلوا المهمة وتمنوا الحظ السعيد
لبعضهم البعض ، بينما كانت تجهز الوليمة الكبرى في كل مكان
حولنا .

(١) ملاك الموت هذه ليست هى نفسها التى كانت مع الشماليين على سفان الفولفا
واضح ان لكل قبيلة امراة عجوزا تقوم بوظيفة التنبؤ واعمال السحر الاخرى . يطلق
عليها اسم « ملاك الموت » . فالاسم على هذا هو اسم نوع او تمبير يدل على النوع .

الفصل الرابع عشر

كانت وليمة المساء كبيرة الشبه بوليمة الليلة السابقة ، رغم ان عددا اقل من نبلاء ووجهاء روثغار كان حاضرا . وفي الحقيقة علمت ان كثيرا من النبلاء لن يحضروا الوليمة خشية وتحاشيا لما كان سيقع في قاعة هاروت تلك الليلة ، اذ بدا واضحا ان ذلك المكان كان مركز اهتمام الشيطان في تلك المنطقة ، الذي كان يطمع بقاعة هاروت او بشيء شبيهه آخر - ولكنى لم استطع ان اتأكد من المعنى .
لم تثرني حفلة ذلك المساء بسبب خوض من الاحداث القادمة . وعلى كل حال فقد وقعت الحادثة الالية . كان احد كبار النبلاء سنا يتكلم بعض اللاتينية ، كما كان يتكلم بعض اللهجات الاندلسية ، لانه كان قد سافر الى بلاد خلافة قرطبة وهو شاب . تحدثت الى ذلك النبيل ، وفي تلك الظروف وجدت لزاما على ان ادعى معرفة لم اكن ادركها كما ستعرفون بعد قليل .

حدثني النبيل فقال : « اذن فانت هو الاجنبى الذى سيكون رقم ١٣ ؟ » فاجبته باننى هو . فقال الرجل المسن « لا بد وان تكون فائق الشجاعة ، واننى احببك احتراما لهذه الشجاعة » واجابة على هذا رددت باستجابة مهذبة بسيطة لشعورى بانى كنت جباناً بالمقارنة بالآخرين من رجال بيولف ، والذى كان هو الصحيح فى الواقع .

« هذا ليس مهما » قال النبيل الشيخ معلقا ، وقد أسكرته خمرة تلك المقاطعة - وهى مشروب قمىء يسمونه (ميد) ولكنه مشروب قوى - « ولكنك مع هذا رجل شجاع لمجاهتتك الوندول » .

احسست الان اننى قد استطيع فى آخر المطاف ان اتعلم بعض الامور الهامة . اعدت على مسامع هذا الشيخ قولا من اقوال الشماليين كان هرغر قد قاله لى مرة ، قلت « الحيوانات تموت ، والاصدقاء يموتون ، وانا ساموت ، ولكن شيئا واحدا لن يموت ابدا ، الا وهى السمعة التى نخلقها وراءنا بعد موتنا » .

لدى سماعه هذا الكلام قوق الشيخ المعجوز من فم خال من الاسنان ، فقد سره كثيرا ان يرى اننى كنت اعرف مثلا شنعبيا

شماليا . قال « تلك هي الحقيقة ، ولكن الوندول لهم شهرةهم
ايضا » . فاجبته بأقصى حدود اللامبالاة : « حقا ؟ لم اكن ادرك
ذلك » .

اجابني الشيخ بقوله انني كنت اجنبيا ، وانه لهذا يوافق على ان
ينورني ، فقص على مايلي : الاسم (وندول او وندون) هو اسم قديم
جدا قدم اى شعب من شعوب بلاد الشمال ، وهو يعنى (الضباب
الاسود) . وبالنسبة لاهل الشمال فان هذا يعنى ضبابا ياتى تحت
جنح الظلام بشياطين سوداء تصرع وتقتسل وتاكل لحم الكائنات
البشرية (١) . وهؤلاء الشياطين غزيرو الشعر كريهو الملمس والرائحة

(١) من الواضح ان الاسكندنافيين كانوا اكثر تأثرا وخوفا من خلسة ولؤم ووحشية
هذه المخلوقات اكثر من خوفهم من كونها آكلة لحوم البشر ويعتقد جنسن ان اكل
لحوم البشر قد يكون رهيبا مرعبا بالنسبة لاهل الشمال لانه اى اكل لحوم البشر يجعل
الدخول الى عالم الخلود بعد الموت (فال هالا) اكثر صعوبة . ولكن ليس هناك اى
دليل على صحة هذا الراى .

وعلى كل حال فانه بالنسبة لابن فضلان واطلاعه الواسع ربما كانت فكرة اكل لحوم
البشر تتضمن او توحي ببعض الصعوبات فى الحياة الاخرى او فى حياة الخلود .
واكل الاموات هو مخلوق معروف جيدا فى الاساطير المصرية ، وهو على شكل وحش
مخيف له رأس تمساح وجزع اسد وظهر فرس النهر . واكل الاموات هذا يلتهم
الاشرار بعد حسابهم .

ومما يستحق الذكر انه بالنسبة لمعظم تاريخ الاساطير فان اكل لحوم البشر كجزء
من العقيدة الدينية ، بشكل او باخر ولسبب ما او لآخر لم يكن امرا نادرا كما لم
يكن امرا بارزا . فانسان يكين وانسان نياندرتال كانا بالتأكيد من اكلة لحوم البشر ،
وكذلك كان ايضا وبأوقات مختلفة السكاثيون ، والصينيون ، والاييرلنديون ، واهل
البيرو وسكان جزر الماريوانا ، والجاساغا ، والمصريون ، والاستراليون الاصليون ،
والوار ، واليونانيون و **Hurons** والمراقيون وقبائل اليونا والاشانتى .
وفى الفترة التى كان ابن فضلان خلالها فى اسكندنافيا كان تجار عرب آخرون قد
وصلوا الى الصين ، حيث سجلوا وكتبوا ان لحم البشر - والذى كان يشار له باسم
لحم الطائر ذى الرجلين - كان يباع فى الاسواق وبشكل مكتشف وقانونى .

ويعتقد مارتنش ان الشماليين وجدوا فى اكل لحم البشر من قبل الوندول امرا منمرا
ومنكرا لانهم كانوا يعتقدون ان النساء كن ياكلن لحم المقاتلين الابطال ، وخاصة ام
الوندول الكبرى . ليس هناك من دليل على صحة هذا الراى ايضا ولكن مجرد احتمال
يجعل ميتة مقاتل شمال بهذه الطريقة اكثر عارا وخيلا .

وهم قساة ماكرون ، لا يتكلمون أى لغة من لغات البشر ومع ذلك فانهم يتحدثون فيما بينهم . وهم يأتون مع ضباب الليل ويختفون عند طلوع النهار أما الى أين يذهبون فلم يجرؤ ابن امرأة يوما أن يتبعهم . «

وأضاف العجوز يحدثنى فقال : « يمكنك أن تتعرف على المناطق التى يسكن فيها شياطين الضباب الأسود وذلك بطرق عديدة . فمن وقت لآخر قد يصطاد المحاربون الفرسان أيلًا بواسطة الكلاب بعد مطاردته عبر التلال والوديان وخلال أميال عديدة من الغابات والأرض العراء . حتى إذا وصل الأيل الى مستنقع رطب وقراق ضحل توقف عن الجرى مفضلا أن تقطعه كلاب الصيد أربا على أن يدخل الى ذلك المكان الكريه . وبهذا الشكل نتعرف على المناطق التى يعيش فيها الوندول ونعرف أيضا انه حتى الحيوانات لا تجرؤ على الدخول الى ذلك المكان .

أظهرت دهشة عظيمة حين سماعى هذه القصة ، وما ذلك الا لاستدرج الرجل العجوز لمزيد من الحديث . وفي تلك اللحظة رآنى هرغر فرماني بنظرة لثيمة لكنى لم اعره أى انتباه .

استطرد الشيخ قائلا : « فى قديم الايام كان كل اهل الشمال وفى كل أصقاعهم يخافون الضباب الأسود . ولكن منذ أيام أبى وجدى وجد أبى قبله لم يرا شمالى الضباب الأسود أبدا ، وينظر اليها المحاربون الشباب على أننا مجانين أو حمقى حين نتذكر الحكايا القديمة عن الرعب والجزع الذى كان الوندول يسببونه . الا أن زعماء الشمال فى كل ممالكهم حتى فى النروج ، كانوا دائما يتوقعون عودة الضباب الأسود . وكل مدننا وقلاعنا محمية ومحصنة من ناحية البر . ومنذ أيام أبى وجدى وجد أبى يقوم الناس بهذه الاعمال والتحصينات ولكننا لم نر الضباب الأسود أبدا . أما الان فقد عاد ائينا . «

استفسرت عن سبب عودة الضباب الأسود ، فخفض صوته وهو يقول مجيبا : « لقد عاد الضباب الأسود بسبب صلف وخيلاء وضغف ووثغار الذى أساء الى الالهة بتباهيه الاحمق فحرض الشياطين وأغراهم ببناء قاعته الكبرى فى الموقع الذى اختاره والذى

لا يتمتع بأى حماية من ناحية البر . وروثغار اليوم مسن هرم وهو يعلم علم اليقين بأنه لن يذكر بمعارك خاضها أو ربحها ، ولهذا بنى هذه القاعة الفخمة التي أصبحت حديث الدنيا بأكملها وأرضت غروره وخيلاءه . ان روث غار يتصرف كاله ، ولكنه انسان ولهذا بعثت الالهة بالضباب الاسود ليصمته وليعلمه معنى التواضع .

قلت لهذا الشيخ الهرم انه ربما كان اهل الملكة يكرهون روثغار . فاجاب قائلا : « ليس هناك من رجل فاضل الى حد الخلو من كل الشرور ، كما انه ليس هناك من رجل شرير الى حد لايساوى معه شيئا . ان روثغار ملك عادل ولقد ازدهر شعبه ابان حياته . وان حكمه وغنى حكمه هما هنا ، في قاعة هاروت وهما حقاً رائعان ، اما خطيئته الوحيدة فهي انه نسي ان يبني دفاعاته لان عندنا قولا مفاده : « لايجوز لرجل ان يخطو خطوة واحدة بعيدا عن اسلحته . » وروثغار بلا سلاح وهو فاقد الاستان ضعيف ولهذا يسرح الضباب الاسود ويمرح حرا فوق ارضنا . »

تمنيت لو يحدثني باكثر من هذا ، لكن الشيخ الهرم سرعان ما شعر بالتعب وابتعد عني ، ورايته يفتو بسرعة . واقول الحق بان طعام وشراب روثغار كان كثيرا بالغ الكرم ، وقد اصاب العديد من النبلاء والوجهاء بالنعاس لكثرة ما اكلوا وشربوا .

اما عن طاولة روثغار نفسه فاليكم ما رايت عليها : كان كل رجل جالس اليها قد وضع امامه غطاء طاولة وصحن وملقمة وسكينا ، اما الوجبة فكانت لحم خنزير وماعز مطبوخ ، كما كان هناك بعض السمك ايضا ، لان الشماليين كانوا يفضلون اللحم المطبوخ على المشوى . وكان هناك الملقوف والبصل بكميات هائلة ، كما كان هناك تفاح وجوز . وقد اعطيت لى قطعة لحم محلاة دسمة لم اذقها من قبل . قيل لى انها لحم غزال .

الفصل الخامس عشر

اما الشراب الكريه المسمى (ميد) فانهم يصنعونه من العسل ثم يخمرونه . وهو اشد مادة صنعها انسان سوادا وحموضة وقلادة ، ولكنها رغم كل ذلك مبعث قوة وعزيمة لاتعرف الحدود ، فما ان

بشرب الواحد بضع كئوس حتى يدور العالم به ويدوخ . ولكننى لم أشرب والله الحمد .

وقا . لاحظت الان ان بيولف ورفاقه لم يشربوا تلك الليلة وان شربوا فلما ، ولم يعتبر روث غار ذلك اهانة له ، بل اعتبره منطلق الامور الصحيح . لم يكن هناك اى ريح تلك الليلة حتى قناديل ومشاغل قاعة هاروت لم ترتعش ، ومع ذلك فقد كان المساء رطبا وقارس البرودة . ولقد رايت بأم عيني ان الضباب خارج الابواب كان يتدحرج هابطا من على التلال فيحجب ضوء القمر الفضى ويجعل كل شئ بالسواد . وبينما كانت حفلة المساء مستمرة غادر الملك روث غار وملكته القاعة ليناما ، بينما اغلقت واوصدت ابواب قاعة هاروت بواسطة القضبان الحديدية اما النبلاء والوجهاء الذين بقوا هناك فقد سقطوا في نوبة من النوم السكران وراحوا يشخرون بأصوات عالية .

اما بيولف ورجاله ، وكانوا لا يزالون مرتدين دروعهم ، فقد راحوا يتجولون في القاعة يصلحون من القناديل ويصلحون النار لكى تشتعل ببطء ويضعف . سألت هرغر عن معنى كل هذا ، فطلب الى ان اصلى وادعو لنجاتى ، وان اتظاهر بالنوم . ثم اعطيت سلاحا كان عبارة عن سيف قصير ولكنه لم يمنحنى من الراحة الا القليل ، فما كنت يوما محاربا وانا اعرف ذلك حق المعرفة .

وهكذا تظاهر كل الرجال بالنوم ، حتى بيولف ورجاله تمددوا بجانب اجساد نبلاء الملك النائمة والذين كانوا يشخرون بعمق . لا ادرى كم مضى علينا من الوقت ونحن ننتظر لاننى اعتقد اننى قد سهوت بعض الوقت . وفجأة استيقظت وانا بحالة من التنبه والفرع غير الطبيعيين . لم اكن نعسانا ولكنى كنت متنبها متوترا الى ابعد الحدود ، بينما كنت لا ازال مضطجعا على القماش المصنوع من جلد الدب على ارض القاعة الكبيرة . كانت ليلة مظلمة حالكة السواد ، وكانت القناديل في القاعة تحترق بضوء هزيل ، بينما كانت نسمة ناعمة خفيفة تهمس وهى تتسلل الى القاعة وتراقص اللهب الاصفر . ثم سمعت صوت دمدمة خفيض وكانه عواء خنزير حملته الى النسمة ثم شممت رائحة كريهة مؤذية كانها رائحة جثة متعفنة مضى

على موتها شهر من الزمان ، وشعرت بالخوف الشديد . هذا الصوت المدمم المفزع ، ولا أجد له وصفا خيرا من هذا ، هذا الصوت المهمم المدمم الشاخر بدأ يعلو شيئا فشيئا وبدأت تشتد ثورته . كان يأتي من خارج الابواب من أحد جانبي القاعة . ثم أتى من الجانب الآخر ثم من الجانب الثالث ثم الرابع . وفي الواقع كانت القاعة مطوقة تطويقا كاملا . جلست متكئا على أحد كوعى وقلبي يدق كمطرقة ، ثم نظرت في أنحاء القاعة . لم يتحرك أى من المحاربين النائمين ، لكن كان هرغر مستلقيا بجانبى وعيناه مفتوحتان . ثم رأيت بيولف أيضا يتنفس بعمق متصنعا الشخير ، بينما عيناه مفتوحتان استنتجت من هذا كله أن كل مقاتلى بيولف كانوا بانتظار المعركة مع الوندول الذين كانت اصواتهم الان تملأ الجو في الخارج . ليس هناك والله خوف اعظم من خوف الانسان حين لا يعرف السبب . ترى كم مضى على وأنا مستلق فوق جلد اللب اصغى الى همهمة الوندول واستنشق رائحتهم الكريهة ! وكم مضى على أنتظر ما لا اعرف ماهو : ربما بداية معركة اكثر ارهابا في الخيال مما هي عند النزال ! وهنا تذكرت مايلى : وهو ان اهل الشمال يرددون دائما قول المديح الماثور الذى يحفرونه على قبور نبلاء المحاربين ، والذى يقول « انه لم يهرب من معركة يوما » وفي الحقيقة لم يهرب تلك الليلة اى من رفاق بيولف رغم أن الاصوات والروائح العفنة كانت تحيط بهم من كل جانب ، ترتفع حيننا وتنخفض حيننا آخر ، وحيننا تأتي من هذه الجهة وحيننا من تلك . ورغم ذلك فقد انتظروا وانتظروا .

ثم جاءت اشد اللحظات رعبا . توقفت كل الاصوات وساد صمت رهيب لم يكن يقطعه الا شخير الرجال وعصمه النار الهامسة . وحتى الان لم يأت اى من رجال بيولف باقل حركة .

وفجأة جاء صوت تحطم هائل على ابواب قاعة هاروت الصلب ثم انفتحت هذه الابواب وكأنها عاصفة . تبع ذلك دفقة من الهواء العفن اطقا كل الانوار ثم دخل الضباب الاسود . لم استطع عددهم ، ولكنهم كانوا يبدون وكأنهم آلاف مؤلفة من اشكال سوداء مدممة ، ورغم ذلك فقد لا يكونون اكثر من خمسة أو ستة من اشكال سوداء

ضخمة لا يكادون يشبهون الرجال ، ومع ذلك فقد كانوا أشباه رجال .
وعبق الجو برائحة الدم والموت ، وأحسست ببرد يذهب بالعقل
وارتجفت . ورغم كل ذلك فلم يتحرك مقاتل واحد .

ثم وبصرخة تجمد الدم في العروق وكافية لايقاظ الموتى قفز بيولف
واقفا وهو يلوح بذراعيه السيف الهائل رندنج الذى كان يدوى
كالسنة اللهب المتأججة وهو يقص الهواء . وقفز كل محاربيه معه
وانضموا الى المعركة . واختلطت صيحات الرجال بهمهمات الخنازير
وروائح الضباب الاسود ، وكان هناك رعب وفوضى وتخريب
وتمزيق في كل مكان من القاعة الكبيرة .

اما فيما يتعلق بى فلم يكن لى رغبة في القتال ، ومع ذلك سقط
على احد هذه الوحوش الضبابية الذى كان قريبا منى الى حد رايت
بريق عينيه الحمراءوين - وفي الحقيقة رايت عينين تشعان كالنار ،
ثم شممت رائحة العفن ثم رفعت كلى في الهواء وطوح بى عبر القاعة
ثم القيت كما يلقي طفل حصة . ارتطمت بالجدار وسقطت على
الارض ، ثم اصابتنى غيبوبة لبضع لحظات تالية فبدا كل ما حور
مضطربا فوضويا اكثر مما كان حقيقة اراها . استمرت المعركة من
لا اعرف طولها ولكنها انتهت فجأة وبرمشة عين ثم اختفى الضباب
الاسود هكذا وانسل مبتعدا وهو يدمدم ويلهث تاركا وراءه روائح
الكريهة ومخلفا وراءه ايضا الدمار والموت الذى لم يستطع ان نحدد
مداه حتى اضانا مشاعل جديدة .

واليكم وصفا لما جرى في المعركة : بالنسبة لجماعة بيولف فقد
مات منهم ثلاثة ، وهم رونت وهلفا ، وهما نيبلان ، وادغثو وهو
محارب . اما الاول فقد شطر صدره شطرين ، واما الثانى فقد
كسر عموده الفقرى اما الثالث فقد قطع راسه بالطريقة التى وصفتها
سابقا . كل هؤلاء المحاربين اصبحوا الان موتى .

كما جرح اثنان آخران ، هما هلتف ورثل وقد فقد هلتف احدى
اذنيه وفقد رثل اصبعين من كفه اليمنى . ولم تكن جراحهما خطيرة
كما لم يعبرا عن اية شكوى او ألم . لانه من عادة رجال الشمال ان
يتحملوا آلام جراح الممارك بمرح ، وان يجدوا فوق كل شىء بقاء
الحياة .

أما بالنسبة لبيولف وهرغر والآخرين فقد كانوا غارقين بالدماء ،
كما لو كانوا قد استحموا فيها .

أما الآن فسأروى ما لن يصدقه الكثيرون . ومع هذا فقد وقع :
لم تقتل جماعتنا أيا من وحوش الضباب إذ انسلوا جميعا هاربين
وربما مجروحين جراحا بليغة ومع ذلك فقد هربوا جميعا .

هذا ما قاله هرغر : « لقد رأيت اثنين منهم يحملان ثالثا كان
ميتا » . ربما كان الأمر كذلك لأن الكل وافقوه عليه . وقد علمت
بأن وحوش الضباب لا تترك أيا من أفرادها لأقوام البشر وهم
يفضلون أن يتعرضوا لمخاطر جسيمة مقابل أن يستعيدوه من أيدي
البشر . كما أنهم يرضون بتحمل المشاق الطويلة لكي يحتفظوا برأس
ضحيتهم ، ولذلك لم نجد رأس ادغشو في أي مكان فقد حملته
الوحوش معهم .

ثم تحدث بيولف وترجم هرغر كلماته لي على النحو التالي :
« انظروا لقد احتفظت بتذكار لامجاد الليلة الدائمة . انظروا هاهي
ذراع أحد الشياطين » .

وتصديقا لكلماته رفع بيولف ذراع أحد وحوش الضباب وقد
بترت من الكتف بقوة ضربة السيف العظيم رندنج . تجمع كل
المحاربين حوله ليتفحصوا الذراع وقد تراءى لي على الشكل
التالي : بدا صغيرا له كف كبيرة الحجم مما يفوق حدود الطبيعة
إلا أن العضد والساعد كانا صغيرين بشكل لا يتفق وحجم الكف رغم
أن العضلات كانت قوية جدا . كما كان هناك شعر أسود طويل
وكثيف فوق كل أجزاء الذراع ماعدا راحة الكف . بقي أن نقول أن
الذراع كانت تفيض برائحة كتلك التي كانت تنطلق من جسم كل
وحش . يضاف إليها رائحة عفن وحش الضباب الأسود .

عند ذلك حيا جميع المقاتلين بيولف وسيفه رندنج وعلقت ذراع
الشیطان من عارضة خشبية في سقف القاعة الكبيرة . لينظر إليه
بالدهشة والاستغراب كل سكان مملكة روثغار . وهكذا انتهت
المعركة الأولى مع الوندول .

الفصل السادس عشر

الاحداث التي تلت المعركة الاولى

الحقيقة ان اهل بلاد الشمال لا يتصرفون ابدا كما يتصرف البشر العاقلون والمنطقيون . فبعد الهجوم الذي قامت به وحوش الضباب وبعد صدهم من قبل بيولف وجماعته ، وانا بينهم طبعا ، لم يفعل رجال مملكة روث غار اى شىء على الاطلاق .

لم يكن هناك اى احتفالات ولا ولائم ولا تظاهرات فرحة ولا تعبير عن السعادة . انما جاء شعب المملكة من قاصى الاضغاع ودانيها ليشاهدوا يد الشيطان المعلقة التي كانت تتدلى فى القاعة الكبرى ، وقد ابتهجوا لهذا المشهد بكثير من الاستغراب والتعجب . الا ان روث غار نفسه ، ذلك الرجل الشيخ نصف الاعمى ، لم يبد اى سرور كما لم يقدم لبيولف ورجاله اى هدايا ولم يقم لهم اية ولائم ، كما لم يقدم لهم اية اماء او عبيد ، ولم يقدم لهم الفضة او الثياب الثمينة ولم يقدم اى تعبير عن التقدير والاكرام .

بل خلافا لاي تعبير عن المسرة فان الملك روث غار اظهر تقززا واشمئززا راسما على وجهه تعابير الجد ، كما كان يبدو اكثر خوفا مما كان فى الماضى . حتى انا نفسى ، وان لم اقل ذلك بصراحة ، كنت اشك بان روث غار كان يفضل الحالة السابقة قبل ان يهزم الضباب الاسود .

حتى بيولف لم يكن حاله مختلفا عن هذا ، فلم يدع الى اى احتفالات او شراب او اقامة ولائم على الاطلاق . اما النبلاء الذين ماتوا ميتة الشجعان فى معركة الليلة الماضية فقد وضعوا سريعا فى حفر ذات سقوف خشبية فى اعلاها ، وتركوهم هناك لمدة عشرة الايام المقررة . وكان هناك تسرع فى هذه القضية .

ومع هذا لم يعبر بيولف ورفاقه عن سمادتهم الا حين بدعوا بوضع المقاتلين الموتى فى حفرهم فعندما فقط سمحوا لانفسهم بالابتسام . وبعد كل هذا الوقت الذى قضيته بين اهل الشمال

صرت أدرك أنهم يبتسمون لاي ميتة فى ساحة المعركة اذ ان هذه مسرة يعبرون عنها نيابة عن الشخص الميت وليس نيابة عن الاحياء . فهم يفرحون حينما يموت اى منهم ميتة المحاربين . وعكس ذلك صحيح ايضا بالنسبة اليهم : فهم يظهرون الالم والامتعاض حين يموت احدهم فى نومه او فى فراشه . فهم يقولون عن مثل هذا الرجل « انه مات ميتة بقرة بين القش » . وليست هذه اهانة ولكنها السبب الذى يبدو انه لرتاء الميت .

ويعتقد اهل الشمال ان كيفية موت انسان هى التى تحدد وضعه فى الحياة الاخرى « حياة الخلود » ، وهم يعتبرون موت المقاتل فى المعركة اسمى مراتب الموت . اما « ميتة القش » فهى ميتة مخجلة . وحين يموت اى انسان منهم فى نومه فانهم يقولون عنه انه قد خنقه « الماران » ، اى كابوس الليل . هذا المخلوق ، اى كابوس الليل ، هو امرأة ، وهو الامر الذى يجعل مثل هذه الميتة عارا مخجلا ، اذ ان الموت على يدى امرأة هو احط الامور عندهم على الاطلاق .

وهم يقولون ايضا ان الموت بلا سلاح مهين ، ولذلك ينام المقاتل الشمالى وسلاحه دائما معه ، حتى اذا اتى كابوس الليل يكون سلاحه فى متناول يده . ونادرا ما يموت مقاتل من مقاتليهم بسبب المرض او بسبب وهن الشيخوخة . وقد سمعت بملك اسمه آن ، عاش من العمر طويلا حتى اصبح كالطفل الرضيع مرة اخرى ، لا اسنان له ويعيش على طعام الاطفال ، حتى انه قضى بقية ايامه فى فراشه يشرب الحليب من قربة وعل . ولكن قيل لى ان هذا نادر وغير عادى فى بلاد الشمال . ولقد رايت بام عينى عددا قليلا منهم فقط يعمر حتى سن الشيخوخة ، واعنى بذلك التعمير حتى بلوغ السن الذى لا تصبح اللحية فيه بيضاء فحسب بل ايضا تتساقط عن الذقن والوجه .

اما نساؤهم فكثيرات منهن يعشن حتى سن الشيخوخة خاصة تلك الحيزبون التى يدعونها ملاك الموت ، فانهم يعتقدون بان مثل هؤلاء النسوة يملكن قوى سحرية فى شفاء الجراح والقاء التعاويذ والرقية ، وفى ابعاد الاتار الشريرة وفى التنبؤ عن احداث المستقبل .

ونساء بلاد الشمال لا يتقاتلن فيما بينهن أبدا ، وكثيرا ما رأيتهن يتدخلن لحل نزاع أو مبارزة بين رجلين ويطفئن الفضب المتصاعد . هذا ما يفعله خاصة اذا كان المقاتلون قد أصيبوا بالخبل بسبب السكر الشديد ، فهذا ما يحدث فى العادة .

لكن هؤلاء الشماليين الذين يفرطون بشرب المسكرات طيلة ساعات الليل والنهار لم يشربوا قطرة واحدة طيلة اليوم الذى تلا المعركة . ونادرا ما كان شعب روث غار يعرض على أحدهم كأسا ، وان حصل هذا كانوا يرفضون الكأس . وقد وجدت هذا مدعاة للاستفراب الشديد فحدثت هرغر عنه مستفسرا . هز هرغر كتفيه على الطريقة الشمالية فى التعبير عن اللامبالاة ثم قال « الكل خائفون » وحين سألت عن سبب الخوف قال لى ما يلى : « لانهم يعلمون حق العلم أن الضباب الأسود سيعود ثانية » .

وهنا اعترف باننى أصبت للحظة بعدوى روح العداء التى تسيطر على المحاربين ، مع انى أعلم فى الواقع اننى لا أستحق مثل هذه الهيئة . ولكن رغم ذلك شعرت بالطرب والفرحة الغامرة لكونى ما زلت على قيد الحياة ، ولان شعب روث غار يعاملنى باعتبارى واحدا من جماعة المحاربين الأبطال . قلت بشجاعة « ومن يهاب مثل هذا ؟ اذا ما عادوا ثانية فسنهزمهم مرة أخرى » .

فى الحقيقة كنت مختالا مفرورا اختيال ديك حديث السن ، وانى اذ أتذكر ذلك الان أحس بالخجل من مباحاتى السخيفة . أجاب هرغر : « ليس لمملكة روث غار مقاتلون أو وجهاء يقاتلون : لقد ماتوا جميعا منذ وقت بعيد ، وعلينا نحن فقط ان ندافع عن المملكة . بالامس كنا ثلاثة عشر . أما اليوم فنحن عشرة ، ومن بين العشرة اثنان جريحان ولا يستطيعا ان يقاتلا كرجلين كاملين . والضباب الأسود غاضب وسينتقم انتقاما رهيبا » . قلت لهرغر الذى كان قد أصيب ببعض الجروح الطفيفة أثناء المعركة ، والتى لم تكن شديدة شدة آثار المخالب على وجهى والتى كنت أتباهى بها . قلت له اننى لا أخاف شيئا يمكن لهذه الشياطين ان تفعله . أجاب باقتضاب اننى عربى واننى لا أفهم شيئا من عادات بلاد الشمال . ثم أخبرنى بأن انتقام الضباب الأسود سيكون رهيبا .

مهنيا ، ثم اُضاف « انهم سيمودون كالكورغن » . لم أفهم معنى الكلمة فسألت « وماهو الكورغن ؟ » فقال لى « انه تنين الحياجب ، والتي تطير هابطة فى الجو » . الا ان هذا بدا لى خيالا محضا ، ولكنى كنت قد رأيت وحوش البحر كما وصفوا لى وحوشا تعيش بتلك الصفات ، رأيت وجه هرغر الممتقع والمجهد ، فاقتنعت بأنه كان مقتنعا بوجود تنين الحياجب . سألت « ومتى يأتى الكورغن ؟ » . اجاب هرغر « ربما هذا المساء » .

وفى الحقيقة بينما كان هرغر يتكلم رأيت ان بيولف ، رغم انه لم ينم طيلة تلك الليلة ورغم ان عينيه كانتا محمرتين مثقلتين بالاجهاد ، كان يشرف من جديد على بناء الدفاعات حول سور هاروت والبنائيات الملاصقة ، والتي تشكل منسازل الملك روث غار وبعض نبلائه ، والاكواخ الوضيعة التى يعيش فيها عبيد هذه العائلات كما يعيش فيها بعض الزارعين الذين كانوا يعيشون اقرب ما يكون الى شاطئ البحر ، حول كل هذه المنطقة بنى بيولف نوعا من السياج من العصى المتصالبة وعواميد الخشب ذات الرعوس المدببة . . ولم يكن السياج اعلى من كتف رجل ، ورغم ان هذه الرعوس المدببة كانت حادة قاطعة مخيفة فأننى لم أستطع ان ارى او اقتنع بفاعلية هذا الدفاع لان اى رجل يستطيع صعوده على سلم بسهولة .

حدثت هرغر عن هذا فأجاب باننى لست سوى غبى . وكان واضحا انه كان يعانى من مزاج سيء للغاية .

ثم بنوا خط دفاع آخر ، كان عبارة عن خندق خارج سياج الاعمدة ، وعلى بعد خطوة ونصف من ذلك السياج . كان هذا الخندق غريبا حقا . فلم يكن عميقا ابدا بل هو لا يكاد يفمر رجلا الى ركبتيه واحيانا اقل عمقا . وقد تم حفره بشكل غير متناسق بحيث كان فى بعض الاماكن ضحلا للقساية وفى بعضها الاخر اكثر عمقا ، تتناوب حفر صغيرة . وفى بعض الاماكن غرزت بعض العصى القصيرة فى الارض ورعوسها المدببة الى اعلى .

الا اننى عجزت عن تفهم مغزى وقيمة هذا الخندق الردىء عجزى عن فهم السياج ، ولكننى لم أسال ولم أستفسر من هرغر ، لادراكى لما كان عليه فى تلك اللحظة من سوء المزاج . ولكن بدلا من ذلك

ساهمت فى أعمال البناء كأفضل ما أستطيع المساهمة ، ولم أتوقف عن العمل إلا مرة واحدة لامتج نفسى بجارية على الطريقة الشمالية ، إذ انى نتيجة ائارة الليل الماضية والمعركة التى تلت واستعدادات النهار احسست بنشوة وقوة عظيمتين .

الفصل السابع عشر

خلال ترحالى مع بيولف ومحاريبه على طول نهر الفولفا كان هرغر قد حدثنى بأن النساء غير المعروفات ، وبخاصة ان كن جدابات ومثيرات جنسيا ومفريات ، لا يجوز ان يوثق بهن . وقال لى هرغر ان فى اعماق الغابات والاماكن الموحشة من بلاد الشمال تعيش نساء يدعين نساء الغابات ونساء الغابات هؤلاء يغربن الرجال بجمالهن وكلماتهن المسولة ، حتى اذا ما اقترب منهم الرجل ، وجدهن بلا مؤخرة ووجد انهن لسن سوى اشباح . ثم تقوم هؤلاء النساء باسقاط سحرهن ورقيهن على الرجل الذى اغربنهن فيصبح أسيرهن .

الان وبعد ان حدثنى هرغر بهذا الشكل كنت حين اقترابى من هذه الجارية خائفا مترددا ، لاننى لم اكن اعرفها . لذلك قاول ما فعلت هو ان تحسست مؤخرتها بيدي فرايتها تضحك حتى غشيت لانها عرفت سبب تلمسى لققاها ، والذي كان الرغبة فى ان اطمئن نفسى انها لم تكن روحا من ارواح الغابات . وكم شعرت باننى احمق سخيف فى تلك اللحظة ، وكم لعنت نفسى بتصديق خرافات الوثنيين . الا اننى اكتشفت مع مرور الزمن انه ان كان جميع من حولك يؤمنون بشيء ما فسرعان ما سستجد نفسك مدفوعا لان تشاركهم ذلك المعتقد ، وكان هذا ما حدث لى فعلا .

ونساء اهل الشمال نحيفات شاجبات كالرجال هنا ، وهن طويلات طول الرجال ايضا ، حتى ان الكثيرات منهن كن ينظرن الى اسفل ليرين راسى . وللنساء عيون زرقاء وشعر طويل للغاية ولكن شعرهن ناعم سهل شبكه . ولهذا فهن يعقدنه على شكل حزمة حول اعناقهن وفوق رءوسهن . وتسهيلا لهذه العملية فقد صنعن لانفسهن انواعا

كثيرة من الملاقط والدبابيس مصنوعة من الخشب أو الفضة المزخرفة . وهذا ما يشكل زينتهن الرئيسية . كما أن زوجة الرجل الفنى منهم ترتدى عقدا من الذهب أو الفضة كما قدمت آنفا . والنساء مفرمات بأساور الفضة المطروقة على شكل تينين أو أفعى ، يرتدينها على سواعدهن ما بين الكوع والكتف وتصاميم أهل الشمال معقدة مضفورة ، كما لو كانوا يريدون تصوير تداخل أغصان الشجر أو التفاف الأفعى حول نفسها . وهذه التصاميم جميلة جدا .

ويعتبر أهل الشمال أنفسهم حكماء حاذقين فى الحكم على جمال المرأة . ولكن فى الواقع بدت كل نسايم لعينى نحيلات هزيلات ، كل أجسادهن تتوءات وزوايا وكتل من العظم . وحتى وجوههن أيضا كانت ناتئة العظام وخدودهن مرتفعة . هذه الصفات يتقدها الرجال الشماليون ويمتدحونها مع أن امرأة فيها هذه المواصفات لن تجتذب ولو نظرة واحدة فى مدينة السلام وسينظر إليها على أنها ليست أفضل من كلب نصف جائع بارز الأضلاع . فنساء الشمال لهن أضلاع تبرز بنفس الطريقة .

لست أدري لم النساء نحيفات الى هذا الحد ، فهن يأكلن بشراهة الرجال ، ومع ذلك فهن لا يكسبن لحما يغطى أجسادهن أبدا .

كما أن النساء لا يظهرن أى « حياء » أو أى سلوك محتشم . فهن لا يتحجبن ، كما يخلصن أجسامهن من فضلاتها فى أماكن عامة كما تتطلب الحاجة . وبنفس الطريقة يندفعن نحو أى رجل يروق لخيالهن كما لو كن هن أنفسهن رجلا . ولا يوبخهن المحاربون على ذلك أبدا . والحال هى نفسها حتى ولو كانت المرأة جارية ، لأنه كما قلت سابقا يتصرف رجال الشمال بعطف شديد ومحبة تجاه عبيدهم خاصة إذا كانوا نساء .

مع تقدم ذلك اليوم نحو نهايته رايت بشكل واضح أن دفاعات بيولف لن تكتمل مع حلول الظلام ، سواء السياج المصنوع من الأعمدة المصنوعة من أغصان الأشجار المديبة أو الحفرة الضحلة . كما لاحظ بيولف ذلك أيضا نادى الملك روث غار والذى استدعى بدوره الحيزيون العجوز . هذه الحيزيون التى كانت هزيلة بالية

ولها لحية رجل قامت بذبح غنمة ونشر أوردها على الأرض . ثم قامت بترديد أغان غديدة استمرت مدة طويلة وتخللها الكثير من التضرع الى السماء (١) .

حتى الان لم أسال هرغر عن هذا بسبب مزاجه السيء . وبدلا من ذلك رحى اراقب محاربي بيولف الذين كانوا ينظرون الى البحر . كان المحيط اغبر هائجا ، والسماء ملبدة بالغيوم ، الا ان نسمة قوية كانت تهب نحو اليابسة . وهذا ما اشعر المقائلين بالراحة ، وقد حذرت السبب : وهو ان نسمة المحيط باتجاه اليابسة لا بد وان تمنع الضباب من الهبوط من فوق التلال . وكان تخميني صحيحا .

وعند هبوط الليل توقف العمل في الاستحكامات والدفاعات ، ولشدة حيرتى ودهشتى اقام « روث غار » وليمة اخرى فخمة رائعة ، وفي هذا المساء وبينما انا اراقب ما يجرى راح بيولف وهرغر والمحاربون الآخرون يشربون الكثير من الميد ويمرحون ويمتعون انفسهم كما لو انهم كانوا لا يحسون بأى من هموم الدنيا ، وتمتعوا كما دعتهم بالاماء والجوارى ، ثم غرق الكل في نوم رتيب عميق .

ولقد علمت ايضا ما يلى : وهو ان كلا من محاربي بيولف كان قد اختار من بين الاماء والجوارى واحدة كان يفضلها على غيرها ، رغم انه لم يكن يستثنى الاخريات . وقد حدثنى هرغر وهو مخمور منتش عن المرأة التى كان يفضلها قائلا « انها ستموت معى اذا اقتضى الامر » . ومن هذا استنتجت ان كلا من محاربي بيولف قد اختار امرأة ستموت من اجله فوق محرقة الدفن ، وان هذه المرأة يعاملونها

(١) ان استعمال ابن فضلان لتعبير « اوردة » قد ادى لبعض الاخطاء عند الباحثين . فقد كتب ي . د . كريهم مثلا ان « الفاكنج كانوا يتنبئون بالمستقبل عن طريق طقوس تعتمد على اوردة الحيوانات وتشرها على الأرض » وهذا بكل تأكيد رأى خاطئ ، فالتعبير العربي عن تنظيف الحيوان هو « قطع الاوردة والشرابين » وابن فضلان هنا انما يشير الى ممارسة طقوس دينية عن طريق فحص الاوردة . واللغويون الذين يعالجون مثل هذه التمايز العامة المحلية طيلة الوقت مفرمون بتناقضات وتعارضات المعانى : والمثل المفضل لهاستند هو التعبير الانجليزى المستعمل فى التحذير « انتبه » والذي يعنى عادة على المرء ان يفعل العكس تماما وان يقطن بعثنا عن ملجأ او غطاء .

بمحة واعزاز وتقدير أكثر من غيرها ، فهؤلاء المحاربون كانوا ضيوف المملكة ، ولم يكن لهم فيها اماء يملكونهن ويمكن أن يؤمرن بحكم القرابة أن يفعلن ما يأمرؤنهن به .

الفصل الثامن عشر

خلال الفترة الاولى لاقسامتى بين قوم الفنـسـدان كانت نساء الشمال يمتنعن عن الاقتراب منى بسبب سمرة جلدى وسواد شعرى ، ولكن كان هناك همس كثير ونظرات كثيرة تتجه منهن صوبى ، ثم كانت هناك ضحكات وقهقهات بين احداهن والاخرى . وقد وجدت أن هؤلاء النسوة السافرات كن رغم سفورهن يجعلن من ابيدهن حجابا يغطى وجوههن بين وقت وآخر خاصة عندما كن يضحكن . وهنا سألته هرغر : « لماذا يفعلن ذلك ؟ » لاننى لم اكن أرغب فى أن أتصرف بطريقة مخالفة لعادات الشماليين .

وقد اجاب هرغر بهذا الجواب : « تعتقد النساء أن العرب كالخيول الاصيله ، فقد كان هذا ما سمعته يتردد اشاعة بينهن » . ولم يشر هذا استغرابى وذلك للسبب التالى : ففى كل البلاد التى تجولت فيها وحتى ضمن اسوار مدينة السلام الدائرية ، وفى كل مكان يتجمع فيه الناس ليشكلوا لانفسهم مجتمعا تعلمت أن الاشياء التالية هى حقائق صحيحة . أولا ، ان شعوب بلد ما تعتقد بأن عاداتها هى المناسبة وهى أفضل من عادات اى من الشعوب الاخرى . ثانيا ، ان اى غريب ، رجلا كان او امرأة ينظر اليه باعتباره اقل قيمة فى كل مجال ما عدا قضية النسل والتوالد . وهكذا فالأتراك يعتقدون بأن الفرس عشاق موهوبون ، وينظر الفرس باحتقار الى البشر ذوى البشرة السوداء ، كذلك ينظر اليهم من قبل شعوب أخرى وهكذا .

ويستمر الامر كذلك ، أحيانا بسبب يقوم حول حجم الاعضاء التناسلية وأحيانا بسبب يعطى عن مدة الفعل الجنسى ، وأحيانا أخرى بسبب مهارات وأوضاع متعددة اثناء الممارسة الجنسية . لا أستطيع التأكيد أن نساء الشمال يعتقدن بحق ما قاله هرغر ، ولكنى فى الواقع اكتشفت أنهن كن شد مندهشات بسبب ختامى وهى عادة غير معروفة بين أهل الشمال لانهم كفرة قدرون . اما عن

ساعة الحماة أو اللقاء ، قهؤلاء النساء صاحبات عنيقات ، تقوح
منهن رائحة كان تضطرنى لان اخنق انفاسى طيلة فترة المجامعة .
كما اتنهن معتادات على اعتلاء الرجل والتلوى والخدش والعض الى
درجة يحد الرجل معها نفسه وقد اطيع به من فوق من هى تحته
كما تتحدث رجال الشمال . اما فيما يتعلق به فقد وجدت كل تلك
الممارسة مصدر ألم وعذاب اكثر مما هى متعة .

وتتحدث رجال الشمال عن هذا قائلين : « لقد وقعت معركة
حامية بينى وبين هذه المرأة أو تلك » وتتفاخرون باظهار العلامات
الإرقاء والاورام التى يصابون بها فى تلك الممارك لاصدقاتهم أو
لرفاقهم كما لو كانت حروحا حقيقتة فى معركة من المعارك . وعلى
كل حال لم يكن الرجال ليؤذون أية امرأة ابداء استطعت أن أرى
آثاره .

فى هذه الليلة وبشما كان محاربو سولف يفظن فى سيات عميق ،
كنت خائفا جدا من الشرب أو من الضحك ، فقد كنت أخشم عدة
الندول . ومع هذا لم يعودوا ، ووجدت نفسى أخيرا أغفو ولكن
بقلق .

وفى اليوم التالى لم تكن هناك أية ربيع ، وعمل كل شعب .
مملكة « روث غار » بجهد واخلاص وخوف . كان هناك حديث فى
كل مكان عن « الكورغن » ، وعن حتمية عودتهم للهجوم اثناء الليل . كانت
جراح مخالبا الوندول على وجهى تؤلمنى ، فقد كانت تقرصنى وهى
تتمائل الى الشفاء ، كما كانت تؤلمنى كلما حركت فمى لاكل أو
اتكلم . وأقول الحق ان عزيمة المحارب قد هجرتنى . فقد أصبت
بالخوف مرة أخرى ورحت أعمل بصمت جنبا الى جنب مع النساء
والرجال .

حوالى الظهر زارنى النبيل المسن الادرد (ساقط الاسنان) الذى
كنت قد تحدثت اليه فى قاعة الوليمة . تنحى بى جانبا وقال
يحدثنى باللاتينية : « أريد أن أقول لك بضع كلمات » . ثم قادنى
بضع خطوات بعيدا عن العمال والتحصينات .

بدا باظهار اهتمام كبير بفحص جروحي التى لم تكن فى الواقع
خطيرة الى ذلك الحد ، وبينما كان يفحص تلك الجراح قال لى
« أريدك أن تنقل تحديرا وانذارا لجماعتك ، هناك ثورة وقلق فى
قلب الملك روث غار » . قال لى هذا باللاتينية .

سألت « وما السبب ؟ » قال النبيل الشيخ « انه المنادى والابن
وغلف أيضا الذى لا ينى - يهمس فى اذن الملك . ثم هناك صديق
وغلف . فوغلف يكرر على مسامع روث غار ان بيولف ورفاقه يخططون
لقتل الملك وحكم المملكة » .

« وهذا ليس صحيحا » قلت هذا رغم اننى لم اكن اعرف
الحقيقة . وبصدق كانت الفكرة تخطر على بالى من وقت لآخر ،
فقد كان بيولف شابا قويا وكان روث غار هرما ضعيفا ، وفى حين
كان صحيحا ان طرق وعادات الشماليين غريبة فانه صحيح وحقيقى
ايضا ان كل الرجال متشابهون (فالانسان هو الانسان اينما كان) .
تابع النبيل الشيخ قائلا « المنادى ووغلف ينظران بحسد الى
بيولف . وهما يستمان الجو بالهمس الدائم فى اذن الملك . اننى
انما اخبرك بكل هذا لكى تخبر الاخرين لكى يكونوا على حذر ، فهى
قضية تناسب زواحف الخوف القاتلة » ثم أعلن ان جروحي كانت
بسيطة وغادرنى .

ثم عاد النبيل الى مرة اخرى وقال « ان صديق وغلف هو رائفر »
ثم ابتعد ثانية دون ان ينظر الى مرة اخرى .
وبجد كبير رحت احفر واعمل فى بناء التحصينات حتى وجدت
نفسى قرب هرغر ، كان مزاج هرغر ما زال كئيبا كما كان فى اليوم
السابق . حياتى بهذه الكلمات : « لا اريد ان اسمع أسئلة مجنون » .
قلت له انه ليس لدى اية أسئلة اطرحها ، ثم حدثته بما اخبرتنى
به النبيل الشيخ ، واضفت قائلا بانها قضية ثلاثم زواحف الخوف
القاتلة (1) وعندما انتهيت حديثى عبس هرغر واقسم اقلظ الايمان

(1) ٧ يصف ابن فضلان زواحف الخوف الاسطورية هذه Baslisk
مفترضا كما يبدو ان قراءه يعرفون هذا المخلوق الاسطورى ، والذي يظهر فى المعتقدات
الاولى لكل الثقافات الغربية تقريبا . والباسلسك او زاحف الخوف ، والمعروف ايضا
باسم كوكاتريس Cokatrice هو عادة نوع من الديكة له ذنب افسى وثيالية
ارجل . يحمل أحيانا سلما بدل الريش . وما هو صحيح دائما عن الباسلسك او
زاحف الخوف هو ان نظرتهم قاتلة ، كمنظرة الكورغون . كما ان سمه مميت قاتل وطبقا
لبعض الحكايات فان أى شخص يلمس زاحف الخوف هذا يستطعم أى يرى السم وهو
يصعد سلفه ثم يدخل فى يده . وسيكون هذا الانسان مرغما فيما بعد على ان يقطع
يده ذاتها لينقل حسنه .

ربما كان شعور الخوف والخطر هذا من زاحف الخوف هو الذى يثير ذكره هنا .
فالنبل الشيخ يخبر ابن فضلان بما معناه ان محابه مباشرة مع مسبب الاضطرابات
لن تحل المشكلة . ومن الممتع حقا ان نعلم ان احدى طرق التخلص من زاحف الخوف
كانت فى تركه يرى خياله المعكوس فى مرآة ، فقد كان عندما يقتل بنظرته ذاتها .

وهو يضرب الارض بقدمه ثم طلب الى ان ارافقه الى بيولف .
كان بيولف يوجه سير العمل على الخندق فى الجانب الآخر عن
المعسكر . تنحى هرغر به جانبا وحدثه بسرعة بلسان اهل الشمال
مع اشـارات تـكررت باتجاهى انا . عـبس بيولف بدوره واقسم
الإيمان وضرب الارض برجله كما فعل هرغر ، ثم سأل سؤالا . هنا
سألنى هرغر قائلا « ان بيولف يسأل من هو صديق وغلف ؟ هل
اخبرك الشيخ من هو صديق وغلف ؟ » .

أجبت بأنه قد فعل وان هذا الصديق اسمه رنفر . عند سماعهما
هذا الخبر استأنف بيولف وهرغر حديثهما وتجادلا لمدة قصيرة
ثم ابتعد بيولف بعد أن تركنى مع هرغر . قال هرغر « لقد بت فى
الامر » .

وسألت « وما الذى تقرر ؟ » اجاب هرغر « ابق على اسنانك
مطبقة » وهو تعبير شمالى يعنى انه لا يجوز ان اتكلم .

وهكذا عدت الى عملى دون ان أفهم شيئا عن هذه القضية اكثر
مما كنت اعرف من قبل . ومرة اخرى صرت اشعر بأن هؤلاء
الشماليين هم اكثر الناس شذوذا وتناقضا على سطح البسيطة ،
اذ انهم لا يتصرفون حول اية قضية من القضايا كما يتوقع من اناس
عاقليين ان يفعلوا . ومع ذلك استمررت بالعمل فى تحصيناتهم
السخيفة وفى خندقهم الضحل ، ورحت اراقب وانتظر .

بعد صلاة عصر ذلك اليوم لاحظت بأن هرغر قد اتخذ موقعا
للعمل قريبا من شاب ضخـم قوى . وراح هرغر وهذا الشاب يعملان
جنباً الى جنب فى الحفرة لبعض الوقت . وقد بدا لطريقتى فى
رؤية الاشياء انه هرغر كان يحاول جاهدا ان يقذف الغبار فى وجه
ذلك الشاب الذى كان فى الواقع اطول بحجم راس كامل من هرغر
كما كان اصغر سنا ايضا .

احتج الشاب واعتذر هرغر ، الا انه سرعان ما عاد يقذف
الغبار فى وجهه مرة اخرى . ومرة اخرى اعتذر هرغر ، إلا ان
الشاب غضب الان واصطبغ وجهه بالحمرة من الغضب . لم يمض
سوى وقت قصير حتى عاود هرغر قذف الغبار ، فانتفض الشاب
وبصق الغبار والتراب بغضب شديد . وصاح فى وجه هرغر
بكلمات اخبرنى هرغر بها فيما بعد رغم ان المعانى كانت واضحة بما
فيه الكفاية منذ البدء .

الفصل التاسع عشر

قال الشاب « أنت تحفر كالكلب » .

اجاب هرغر قائلا : « او تدعوني كلبا؟ » على هذا اجاب الشاب قائلا: « كلا انما اقول بانك تحفر كالكلب وانت تنفض الفبار بلا انتباه كالحيوان تماما » . وقال هرغر : « او تدعوني اذن حيوانا ؟ » فأجاب الشاب « انت تخطيء فهم كلمائى » . وهنا قال هرغر « هذا صحيح فان كلمائك ملتوية محدودة كامرأة شمطاء هزيلة » . صاح الشاب وهو يستل سيفه « هذه المرأة ستديقك طعم الموت » . وهنا استل هرغر سيفه ايضا ، فلم يكن ذلك الشاب الا زنفر نفسه ، صديق وغلف . وهنا وعلى هذا الشكل رايت نيات بيولف وقصده في هذه القضية واضحة تماما .

هؤلاء الشماليون شديدا الحساسة فيما يتعلق بكرامتهم وتجري فيما بينهم مبارزات عديدة بعدد مرات تبولهم ، كما ان معركة حتى الموت بهذا الصدد تعتبر امرا عاديا . وقد تقع هذه المعركة في موقع الاهانة ، اما ان كان لا بد من المنازلة بشكل رسمى فان المبارزين يلتقون عند ملتقى طرق ثلاث . وعلى هذا النحو تحدى زنفر هرغر لمبارزته .

وعادة الشماليين في هذا المجال تجرى على النحو التالى : فى الوقت المحدد يتجمع اصدقاء واقارب المبارزين فى موقع المعركة ويقومون حفره سريه على الارض مغطاة بالجلد ، ويشتون هذا الجلد بواسطة اربعة اعمدة من الفار . ويجب ان تجرى المعركة فوق هذا الجلد بحيث يضع كل من المبارزين قدما او قدمين على الجلد طيلة الوقت وبهذا الشكل يبقى المتخاصمين قريبين من بعضهما طيلة الوقت . ثم يصل المتحاربان ومع كل منهما سيف وثلاثة تروس ، فان انكسرت التروس الثلاثة وجب عليه ان يحارب بلا حماية وتستمر المعركة حتى الموت .

هكذا كانت القوانين كما رتلها الحيزيون الشمطاء ، اى ملاك الموت فى موقع الجلد الممدود ، بينما كل جماعة بيولف واهل مملكة روث غار متجمعون حول المكان . وكنت انا هناك ايضا ولكننى لم

أكن قريبا جدا من المقدمة . ولقد تعجبت كثيرا كيف يستطيع هؤلاء الناس أن ينسوا خطر الكورغن الدايم والذي كان قد أربهم قبل ذلك الى حد الجزع . أما الان فلم يكن أى منهم يهتم بأى شئ على الاطلاق سوى المبارزة .

وقد جرى النزال بين رنفر وهرغر على النحو التالى . ضرب هرغر ضربته الاولى فقد كان هو المتحدى ، ورن صوت سيفه هائلا مرعبا وقويا على ترس رنفر . انا شخصا كنت خائفا على هرغر لان ذلك الشاب كان اضخم بكثير واغوى منه ، وفى الحقيقة قصمت ضربة رنفر الاولى ترس هرغر من عند القبض ، فطلب هرغر ترسه الثانى . ثم استؤنفت المعركة مرة اخرى وبوحشية شديدة . نظرت مرة اخرى الى بيولف فلم ازى على ملامح وجه أى تعبير على الاطلاق ، ثم نظرت الى وغلف والمنادى على الجانب المقابل اللذين كانا ينظران بين حين وآخر الى بيولف بينما المعركة محتدمة .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدا حال هرغر يائسا ياسا ما بعده هرغر شديد التعب والارهاق وقد علا وجهه الاخر العرق والجهد ، بينما بدا الشاب رنفر مرتاحا هادئا وهو يقاتل بجهد بسيط .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدا حال هرغر يائسا ياسا ما بعده ياس ، او هكذا بدا لى للحظة عابرة . وقف هرغر وقدماه جامدتان على الارض وانحنى وهو يلهث مرهقا تعباً الى ابعد حدود التعب وهنا اختار رنفر هذه اللحظة ليطبق عليه . وفى لمح البصر تنحنى هرغر جانبا وكأنه رعشة جناح طير فانقرز سيف رنفر الشاب فى هواء الفراغ . وهنارمى هرغر سيفه من يد الى اخرى ، فهؤلاء الشماليون يستطيعون أن يقاتلوا قتالا رائعا بكلتا اليدين وبنفس القوة . وبسرعة فائقة استدار هرغر وقطع رأس رنفر من مؤخرته بضربة واحدة من سيفه .

ولقد رأيت بعينى الدم يتدفق من عنق رنفر بينما الرأس يطير فى الهواء ويقع بين حشد الناس ، ثم رأيت بعينى الرأس يصطدم بالارض قبل أن يصطدم الجسد ايضا بالارض . هنا تنحنى هرغر جانبا وعندها فقط أدركت ان المعركة لم تكن الا مهزلة ، فقد أتوقف هرغر عن اللهاث والتنفخ والتعب ووقوف دون اشارة اجهاد ودون

ان يرتفع صوته وينخفض من اللهاث وكان يحمل سيفه بخفة ويبدو وكأنه قادر على ان يقتل عشرة رجال آخرين من نفس النوع . ثم نظر الى وغلغ وقال « كرم صديقك » وهو يقصد ان يعنى وغلغ بأمر الدفن .

وبينما كنا نغادر موقع النزال قال لى هرغر انه كان يتصرف بجذ ودهاء لكى يعرف وغلغ ان رجال بيولف لم يكونوا فقط محاربين اقويا شجعانا ولكن مقاتلين دهاء ايضا . « سيزيد هذا من خوفه ولن يتجرا ان يقول شيئا ضدنا » . كان هذا آخر ما قاله هرغر فى ذلك الوقت .

ولقد شككت فى ان تعطى خطته هذا الاثر ، ولكن الحقيقة ان الشماليين يمتدحون المكر والدهاء وينظرون اليه باكبار اكثر مما ينظر اليه اكثر مقاتلى الهازار خداعا ومكرا ، بل اكثر من اكثر تجار البحرين كدبا والدين يشكل الدهاء بالنسبة اليهم نوعا من انواع الفن . فالذكاء فى المعركة والامور الرجولية تعتبر فضيلة اكبر من القوة المجردة فى عالم المقاتلين .

الا انه رغم ذلك كله لم يكن هرغر سعيدا ، كما انى لاحظت ان بيولف لم يكن سعيدا ايضا . وبينما كان المساء يقترب بدأت بواد الضباب تتجمع فوق التلال العالية . لقد اعتقدت انهم كانوا يفكرون برنفر الميت والذى كان شابا فتيا قويا شجاعا والذى كان من الممد ان يكون ذا فائدة عظيمة فى المعركة القادمة . لكن هرغر قال لى معلقا على ذلك : « ان الرجل الميت ليس مصدر نفع او فائدة لاي انسان » .

الفصل العشرون

هجوم تين « الكورغن المضى »

مع هبوط الظلام راح الضباب يزحف من على التلال ويلتف كالاصابع حول الاشجار وفوق الحقول الخضراء باتجاه قاعة هاروت ومحاربى بيولف الذين كانوا بانتظار الضباب . هنا حصل ارجاء

فى العمل ، فمن تبع ماء عذب حول الماء باتجاه الخندق وعندما فهمت مجمل الخطة ، اذ ان الماء اخفى العصي كما اخفى الحفر العميقة ، مما جعل الخندق شركا خادما لاي غاز .

واضافة الى هذا فان نساء روث غار رحن ينقلن قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز من البئر ويفمرن السياج بمائها والمنازل وكل سطوح قاعة هاروت . وكذلك ايضا راح محاربو بيولف يصيون الماء على اجسادهم وثيابهم واسلحتهم من ماء النهر . وكان الليل رطبا باردا ، ولاعتقاد بان هذا كان طقسا من طقوسهم الوثنية اعتذرت عن ممارسته او قبوله ولكن عيضا : فقد غمرني هرغرر بالماء كالاخرين من قمة راسي حتى قدمي . فوقفت والماء يقطر من جسمي وانا ارتجف حتى انى فى الحقيقة صرخت لصدمة الماء البارد وطالبت بان اعرف السبب . فكان جواب هرغرر « ان تنين ضوء الليل ينفث النار » .

ثم قدم لى كاسا من شراب الميد ليخفف من شعورى بالبرد فشربته جرعة واحدة وكنت سعيدا به . كان الليل مظلما هالك الظلمة وكان محاربو بيولف ينتظرون وصول التنين « كورغن » . كانت كل العيون تنظر باتجاه التلال وقد غابت فى ضباب الليل . الا بيولف نفسه الذى راح يقطع محيط التحصينات جيئة وذهابا وهو يحمل سيفه العظيم زندنغ ويتمم بكلمات التشجيع التى كان يوجهها بصوت منخفض الى محاربيه . كانوا جميعا ينتظرون بهدوء باستثناء واحد منهم وهو الضابط اكثفو . واكثفو هذا هو معلم فى استعمال فأس اليد ، وقد اقام عمودا قويا من الخشب على مسافة قريبة منه . وراح يتدرب على رمى بلطة اليد هذه على العمود الخشبي مرات ومرات . وفى الحقيقة قدمت اليه كثير من البلطات او فتوس اليد حتى انى عددت خمسا او ستا كانت مربوطة الى حزامه العريض وكانت هناك بلطات اخرى فى يديه وكثير منها منشور على الارض حوله .

وكان هرغرر يتدرب على قوسه وحسامه بنفس الطريقة ، وكذلك كان يفعل سكلد ، لان هؤلاء الثلاثة كانوا اكثر الرماة مهارة بين المحاربين الشماليين . كانت سهام الشماليين مزودة برعوس

حديدية . وهي ممتازة الصناعة قناها مستقيمة كحبل مشدود .
وفي كل قرية أو معسكر لهم هناك رجل غالبا مايكون كسيحا او
اعرجا يسمى صانع السلاح يفضل السهام واقواسها ايضا لمحاربي
منطقته ويدفع له مقابل هذه الحسنات ذهباً او صدفاً او وكما رأيت
بأم عيني طعاما ولحما(١) .

واقواس الشماليين تكاد تكون بطول اجسادهم ومصنوعة من
قضبان شجر البتولا . اما اسلوب اطلاق السهام فهو كالتالي تشد
قناة السهم حتى الاذن وليس حتى العين ومن هناك تترك لتنتقل ،
وهي قوية لدرجة ان هذه القناة قد تمر بسهولة مخترقة جسم
الانسان من طرف الى اخر دون ان تستقر فيه ، كما تستطيع هذه
القناة ان تخترق ضفيحة من الخشب بسماكة قبضة يد الانسان .
ولقد رأيت بعيني مثل هذه القوة في سهم ، حتى اني حاولت ان اتقلد
واستمجّل احد اقواسهم ، ولكن عبثا لانه كان اطول واعصى من ان
استطيع تدبير امره . والشماليون ايضا مهرة في كل فنون الحرب
والقتل بأسلحتهم المختلفة التي يعتزون بها ايما اعتزاز . وهم
يتحدثون عن اتساق الحرب ؛ والذي لا يعني شيئا ابدا كترتيب
الجنود مثلا لانه كل قتالهم ومعاركهم هي قتال رجل لآخر يكون
عدوه . اما خطأ القتال فيختلفان باختلاف السلاح المستعمل .
فبالنسبة للسيوف العريضة التي يلوح بها دائما على شكل قوس ولا
تستعمل ابدا في الطعن فهم يقولون عنها : « هذا السيف يبحث عن
خط الانفاس » والذي يعني بالنسبة اليهم العنق وبالتالي تعنى هذه
الجملة قطع الرءوس عن الاجساد . اما بالنسبة للرمح والسهم
والبلطة والخنجر وادوات الطعن الاخرى فانهم يقولون عنها : « هذه

(١) واضح ان هذا المقطع هو مصدر التعليق الذي نشره عام ١٨٦٩ العالم الاب نويل
هارلي ، والذي يقول فيه : انه بين الفايكنج البرابرة كانت القيم الاخيلية معكوسة
مقلوبة الى حد من التضاد كانت تبدو معه مفاهيم الصدقات على انها واجبات او صدقات
تدفع لصانعي الاسلحة ، وقد تجاوز تأكيد هارلي الفيكتوري حدود معرفته اللغوية .
فالكلية الشمالية Alm وهي تعنى Elm ، وهو الخشب الطرى
الذي يصنع منه الاسكندنافيون اقواسهم ورمحهم ، وبعض الصدفة كان لهذه الكلمة
معنى في اللغة الانجليزية ايضا . فالكلية الانجليزية Alms والتي تعنى
الهبات الخيرية هي كلمة يعتقد عادة بانها مشتقة من الكلمة اليونانية Eleos
ومعناها يشفق على .

الاسلحة تبحث عن الخط الدم . (١) بهذه الكلمات هم يقصدون الجزء المركزي من الجسد بدءا من الرأس وحتى الاربية أو أصل الفخذ فالجرح في هذا الخط المركزي يعنى بالنسبة اليهم الموت المحقق لعدددهم . ويعتقدون أيضا انه من الاولى أن تطعن المعدة لظراوتها من أن يطعن الصدر أو الرأس .

وفي الحقيقة استمر بيولف وجماعته بالمراقبة اليقظة طيلة تلك الليلة ، وكنت أنا بين الساهرين . ولقد عانيت الكثير من التعب والاجهاد وفي هذا النفي وسرعان ما شعرت بتعب شديد كما لو أنني خضت معركة حامية ، الا أن معركة من هذا النوع لم تقع أبدا . أما الشماليون فلم يكوّنوا متعبين ولكنهم كانوا متأهبين مستعدين في كل لحظة . صحيح أنهم أعظم الناس حيوية ويقظة على سطح البسيطة دائمو الاستعداد لاية معركة أو خطر داهم ، كما أنهم

(١) **Linea Adeaps** : تعنى حرفيا - الخط أو الخيط الدم - مع أن الحكمة التشريحية في هذا المقطع لم يشك فيها يوما جندي خلال الالف سنة التي مضت على هذا الكلام - لان خط الوسط في الجسم هو المكان الذي تتجمع فيه أكثر الاعصاب والاورية حيوية في كل الجسم - فان الاشتقاق الدقيق لهذا التعبير كان غامضا . وفي هذا المجال من المفيد أن نبين أن احدى السير الايسلندية تتحدث عن محارب مجروح عام ١٠٣٠ م يسحب سهما من صدره ويرى قطعا من لحمه معلقة على رأسه . عندما يقول انه ما زال لديه بعض الدم أو الدهن حول قلبه . ويتفق معظم العلماء على أن هذا تعليق ساخر من المحارب الذي كان يدرك تماما أنه كان قد جرح جرحا قاتلا ، وهو ما يعطينا حسا تشريحيًا رائعا .

في عام ١٨٧٤ أشار المؤرخ الامريكى روبرت ميلر الى هذه الفقرة من مخطوطة ابن فضلان حين قال ، « رغم أن الفاكنج ، هم محاربون قساة فان اطلاقهم على المعلوم التشريحية ضئيل محدود . فقد كان يطلب من محاربيهم أن يبحثوا عن خط الوسط العمودي في جسم الخصم ، ولكنهم عندما كانوا يفعلون ذلك بالضبط كانوا يخطئون القلب الذي موضعه في يسار الصدر » .

وحقيقة القول أن ضالة المرؤة والاطلاع هي من صفات ميلر . نفسه لا من صفات الفاكنج . . فعلى امتداد مئات السنين العديدة الماضية كان الضرييون العاديون يعتقدون دائما بأن موقع القلب هو على يسار الصدر ، والامريكويون يضعون أيديهم على قلوبهم عندما يقسمون بين الولاء للعلم .

والحقيقة هي أن القلب هو بناء من اينية خط الوسط في الجسد ، وهو البناء الذي يمتد بدرجات متفاوتة الى يسار الصدر ، الا أن جرحا في خط الوسط في الصدر لا يبد وأن يخرق القلب دائما .

لايشعرون بالتعب ابدا من استمرارية هذا الوضع والذي هو امر طبيعى بالنسبة لهم منذ ولادتهم . فهم فى كل الاوقات متنبهون يقظون .

بعد مرور بعض الوقت غفوت ولكن سرعان ما احسست بهرغر يوقظنى بعنف : شعرت بهزة شديدة وبصغير قرب راسى ، وعندما فتحت عينى رايت سهما يهتز ويصطدم بالخشب على مسافة عرض شعرة من انفى . كان هذا سهما اطلقه هرغر الذى راح هو والاخرون يضحكون طربا لحالة الهلع التى اصابتنى . ثم قال لى « اذا نمت فستتغيب عن المعركة . » فقلت مجيبا بان هذا لن يكون مأساة كبيرة طبقا لطريقة تفكيرى .

استعاد هرغر رمحه وحين رآى اننى كنت غاضبا لمزاحه الخشن جلس بجانبى وراح يحدثنى بطريقة ودية صادقة . وقد كان هرغر هذه الليلة ذا مزاج واضح الرغبة للتكيت والضحك والسخرية . شاطرنى قدحا من شراب الميد ثم حدثنى قائلا « ان سكلد مسحور » ثم ضحك لهذا طويلا .

لم يكن سكلد بعيدا عنا فناداه هرغر بصوت عال وعندها ادركت انه كان يفترض بسكلد ان يكون قد سمع ماقلناه عنه ، الا ان هرغر حدثنى باللاتينية التى لم يكن سكلد يفهمها ، لهذا ربما كان هناك سبب اخر لم اكن اعرفه . فى هذه المرة راح سكلد يبرى رءوس سهامه منتظرا المعركة . وهنا سألت هرغر : « وكيف هو مسحور ؟ » فقال هرغر مجيبا « ان لم يكن مسحورا فانه ربما بدأ ينقلب عربيا ، لانه بدأ يغسل ثيابه الداخلية ويفسل جسده كل يوم الم تلاحظ هذا بنفسك ؟ » اجبت باننى لم الاحظ ذلك فيه . فقال هرغر وقد غرق فى ضحكة طويلة « ان سكلد انما يفعل ذلك من اجل هذه المرأة الحرة او تلك التى قد ملكت عليه ليه وفؤاده . فمن اجلها يغتسل بالماء كل يوم ويتصرف كأحمق خجول رقيق ، الم تلاحظ كل ذلك ؟ » ومرة اخرى اجبت باننى لم احظ مثل ذلك ، فسألنى هرغر بحدة « اذن ما الذى تراه بدلا من ذلك ؟ » ثم ضحك كثيرا اعجابا بنباهته الشخصية ، وهو اعجاب لم اكن اشاركه فيه ولا حتى تظاهرت بذلك لاننى لم اكن فى مزاج يدفعنى الى الضحك ابدا وهنا قال هرغر ،

« أنتم العرب شديدو القسوة والصرامة . وأنتم تهمهمون شاكين طيلة الوقت . وليس هناك من شيء في نظركم يثير الضحك ؟ » .

هنا قلت له بأنه يخطيء الظن . فتحدثاني ان اقض عليه قصة مرة . حدثته بقصة الموعظة التي القاها ذلك الواعظ الشهير . انتم بالطبع تعرفون هذه القصة جيدا . فهي تتحدث عن واعظ شهير يقف على منبر الجامع وقد تحلق حوله الرجال والنساء ليسمعوا كلماته الكريمة . في هذه الاثناء يقوم رجل اسمه حميد بارتداء ملابس امرأة ويضع على وجهه وشاحا ويجلس بين النساء . يقول الواعظ المشهور : « طبقا للاسلام ، يستحسن الا يدع رجل أو امرأة شعر العانة ينمو طويلا جدا . » فيسأل احدهم : « ومتى يصبح طويلا جدا ايها الواعظ ؟ » - الكل يعرف هذه القصة طبعا فهي نكتة قليلة الحياء - يجيب الواعظ « لا يجوز ان يطول الى ما هو اطول من سنبله شعير . » وهنا يسأل حميد المرأة الجالسة بجانبه : « اختاه أرجوك ان تفحصي شعر عانتى وتخبريني ان كان اطول من سنبله شعير . » وتمد المرأة يدها تحت رداء حميد لتتحسس شعر العانة عندما تصطدم يدها بعضوه فتطلق صيحة وهي في حالة ذهول . ويسمع الواعظ هذه الصيحة فيسر كثيرا ويتجه الى الحضور قائلا : « يجب عليكم جميعا ان تتعلموا اصول الاصفاء الى موعظة كما تفعل هذه السيدة ، فانكم ترون بانفسكم كم مست شفاف قلبها . » وهنا تصبح المرأة مجيبة ومازالت الصدمة تهزها : « انه لم يمس شففى قلبى ايها الواعظ انما مست يدي . »

الفصل الحادى والعشرون

اصفى هرغر لقصتى بلامح محايدة تماما . ولم يضحك حتى ولم يبتسم . وبعد ان انهيت حديثى سألنى ببلاهة ظاهرة « ماذا تقصد بالواعظ ؟ » عندها اجبته بأنه شمالي غبى لم يكن يعرف شيئا عن مدى اتساع هذا الكون وهذا العالم . فضحك لتأنيبى هذا ضحكا شديدا بينما لم تضحكه ولا مرة واحدة قصتى الخيالية .

وفى هذه اللحظة اطلق سكلد صيحة التفت بعدها كل محاربى

بيولف وأنا بينهم لينظروا باتجاه التلال فيما وراء طبقات الضباب .
وهاكم مارايت : على ارتفاع كبير في الهواء رأيت نقطة ضوء نارية
متوهجة وكأنها نجمة متألقة وعلى بعد كبير منا . ولقد رآها المحاربون
جميعا ، فحدث بينهم لفظ واستغراب وتعجب .

وسرعان ما ظهرت نقطة اضاءة اخرى ثم ثانية ثم ثالثة عدت
اكثر من عشرة ثم توقفت عن العد ، فقد بدت هذه النقاط المضيئة
وكانها في نسق كانت تتلوى كالافعى او كجسد التنين المتلوى .

« تهيا الان » قال هرغر لى مضييفا القول الشمالى الماثور : « اتمنى
لك حظا جيدا في المعركة القادمة . » رددت له امنيته هذه بأفضل
منها ثم ابتعد عنى .

كانت نقط النار المضيئة مازالت بعيدة ولكنها كانت تقترب شيئا
فشيئا . في هذه اللحظة سمعت صوتا ظننته الرعد . كان هذا
رنين دممة عميقة كانت تملأ الهواء العابق بالضباب كما تفعل كل
الاصوات في الضباب . فمن المعلوم ان همسة انسان في الضباب
يمكن سماعها على بعد مائة خطوة واضحة كما لو كان يهمس في اذنك .

رحت اراقب واصفى في حين شد مقاتلو بيولف قبضاتهم على
اسلحتهم وراحوا يرقبون ويصفون بانتباه شديد ، بينما تنين
الكورغن المضيء راح ينهال علينا متلفعا بالرعد واللهيب .

وشيئا فشيئا كانت كل نقطة مضيئة تتنامى وتكبر حمراء كالحجر
تومض . اما جسد التنين فكان طويلا متالئا ، وهو منظر
مثير لاشد الرعب ، الا اننى مع ذلك لم اشعر بالخوف ، لاننى ادركت
الان ان هؤلاء لم يكونوا سوى خيالة او فرسان يحملون المشاعل ،
وقد ثبت لى ان ذلك كان صحيحا .

وهكذا فسرعان ما برز الخيالة من الضباب هياكل سوداء تحمل
مشاعل مرفوعة فوق خيول سوداء تزفر وتنقض . واحتدمت
المعركة . وسرعان ما امتلا جو الليل باصوات صراخ مرعب وصيحات
الموت لان اول موجة من هجوم الخيالة كانت قد اصطدمت بالخندق
فانقلبت خيول كثيرة وسقطت لاطمة راكبيها بالارض بينما غرقت
المشاعل بالماء . وقد حاولت خيول كثيرة ان تقفز فوق السياج
ولكنها علقبت بنهايات العصي المدبية . وانتشرت النيران في جزء من

هذا السياج . اما المحاربون فقد راخوا يتراکضون في كل اتجاه .
رايت احد هؤلاء الخيالة يقفز بجواد ، فوق القسم الملتهب من
السياج ، وقد تمكنت من رؤية هذا الوندول بوضوح تام ولاول مرة
في حياتي . ولقد رايت مايلي : على ظهر جواد اسود كان يركب شكل
بشرى ملفع بالسواد ، لكن رأسه كان رأس دب . وقد ذهلت لبعض
الوقت عند رؤية هذا المنظر المرعب حقا وخشيت ان اموت من
الرعب وحدي لاني لم ار كابوسا كهذا في حياتي حتى ولا في المنام .
ولكن في نفس تلك اللحظة كانت بلطة اكثغو تنغرز عميقا في ظهر
الفارس الذي انقلب وسقط وبسقوطه تدحرج رأس الدب عن جسده
فرايت عندها انه كان له رأس انسان تحت رأس الدب .

وبسرعة البرق قفز اكثغو فوق المخلوق الساقط وطعنه طعنة
عميقة في صدره ثم قلب الجثة على قفاها واستعاد بلطته من ظهرها
وجرى لينضم الى المعركة ثانية . وانضمت انا الى المعركة ايضا ،
لاني اصبحت بلطمة جعلتني الف وادور على قدمي . كانت لطمة من رمح
اصبح كثير من الخيالة الان في قلب السياج ومشاعلم
متوهجة ، بعضهم كان له رعوس الدببة وبعضهم لم يكن له مثل
تلك الرعوس . وقد تحلقوا في حلقة وحاولوا ان يضرمو النار في
الابنية وفي قاعة هاروت وقد حارب بيولف ورجاله ضد هذه
المحاولة بعنف شديد .

استقرت على قدمي في اللحظة التي انقض فيها احد وحبوش
الضباب على فوق حصانه المندفع . وقفت ثابتا وقد رفعت رمحي
عاليا ، وقد اعتقدت لوهلة بان شدة الضغط سوف تعصرتني ولكن
الرمح مر خلال جسد الفارس فصاح صيحة مرعبة لكنه لم يسقط
عن حصانه بل ظل راكبا . اما انا فقد سقطت على الارض وانا الهث
من الالم الذي كان يقطع معدتي ولكني لم اكن حتى ذلك الحين قد
جرحت جرحا حقيقيا .

وخلال المعركة اطلق هرغر وسكلد سهامهم العديدة وامتلا الجو
بصغيرهم واصابوا اهدافا كثيرة ايضا . ولقد رايت احد سهام سكلد
يخترق عنق الفرسان ليستقر هناك ، ثم رايت مرة ثانية سكلد
وهرغر يطمانان معا احد الفرسان في صدره ثم يعودان بسرعة لسحب

سهامهم من غمدها واطلاقها على نفس هذا الفارس حتى استقرت
أربعة منها في جسده ، بينما صراخه يملأ الجو رعبا وهو يعدو بعيدا
بجواده .

ومع ذلك علمت بأن هذا العمل اعتبر قتالا هزيبا يمارسه هرغر
وسكلد ، لان الشماليين يعتقدون أن لأشياء مقدس في الحيوانات ،
وهكذا فيالنسبة اليهم كان الاستعمال الملائم للسهام ينحصر في قتل
الخيول لايقاع الراكب . وهم يقولون في ذلك : « ان رجلا ساقطا
عن حصانه هو نصف انسان ، وفرص قتله مضاعفة . » وهكذا
يتقدمون دونما ابطاء أو تردد(١) .

ثم اندفع أحد الفرسان في قلب المعسكر وقد انحنى قدر المستطاع
فوق فرسه الاسود المنطلق كالسهم ثم أمسك بجسد الوحش الذي
كان اكثفوق قد قتله ووضع على عنق حصانه وجرى الحصان مبتعدا .
فكما قلت سابقا ، لا يترك وحوش الضباب هؤلاء ايا من قتلهم
ليكتشف في ضوء الصباح .

احتدمت المعركة مدة من الوقت طويلة وعلى ضوء النار المتأججة
في قلب الضباب . وقد رايت هرغر مشتبكا في معركة حياة أو موت
مع أحد هؤلاء الشياطين . فأخذت رمحا جديدا وعرزته في ظهر ذلك
المخلوق ، فرفع هرغر يده الى شاكرا والدماء تقطر منه ثم عاد ليفرق
في حمم المعركة . وهنا شعرت بفخر وزهو عظيمين .

حاولت مقلدا ان استعيد رمحي ولكني وبينما كنت احاول ذلك
اصبت بصدمة من خيال عابر اطاحت بي بعيدا ، واقول الحقيقة
اننى منذ تلك اللحظة لم اعد أتذكر الا القليل . رايت بيت احد
نبلاء روثغار يحترق باللسنة اللهب المتدفقة ، ولكني رايت أن قاعة
هاروت النائمة كانت لاتزال سليمة لم يمسهأ سوء ، فشعرت بسرور
عظيم كما لو كنت أنا شماليا ، وكانت هذه آخر افكار ولدتهسا
مخيلتى .

(١) طبقا للقانون الدينى يعتقد المسلمون بأن « رسول الله قد حرم التسوية في معاملة
الحيوانات » . واطضافة الى ذلك كان العرب يتمتعون بصورة خاصة بتربية وتدريب
الخيول . اما الاسكندنافيين فليس لديهم أى شعور خاص تجاه الحيوانات وقد نوه كل
المراقبين إلعرب تقريبا بانعدام الشعور تجاه الخيول عند الاسكندنافيين .

الفصل الثاني والعشرون

ومع اطلالة الفجر ايقظنى مايشبه غسلا على صفحة وجهى ، وقد سرتنى اللمسة اللطيفة . وسرعان ما ادركت بعدها اننى كنت اتلقى عناية كلب لاعق ، وكم شعرت عندها بشعور الاحمق السكران ، ثم اصابنى رعب شديد لا اشك بانكم تستطيعون تصوره (١) . وجدت نفسى ملقى فى الخندق حيث كان الماء احمر كالدم . نهضت ومشيت عبر المعسكر العابق بالدخان وبما لا يوصف من الموت والدمار . رايت الارض نفسها مشبعة بالدماء كما تكون مشبعة بالامطار وقد تكونت فوقها برك من الدماء كثيرة . رايت اجساد النبلاء المقتولين ونساء واطفالا موتى ايضا . كما رايت ثلاثة أو أربعة اجساد وقد احترقت فى النيران حتى تفحمت . كانت كل هذه الاجساد منثورة فى كل مكان على الارض وكنت مجبرا على ان ابقى

(١) كان معظم المترجمين الاوائل لمخطوطة ابن فضلان من المسحيين الذين لم يكونوا يملكون اية معرفة بالثقافة العربية ، وكانت ترجمتهم لهذا المقطع غالبا ما تعكس جهلهم ففى ترجمة مسترسلة يقول الايطالى لاسيلا (١٨٤٧) « فى الصباح استيقظت من غفوتى السكرانة وكاننى كلب مشرد ، وكم شعرت بالخجل لحالتى هذه » . ويستنتج سكوف مانده فى تعليق له عام ١٩١٩ ويقول انه « لا يستطيع اى انسان ان يضع ثقته او يصدق قصص ابن فضلان ، لانه كان سكرانا مخمورا اثناء المعارك ، وهو يعترف بذلك » ، وبلطف اكثر قليلا من ذلك يقول دوشاتلبيه وهو مختص موثوق به بتاريخ الفاكينج ، يقول فى تعليق له عام ١٩٠٨ : « وسرعان ما اكتسب العرب تشوفا السكر من المعارك ، وهو جوهر روح البطولة الشمالية والنورسية » .

انا مدين لمسعود فرزان العالم الصوفى بتفسير الاشارة أو التلميح التى يقدمها ابن فضلان هنا . وهو فى الواقع يقارن نفسه هنا بشخصية احدى النكات العربية القديمة جدا : يسقط رجل مخمور فى بركة على جانب الطسريق . يمر كلب ويبدأ بلحس وجهه ، فيظن المخمور ان شخصا لطيفا ينظف له وجهه فيقول بامتنان ، « ليجمل الله اطفالك مطيعين لك » . عندها يرفع الكلب رجله الخلفية ويبول على السكران ، الذى يقول ردا على ذلك « وليباركك الله يا اخى لانك آتيت بالماء العافى لفسل وجهى » .

فى اللغة العربية تحمل هذه النكتة مضامين مالوفة ضد السكر والتذكير الذكى بان المشروب ما هو الا خمرة وقذارة كالبول تماما .

ربما كان ابن فضلان يتوقع من قارئه ان يدرك ليس انه كان مخمورا ابدا ولكن انه لحسن الحظ استطاع ان يتحاشى ان يبول عليه كلب كما استطاع فى وقت سابق ان يتحاشى الموت فى المعركة : انها بتعبير آخر اشارة الى نجاة اخرى من خطر داهم محقق .

نظري مثبتا على الارض ثلثا ادوس على اى منهم فقد كان القتلى
كثيرين ومنتشرين بغزارة في كل مكان .

اما عن منشآت الدفاع فقد احترق ضياج العواميد كله تقريبا .
وفي اقسام اخرى منه كانت الخيول تتولى معلقة باردة ، والمشاعل
منشورة هنا وهناك . لكننى لم ار ايا من مقاتلى بيولف .

لم تكن تاتى اية صيحات او نحيب من مملكة روثغار ، فاهل
الشمال لا يندبون موتاهم ابدا ، ولكنهم على العكس كان يسود الجو
هدوء غير عادى . سمعت صياح ديك ثم نباح كلب ولكننى لم اسمع
اى صوت انساني مع انبلاج الصبح .

ثم دخلت قاعة هاروت الكبرى ، فوجدت جسدين ممددين على
اغصان نبات السمار وقد وضعت خوداتهم فوق صدورهم . كان
هناك سكلد وهو احد نبلاء بيولف ، ثم هلثوين الذى كان قد جرح
سابقا اما الان فكان باردا شاحبا . كان كلاهما ميتين ، ثم كان هناك
رثل وهو اصغر المحاربين سنا ، وقد جلس منتصبا فى احدى
الزوايا بينما كانت تعنى بجراحه عدد من الجوارى . كان رثل قد
جرح سابقا ولكنه كان الان يعانى من جرح جديد فى معدته
والدماء تنهمر منه بغزارة وكان واضحا ان ذلك كان يؤلمه الى حد
كبير ومع ذلك لم يبدا الا الابتسامة والحبور ، وكان يبتسم دائما
ويعاكس الجوارى بقرصه اثناءهن وافخاذهن ، وكن غالبا ما يوبخنه
لانه كان يسبب لهن الالتناء وتشتت الدهن بينما كن يحساولن
تضميد جراحه .

واليكم طريقة معالجة الجراح طبقا لعاداتهم وطباعهم . ان كان
جرح المحارب بليغا سواء فى ساعده او فى ساقه فقد كانت تربط
حول هذا الطرف او ذاك دعامة ، ثم توضع قطع من القماش المقلى
بالماء فوق الجرح لتغطيته . كما قيل لى بان نسيج المنكبوت وقطعا
من صوف الحمل قد توضع فى الجرح ليتخثر الدم ويتوقف تدفقه .
ولكننى لم ار مثل هذا ابدا .

اما ان جرح المقاتل فى راسه او فى عنقه فكان الجرح يغسل
حتى ينظف ثم تفحصه الجوارى . فان كان الجلد ممزقا ولكن العظم
سليم يسمون مثل هذا الجرح ، « جرحا لا اهمية له . » ولكن ان

كانت العظام محطمة او مكسورة بشكل او باخر فانهم يقولون ،
« ان حياته تنطلق من جسده وسرعان ماستهرب . »

اما ان جرح المقاتل في صدره فانهم يتحسسون يديه وقدميه .
فان كانت هذه دائنة قالوا عن مثل هذا الجرح . « انه لا اهمية
له . » اما ان كان هذا المقاتل يسعل ويتقيأ دما ، قالوا « انه ينطق
دماء » ، ويعتبرون ذلك خطيرا جدا . وقد يموت الرجل من مرض
النطق بالدم ، وقد لا يموت حسب قدره .

اما ان جرح المحارب في بطنه ، فانهم يقدمون له حساء من البصل
والاعشاب ، ثم تبدأ النساء بتشتم ماحول جرحه ، فان هن شمن
رائحة البصل قلن « انه مصاب بمرض الحساء » ويعرفن عندها
انه سيموت .

ولقد رايت النساء بام عينى وهن يحضرن حساء البصل لرثل الذى
شرب كمية منه ، ثم راحت الجوارى يتشمن جراحه ، وشمن
رائحة البصل . عندها ضحك رثل وقام بالقاء نكتة مضحكة للغاية
ثم طلب شراب الميد الذى احضر له . وطيلة ذلك الوقت لم يظهر
اى اثر للخوف او المبالاة .

في هذه الاثناء كان القائد بيولف ومحاربوه يعقدون اجتماعا في
مكان آخر من القاعة الكبرى . انضمت اليهم ولكنى لم اتلق اية
تحية منهم . حتى هرغر الذى اتقدت حياته لم يعرنى اى انتباه ،
فقد كان المقاتلون جميعا في حديث جدى خطير . كنت قد تعلمت
بعضا من لغة الشماليين ولكن هذا البعض لم يكن كافيا ليتمكننى من
تتبع كلماتهم السريعة المنخفضة ، وهكذا سرت الى مكان آخر وشربت
بعض الميد وتحسست الام جسدى . ثم جاءت جارية لتغسل لى
جراحى التى كانت عبارة عن قطع او جرح في اعلى فخدى وآخر
في صدرى . هذه الجراح لم اكن اعى وجودها الى ان جاءت هذه
الجارية تعرض خدماتها على .

يفسل الشماليون الجراح بماء المحيط لاعتقادهم بان هذا الماء
يحتوى على قوى شافية اكثر مما يحتويه الماء العذب . وغسل
الجراح بماء البحر ليس ملائما للجراح . وفي الواقع رحت ائن واتالم

من ذلك بينما رثل يضحك ويحدث الجبارية قائلا : « انه مازال
عريبا . » وعندها شعرت بالخجل .

كما يفلس الشماليون الجراح بيول البقر المسخن ولقد رفضت
هذا حين عرض على .

يعتقد الشماليون بأن بول البقر مادة رائحة وهم يخزنونها في أوعية
خشبية وفي الظروف العادية يغلونها حتى تصبح كثيفة ومخرشة
للانوف ثم يستخدمون هذا السائل المقرف للفسيل وخاصة لفسل
التياب البيضاء (1) .

وقد اخبرت أيضا عدة مرات أن الشماليين قد يذهبون في رحلات
بحرية طويلة دون أن يتوفر لهم الماء العذب الكافي . عندها يشرب كل
انسان بوله ، وبهذا الشكل يبقون على قيد الحياة حتى يصلوا شاطئ
الامان . هذا ما قيل لى ولكنى لم أراه أبدا بحمد الله .

والان اقترب هرغر منى بعد أن انتهى مؤتمر المحاربين . اما
الجارية التي كانت تعتن بجروحي فقد جعلت هذه الجراح تحرقنى
حتى طار لى . ومع ذلك فقد كنت مصمما على أن اتحلى بمظهر
أهل الشمال من المرح والحبور . فقلت لهرغر « أية قضية تافهة
ستكون مهمتنا فيما بعد ؟ » نظر هرغر الى جراحي وقال « أنت
تجيد ركوب الخيل . » سألت والهلع يتملكنى عن الوجهة التي
سأركب فيها الخيل وقد فقدت لبرهة من الزمن كل مرعى وحبورى
لانى كنت مرهقا شديدا التعب ولم أكن أملك من القوة شيئا الا
مايكفى للراحة . فقال هرغر « هذا المساء سيعود التنين المضى
لل هجوم ثانية ولكننا الان منهكون مرهقون وقد أصبح عددنا قليلا
جدا ، ودفاعاتنا محروقة مدمرة . سيقتلنا التنين المضى جميعا . »

قال لى هذه الكلمات بهدوء . ولقد رايت ذلك واضحا وقلت
لهرغر : « الى أين اذن سنتجه بخيولنا ؟ » وكنت اعتقد انه بسبب
خسائرهم الفادحة قد يحاول بيولف وجماعته أن يغادروا مملكة
روثغار . لم يعترض على رأيى هذا .

قال لى هرغر : « ان ذئبا يحتمى دائما في وكره لايمكن ان يحصل
على اللحم ، كما أن رجلا نائما لايمكن ان يحصل على النصر . » هذا

(1) البول هو مصدر من مصادر الامونيا (النشادر) وهو مركب منظف ممتاز .

مثل شمالي ومنه ادركت الخطة المغايرة تماما : وهي اننا كنا سنغير على ظهور الخيل ونهاجم وحوش الضباب حيث يختبئون في الجبال او في التلال . وبقلب يملؤه الخوف سألت هرغر عن الوقت الذي سنبدأ فيه هذه المهمة فأجاب باننا سنبدأ عند ظهيرة ذلك اليوم .

في هذه اللحظة رايت طفلا يدخل القاعة وهو يحمل بيديه شيئا من حجر . اخذه هرغر وفحصه بامعان وكان نحتا حجريا آخر بلا رأس لامرأة حبلى مشوه قبيح . اطلق هرغر صيحة غضب ثم اسقط الحجر من يديه المرتجفتين . ثم صاح بالجارية التي اخذت الحجر واقلت به في النار التي جعلته حرارة لهيبها يتحطم ويتناثر قطعاً صغيرة . هذه القطع الصغيرة حملت ورميت فيما بعد في البحر . هذا ما اخبرنى به هرغر .

سألت عن معنى الحجر المنحوت فقال لى : « انها صورة ام آكلة الموتى وهي التي ترأسهم وتوجههم عند الاكل . » وهنا رايت ان بيولف الذي كان واقفا في منتصف القاعة الكبرى كان ينظر الى ذراع احد الشياطين التي كانت مازالت معلقة في خشب السقف . ثم تحول ببصره الى جسدي رفيقه المقتولين ثم الى رثل اللابل ورايت كتفيه تهبطان بياس وذقنه تفرق في صدره . ثم مشى مارا بجانبهما ورايته يرتدى درعه ويأخذ سيفه ويهيب نفسه للمعركة من جديد .

الفصل الثالث والعشرون

صحراء الرعب

طلب بيولف سبعة من الخيول القوية ، وانطلقنا في ضحى ذلك اليوم من قاعة روثغار الكبرى باتجاه السهول المنبسطة الفسيحة ومن هناك توجهنا الى التلال الجائمة خلفها . كان معنا ايضا اربعة من كلاب الصيد البيضاء الناصعة البياض وهي حيوانات عظيمة اميل لان تكون ذئابا من ان تكون كلابا ، وقد كانت ملامحها موحشة

مرعبة . وهذا ماشكل مجمل قواتنا المهاجمة ، وكنت انظر اليها على انها تعبير ضعيف امام خصم بهذه الرهيبية ، ومع ذلك كان الشماليون يضعون املا كبيرا في عنصر المفاجأة وفي هجوم مباغت . وبحسابهم ايضا كانوا يعتبرون كل واحد منهم مساويا لثلاثة او اربعة مقاتلين دفعة واحدة .

لم اكن ميالا للانطلاق بمغامرة اخرى من مغامرات الحرب ، وكم كانت دهشتي عظيمة لان الشماليين لم يكونوا يعكسون مثل هذا الرأي ، لان راى هذا كان ينبع من ارهاق جسدى . وعن هذا قال لى هرغر : « ان الامر كذلك دائما هنا والان وفي عالم الحياة الخالدة » وهو تعبير عن فكرتهم عن السماء والجنة . في هذه الجنة ، والتي هي بالنسبة اليهم قاعة كبيرة ، يتقاتل فيها المحاربون من الفجر حتى الفسق . وأولئك الذين يموتون يعودون فيحيون ليشاركوا جميعا في وليمة كبرى في المساء فيها مالا ينتهى من الطعام والشراب . وما ان يعود ضياء الصبح حتى يعودا للقتال ، والموتى يعودون فيحيون وتكون هناك وليمة وهكذا دواليك . هذه طبيعة الجنة في عالم الخلد عندهم (1) . وهكذا فانهم لايعتبرونه امرا غريبا ان يحتدموا في معارك متواصلة يوما بعد يوم وهم مازالوا على الارض .

تم تقرير وجهتنا بموجب ذيل متواصل من الدمار تركه الخيالة المتقهقرون من الليلة السابقة . كانت الكلاب تقودنا وهي تعدو على طول هذا الاثر من النقاط الحمراء . ولم نتوقف الا مرة واحدة فوق السهل المنبسط وذلك لاستعادة سلاح سقط من احد الشياطين الهارين . هاكم وصفا لهذا السلاح : كان عبارة عن بلطة لهامقبض من نوع من الخشب وشفرة مصنوعة من الحجر المصقول مربوطة الى المقبض بواسطة سير جلدية . اما حد هذا الفأس فكان حادا جدا ، وكانت الشفرة مصممة بمهارة خارقة كما لو كان هذا الحجر حجرا كريما يراد صقله ليرضى خيلاء سيدة غنية . كانت مهارة الصنع

(1) تشير بعض المراجع اللاهوتية الى ان الاسكندنافيين لم يكونوا مبدعى هذه الفكرة عن المعركة الايدية ، ولكن هذه الفكرة هي مفهوم كلتي او سلتى . وبها كانت الحقيقة فمن المعقول والمتطقي جدا أن يكون رفاق ابن فضلان قد تبنا هذا المفهوم ، لان الاسكندنافيين ، كانوا على صلة بالكلتيين لمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما في ذلك الوقت .

بهذا الحد وكان السلاح مخيفا بسبب حدة شفرته . لم اكن قد رأيت في حياتي شيئا من هذا القبيل على سطح الارض . وقد أخبرني هرغر أن الوندول يصنعون كل أدواتهم وأسلحتهم من هذا الحجر ، أو هذا ما كان يعتقدُه الشماليون .

ومع هذا أغزينا السير قدما وبسرعة كبيرة تقودنا الكلاب النابحة التي كان نباحها يسعدني . وبعد وقت طويل وصلنا الى التلال . وتعمقنا داخل التلال دون ابطاء ودون طقوس بينما كان كل محارب من محاربي بيولف عازما على تحقيق قصده ، وكنا جميعا مجموعة من الرجال الصامتة المكفهرة الوجوه . كانوا يحملون علائم الخوف على وجوههم ومع ذلك لم يتوقفوا ولم يترددوا بل أغزوا السير قدما غير مباليين .

كان البرد شديدا فوق التلال وفي غابات الاشجار الخضراء الداكنة . وكانت ريح مثلجة تهب على ثيابنا وكنا نرى انفاس الخيول الصافرة ودفقات النفس البيضاء المنبعثة من الكلاب الجارية ولكننا رغم كل هذا أغزينا السير غير مباليين . وبعد بعض الوقت من السفر والرحيل الذي استمر حتى الظهر وصلنا الى منطقة جديدة . هنا رأينا ثلة أو رابية أو هضبة داكنة أو قل هي ارض قفر شديدة الشبه بالصحراء ، غير انها ليست رملية وليست جافة ولكنها رطبة مستنقعية ، وفوق هذه الارض كانت تفوق طبقات رقيقة من الضباب . ويسمى الشماليون هذه المنطقة صحراء الرعب (1)

ولقد رأيت بأم عيني ان هذا الضباب كان يحل على الارض على شكل جيوب أو تجمعات صغيرة وكأنه سحبيات دقيقة قد وقعت على الارض . كنت تحدد الهواء نقيا في منطقة ما ثم في منطقة أخرى

(1) هي حرفيا « صحراء خوف » في مقال ظهر عام ١٩٢٧ ، كتب جي دجي توم لنسون مبينا أن نفس تلك الجملة تظهر في كتاب **Volsunga Saga** ولذلك فهو يناقش مطولا أن هذا التمييز انما يمثل تميرا أميلا يقصد به الأراضى المحرقة . وواضح أن توم لنسون لم يكن مدركا أن **Volsunga Saga** لم تكن شيئا من هذا القبيل ، كما أن ترجمة وليم مورس التي ظهرت في القرن التاسع عشر تحتوي على السطر أو البيت الذي يقول : هناك صحراء رعب في أقصى اقصى الدنيا . لكن هذا البيت كان من اختراع موريس نفسه ، وهو يظهر في واحد من العديد من المقاطع حيث يضيف ويزيد على هذه السيرة الجرمانية الاصلية .

كنت تجد فقاعات ضبابية صغيرة معلقة قريبا من الارض على ارتفاع
ركبة حصان . وفي مثل هذه الامكنة كنا نضيع اثر الكلاب التي كان
يلفها الضباب . وبعد لحظة من الزمن كان الضباب يتبدد لنجد
انفسنا مرة اخرى في فضاء رحب مكشوف . هكذا كانت معالم
هذه الهضبة .

لقد أعجبتني هذا المنظر كثيرا ولكنه لم يكن يعنى شيئا بالنسبة
للشماليين . قالوا بأن في الارض في هذه المناطق مستنقعات كثيرة
مالحة كريهة كما كان فيها ينابيع حارة دائمة الغليان كثيرة الفقاعات
تخرج من شقوق في الارض . في هذه الاماكن كان يتجمع ضباب
قليل ويبقى هناك طيلة الليل والنهار . وهم يسمون : هذا المكان
بأرض البحيرات البخارية .

والارض هنا صعبة على الخيول لذا أصبح تقدمنا بطيئا . كما
ان تقدم الكلاب أصبح اكثر بطئا . ولاحظت ان نباحها أصبح اقل
قوة . وسرعان ماغيرت جماعتنا سيرها من عدو على ظهور الجياد
وكلاب قافزة أمامها الى مشية بطيئة مع كلاب صامتة تود لو لم تكن
في المقدمة . وبدلا من ذلك بدأت الكلاب تتراجع حتى صارت تحت
حوافر الخيول مسببة لها صعوبة اضافية في السير . كان الهواء
لايزال باردا جدا بل في الواقع اكثر برودة مما كان ، وكنت ترى هنا
وهناك بقعا صغيرة من الثلج على الارض ، مع ان هذا الفصل كان
حسب ادق تقديراتي جزءا من فصل الصيف .

«وببطء شديد تقدمنا مسافة لا بأس بها وكنت اتساءل عن احتمال
ان نضيع دون ان نجد طريق العودة عبر هذه الهضبة . وفجأة وفي
مكان ما توقفت الكلاب . لم يكن هناك أى فرق في طبيعة الارض أو
أى شيء على الارض ، ومع ذلك توقفت الكلاب كما لو كانت قد
وصلت الى سياج أو حاجز لا يمكن تجاوزه . توقفت جماعتنا في هذا
المكان وراحت تنظر في هذا الاتجاه أو ذاك . لم تكن هناك أى ريح
أو أية أصوات ولا حتى صوت طير أو حيوان حتى بل كان هناك
الصمت والصمت العميق .

قال بيولف « هنا تبدأ أرض الوندول » ، بينما راح المحاربون
يربتون على أعناق خيولهم ليخففوا من قلقها لان الخيول نفسها

كانت مضطربة نائرة الاعصاب في هذه المنطقة . كذلك كان الخيالون ايضا . ابقى بيولف شفثيه مطبقتين بينما بدا اكنفو ترتجفان وهو يقبض على اعنة جواده . اما هرغر فقد كان شاحبا كالاموات وعيناه تقفزان بين هذا الاتجاه او ذلك . وكان الاخرون يفعلون الشيء ذاته كل بطريقته .

يقول الشماليون « للخوف فم ابيض » وكنت الان استطيع ان ارى ذلك بوضوح تام ، فقد كانوا جميعا شاحبين حول الشفاه والفم . لكن لم يتحدث اى من الرجال عن خوفه ابدا .

والان تركنا الكلاب خلفنا وتقدمنا بأرض كانت سماكة الجليد تزداد فيها شيئا فشيئا ولو انها كانت في البدء رقيقة تتكسر تحت الاقدام كما كانت كثافة الضباب تتزايد . لم ينطق اى منا بحرف الا حين كان يخاطب حصانه . وعند كل خطوة كنا نخطوها كانت هذه الحيوانات اكثر عنادا في التقدم ، وكان المقاتلون يجدون انفسهم مضطرين لحضها على التقدم بكلمات ناعمة ورفسات حادة . بعد حين بدانا نرى اشكالا كالظلال في الضباب امامنا رحنا نتقدم منها بحذر . رايت مايلى بام عينى : على جانبى الممر وفوق اعمدة قوية علقتم جماجم حيوانات هائلة وافكاكها مفتوحة بوضع هجومى . استمرينا في السير وهنا رايت ان هذه الجماجم كانت لدبية هائلة الحجم يعبدها الوندول . وقد اخبرنى هرغر بان جماجم الدبية تحمى حدود ارض الوندول .

ثم راينا عائقا آخر اقبر بعيدا كبيرا . هنا كانت صخرة هائلة الحجم عالية علو سرج حصان ومنحوتة على شكل امرأة حبلى ومعدتها مندلقة الى الامام وكذلك ثدياها ، دون ان يكون لها رأس او ذراعان او ساقان . كانت الصخرة مغطاة بدماء القرابين ، والحقيقة انها كانت تقطر بسيول من الدم الاحمر وكانت رهيبة المنظر شنيعة .

الفصل الرابع والعشرون

لم يتحدث اى من الرجال عما راى . واستمرينا في التقدم راكبين ، بينما استل المحاربون سيوفهم واشرموها متهينين للقتال . وبهذه

المناسبة هاكم احد مزايا الشماليين : وهى انهم فى حين انهم كانوا يظهرون بعض الخوف فى السابق ولكنهم ما ان دخلوا الى ارض الوندول قريبا من منبع الخوف حتى اختفت كل مظاهر الخوف عندهم . وهكذا كانوا يبدوون وكأنهم يفعلون كل شىء بشكل معكوس وبأسلوب محير لانهم فى الواقع كانوا يبدوون الان مطمئنين . ولكن الخيول وحدها بدت اكثر عنادا فى التقدم الى الامام .

بدات اشم الان رائحة الجثث المتعفنة التى كنت قد شممتها من قبل فى قاعة روثغار الكبرى ، والتى ما ان صدمت انفى من جديد حتى كادت يقمى على وهبط قلبى . اقترب هرغر منى وقال بصوت خفيض « كيف حالك ؟ » . ولانى لم اكن قادرا على اخفاء عواطفى قلت له « اننى خائف . »

اجاب هرغر « ما ذلك الا لانك تفكر فيما سياتى وتتخيل اشياء مرعبة قد توقف الدم فى عروق اى انسان . فلا تفكر فى المستقبل وكن اكثر حبورا بان تعرف انه ما من انسان يعيش ابد الدهر . »

ولقد رايت مدى صدق كلماته فقلت مجيبا « فى مجتمعى نردد قولا ماثورا يقول : اشكروا الله لانه فى حكمته وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها . » ابتسم هرغر لهذا وضحك ضحكة قصيرة ثم قال « فى حال الخوف حتى العربى يقول الحقيقة » ثم عدا بجواده قدما وهو يبتعد عنى لينقل كلماتى الى بيولف الذى ضحك بدوره . وكم سر محاربنى بيولف ان يستمعوا الى نكتة فى هذه الظروف . بعدها وصلنا الى تلة ما ان وصلنا الى طرفها حتى توقفنا ورحنا ننظر الى معسكر الوندول تحتها . هاكم وصفا لامتداده امامنا كما رايت به بعينى : كان هناك واد وكان فى الوادى دائرة من الاكواخ الحقيرة المصنوعة من القش والطين ، هزيلة البناء يستطيع طفل صغير ان يبني افضل منها . وفى مركز الدائرة كانت نار كبيرة تشتعل وقد بدات تخمد . ومع ذلك لم تكن هناك اية خيول او حيوانات او اية حركة ، كما لم تكن اية بادرة حياة من اى نوع ولقد راينا كل ذلك من خلال رقائق الضباب المتقلبة .

ترجل بيولف عن حصانه وفعل المقاتلون نفس الشىء وأنا بينهم . وفى الحقيقة كان قلبى يدق واخذت انفاسى تتسارع بينما كنت انظر الى المعسكر المتوحش لهؤلاء الشياطين . سألت هامسا « ولماذا ليس هناك اى نشاط ؟ » اجاب هرغر قائلا « ان الوندول هم من مخلوقات

الليل كالبوم والخفاش ، وهم ينامون طيلة ساعات النهار . ولهذا فهم نائمون الآن ، وسوف تنقض عليهم ونذبحهم وهم يخلمون . « قلت وأنا أنظر الى الاكواخ الكثيرة . التي كنت أراها في الاسفل « ولكننا قليلون » فاجاب هرغر وهو يقدم لى كأسا من شراب الميد « عددنا كاف » فاخذت الشراب منه بامتنان حامدا لله على انه غير محرم ولا حتى مكروه (١) . وفي الحقيقة بدأت احس بتدوق لساني وترحيبه بهذه المادة التي كنت اظنها في الماضي قدارة كريهة : وهكذا تتوقف الاشياء الغريبة عن أن تكون كذلك بفعل التكرار . وبنفس الطريقة لم أعد اهتم برائحة الوندول النتنة المخيفة لانني كنت قد تعودت على استنشاقها لمدة طويلة ولم أعد احس بعيقها .

وأهل الشمال غريبو الاطوار جدا فيما يتعلق بالشم . فهم كما قلت غير نظيفين ، وهم يأكلون كل أنواع الطعام والشراب السيء ، ولكنها حقيقة أيضا أنهم يقدرون اتوقهم تقديرا ما بعده تقدير وفوق كل أجزاء الجسد الاخرى . فققدان اذن في المعركة لا يعتبر أمرا عظيما ، كما أن فقدان اصبع يد أو اصبع قدم أو حتى فقدان اليد هو قضية اكثر خطورة ولكنها أيضا ليست ذات بال ، ولكنهم يعدون فقدان الانف مساويا للموت نفسه وحتى لو كان ذلك الفقدان خسارة اربنة الانف وحدها والتي قد تنظر اليها الشعوب الاخرى على انها اصابة طفيفة جدا .

وكسر عظم من عظام الانف بسبب معركة أو لطمة ليس أمرا ذا بال، فالكثيرون منهم لهم أنوف محطمة لهذا السبب . ولكنني لا أدري سببا لهذا الخوف الكبير عندهم من قطع الأنوف (٢) .

(١) ان تحريم الاسلام للكحول هو حرفيا تحريم الفاكهة العنب المخمر ، أي الخمرة . بينما مشروبات العسل المخمر فهي مباحة للمسلمين .

(٢) ان التفسير النفسى الممتد لمثل هذه المخاوف من فقد بعض أعضاء الجسم هي أنها تمثل القلق من التشوه (قلق النفس) . في دراسة اجريت عام ١٩٣٧ عن تشويهاات صورة الجسد في المجتمعات البدائية يلاحظ انكلوهارت أن الكثير من الثقافات لها رأى واضح ومباشر في هذه المعتقدات . فقبائل الناناماني في البرازيل مثلا ، تعاقب الخاطئين جنسيا يقطع اذنهم اليسرى ، وهو عقاب يعتقد بأنه يضيف القوة الجنسية . بينما مجتمعات أخرى تعطي أهمية كبيرة لفقدان الاصابع واصابع الارجل أو كما هي الحال عند الشماليين ، فقدان الانف . وهي خرافة شائعة في كثير من المجتمعات تلك القائلة بأن حجم انف الرجل يعكس حجم قضيبيته .

ويقول امرسون أن الاممية المطاة للانف في المجتمعات البدائية تعكس قيمة وظيفية منذ الايام التي كان فيها الناس صيادين ويعتمدون الى حد كبير على حاسة الشم لايجاد الفرائس ولتحاشي الاعداء . ففي حياة مثل هذه كان فقدان حاسة الشم اذى خطيرا حقا .

ترك محاربو بيولف وقد أصابهم الرعب ، وأنا طبعاً بينهم ، تركوا خيولهم فوق التلال ، وبما أن هذه الحيوانات لا يمكن أن تترك وحدها لأنها كانت خائفة جزعة . فكان لابد أن يبقى أحد أفراد مجموعتنا معها ، وكنت آمل أن أكون أنا المختار لذلك المهمة ، إلا أنها كانت من نصيب هلتف ، إذ كان قد أصيب بجرح وكان ذا قائدة محدودة جداً . وهكذا رحنا نحن الآخرون نهبط التلة بتعب ظاهر مابين الشجيرات الضعيفة والاجمات الميتة عبر المنحدر باتجاه معسكر الوندول . كنا نتحرك خلسة ولم نسمع أى انذار بل سرعان ما كنا في قلب قرية الشياطين .

لم ينطق بيولف بحرف بل كان يعطى كل أوامره وتوجيهاته بيديه ومنه أدركت أن علينا أن نتحرك ضمن مجموعات كل منها من مقاتلين وكل مجموعة تتحرك باتجاه مختلف . كان على أنا وهرغر أن نهجم أقرب الاكواخ الطينية وكان على الآخرين أن يهاجموا الاكواخ الأخرى . وقد انتظر الجميع حتى استقرت المجموعات خارج الاكواخ ثم وبصيحة كانت إشارة رفع بيولف سيفه العظيم وندبغ وقاد الهجوم . اندفعت مع هرغر داخل احد الاكواخ والدم يلقى في رأسي وسيفي خفيف كريشة في يدي . وكنت والله مستعداً لأعظم معركة في حياتي . لكنى لم أر شيئاً في الداخل إذ كان الكوخ مهجوراً عارياً أيضاً باستثناء بعض الفراش القشى الحقر الذى كان قمىء المنظر الى حد كان يشبه معه أعشاش بعض الطيور .

فاندفعنا خارجين وهاجمنا الكوخ الطينى التالى . ومرة أخرى وجدناه خالياً . فى الحقيقة كانت جميع الاكواخ خالية وقد أصاب رجال بيولف غضب كان من الشدة بحيث راح الواحد منهم يحدق بالآخر وعلى وجوههم تعابير الدهشة والتعجب .

وبعد ذلك دعانا أكثر فاجتمعنا عند واحد من هذه الاكواخ كان أكبر من الاكواخ الباقية . وقد وجدته أيضاً مهجوراً ككل الاكواخ الباقية ، ولكن داخله لم يكن عارياً أجرباً ، فأرض الكوخ كانت مغطاة بعظام هشّة راحت تتكسر تحت أقدامنا كعظام الطيور رقيقة هشّة متكسرة . أصابتنى من ذلك دهشة عظيمة فانحنيت لأتعرّف على طبيعة هذه العظام . ويا للصدمة التى أصبت بها عندما رأيت الخطوط المنحنية لمحجر عين هنا وبعض أسنان هناك .

فى الحقيقة كنا نقف على سجادة مظام الوجوه البشرية ، وكبرهان
اضافى على هذه الحقيقة الرهيبه كانت قد الصقت فوق احد الجدران
اجزاء من جماجم البشر وقد وضعت مقلوبة كما توضع كثير من
قدور الفخار ولكنها كانت بيضاء متألقة البياض . شعرت بالفثيان
وغادرت الكوخ لافرج معدتى . هنا اخبرنى هرغر ان الوندول ياكلون
ضحاياهم كما ياكل الكائن البشرى البيض او الجبن . هذه هى
عادتهم ورغم شناعة هذا الامر عندما نتامله فانه مع ذلك حقيقة
أكيدة .

فى هذه اللحظة نادانا محارب آخر لندخل كوخا آخر . وهنا
رايت مايلى : كان الكوخ اجرد عاريا ما عدا كرسى كبير يشبه
العرش محفور من قطعة هائلة الحجم من الخشب . وكان لهذا
الكرسى ظهر عال يشبه المروحة ومحفور على شكل افاعى وشياطين .
وعند اسفل الكرسى كانت بقايا عظام الجماجم وعلى ذراعى الكرسى
حيث يريح صاحب الكرسى يديه كان هناك دم وبقايا مادة جينية
بيضاء كانت عادة مخ بشرى . اما رائحة هذه الغرفة فكانت لاتطاق
ابدا .

وحول هذا الكرسى وفى كل اتجاءه كانت هناك نحوت حجرية
صغيرة تمثل امرأة حبلى كالتى وصفتها آنفا . وكانت هذه النحوت
تشكل محيط دائرة حول الكرسى

قال هرغر « هذا هو عرشها حيث تحكم » وكان صوته خفيا
مرتعبا .

ولم اكن قادرا على ادراك مغزى ما قال وكنت اشعر بالفثيان فى
قلبى وفى معدتى . وسرعان ما وجدت نفسى افرغ معدتى على
التراب . وحتى هرغر وبيولف والآخرى جميعا اصيبوا بامتصاص
شديد . ولكن لم يفرغ اى منهم معدته ، ولكن بدلا من ذلك تناولوا
جمرات متاججة من النار واضرموا النار بالاكواخ التى راحت تحترق
ببطء لانها كانت رطبة .

وهكذا صعدنا التلة . وامتطينا جسادنا تاركين ارض الوندول
وغادرنا صحراء الرعب . كان الحزن والاسى يرتسم الان على وجوه
بيولف ومحاربيه جميعا لان الوندول قد تجاوزهم فى الدهاء

والذكاء بتركهم أوكارهم توقعنا لهذا الهجوم . أما حرق اكواخهم فان الوندول لن يعدوه خسارة كبيرة .

الفصل الخامس والعشرون

مؤتمر الاقزام

عدنا كما رأيتنا ، الا ان جياندا كانت تعدو بسرعة أكبر لانها الان كانت أكثر حماسا . وأخيرا هبطنا من التلة ورأينا السهل المنبسط يمتد امامنا وعن بعد وراءه رأينا طرف المحيط والمستوطنة وقاعة روث غار الكبرى .

وفجأة استدار بيولف متعددا عن وجهتنا وقادنا باتجاه آخر نحو جرف صخري عال ، تتلاطمه رياح المحيط . عدوت بحصاني حتى وصلت الى هرغر وسألته عن سبب ذلك فأجاب بان علينا ان نبحث عن اقزام تلك المنطقة .

أصبت بدهشة عظيمة لسماي هذا الكلام لان اهل الشمال ليس بينهم أو في مجتمعهم اقزام على الاطلاق ، وهم لا يرون ابدا في الشوارع وما رأيت احدا منهم يجلس عند اقدام الملوك ، ولن تجد ايا منهم يعد النقود أو يدون الحسابات أو يقوم بأى من تلك الحسابات التي اعتدنا ان نرى الاقزام يفعلونها (١) . ولم يذكر امامي اى من اهل الشمال هؤلاء الاقزام قبلا وكنت افترض دائما ان شعبا من المردة كشعب الشمال لا يمكن ان ينتج اقزاما (٢) .

وصلنا الان الى منطقة ملأى بالكهوف تعصف فيها الرياح والاصداء . ترجل بيولف عن حصانه وفعل كل محاربه نفس الشيء وراحوا يتقدمون على اقدام . سمعت صوت صفير ثم رأيت فقاعات

(١) في منطقة البحر الابيض المتوسط ومنذ العصور الفرعونية كان ينظر الى الاقزام على أنهم خارقو الذكاء وأهل للثقافة ، كما أن مهمات مسك دفاتر الحسابات والتعامل المال كانت توكل اليهم دائما .

(٢) من بين التسعين ميلا عظيما تقريبا التي يمكن أن تنسب وبنقة الى فترة الفايكنج باسكندنافيا فان الطول الوسطى للرجل هناك هو حوالي ١٧٠ سم .

من البخار تتصاعد من هذه الكهوف العديدة . دخلنا احد هذه الكهوف وهناك التقينا بالاقزام .

كان مظهرهم كالتالى : الواحد منهم فى حجم القزم العادى ولكنه يتميز برأس هائل الحجم ، وبملامح يبدو عليها الهرم المفرط . كان هناك اقزام ذكور واثاث وكانوا جميعا يبدو عليهم السن المتقدمة . كان الذكور منهم ملتحين وقورين ، والنساء ايضا كان لهن بعض الشعر على وجوههن ولذا كن يحملن مظهر الرجال وكان كل قزم يرتدى معطفا من الفراء او جلد السمور ، كما كان يرتدى حزاما رقيقا من الجلد مزينا بقطع من الذهب المطروق .

عند وصولنا حيانا الاقزام بادب ودون اى خوف . قال لى هرغر بان هذه المخلوقات ذات قوة سحرية وهى لذلك لا تخاف اى انسان على سطح الارض . ولكنهم مع ذلك يخشون الخيول ، ولهذا السبب تركنا خيولنا خلفنا . واطاف هرغر ان قوى القزم الخارقة انما تكمن فى هذا الحزام الرقيق ، وان القزم على استعداد لان يفعل اى شىء لاستعادة حزامه اذا ما فقده .

كما اضاف هرغر قائلا ان مظاهر السن المتقدم على وجوه الاقزام هى امر صحيح ، لان القزم كان يعيش عمرا اطول من عمر اى انسان عادى . وقال لى ايضا ان هؤلاء الاقزام بالفون جنسيا منذ اول سنوات شبابهم ، وانهم يولدون وقد نبت لهم شعر العانة او ملتقى الفخذين كما ان الواحد منهم يملك عضوا ذكرا بحجم غير عادى . وفى الحقيقة فان الوالدين انما يميزان لاول وهلة فيما اذا كان طفلهما قزما بهذه الميزة كما يميزان بهذه الطريقة ان طفلهما مخلوق سحرى يجب ان يحمل الى التلال ليعيش مع الاخرين من جنسه ، فاذا ما تم هذا يتقدم الابوان شكرهما الى الالهة ويدبحان القرابين ، لان ولادة قزم تعتبر بنظرهم حقا عظيما عاليا للوالدين . هذا هو ما يعتقد اهل الشمال كما حدثنى عنه هرغر ، ولكنى لست على علم بحقيقة الامر ، وانما اقصى ما قيل لى .

قلت اذن اننى رايت ان الصغير والبخار كانا يتصاعدان من حلل عظيمة (قدور) هائلة الحجم كانت تغطس فيها شفرات من الفولاذ المصقول لتنقية معدنها ، فهؤلاء الاقزام يصنعون اسلحة عالية الجودة

ومفضلة عند أهل الشمال . ولقد رأيت محاربى بيولف يجبلون
ابصارهم فى أركان الكهوف بشوق واهتمام كما لو كانوا نساء فى
سوق تباع اغلى أنواع الحرير .

سأل بيولف هذه المخلوقات أسئلة كثيرة ، طلب اليه بعدها ان
يتجه الى أعلى قمة الكهوف حيث كان يجلس قزم وحيد أكبر سنا
من الآخرين له لحية وشعر شديد البياض صافيا ، وله وجه
مجعد مفضن . هذا القزم كان يدعى « تن غول » ، أى قاضى الخير
والشر كما تعنى أيضا العراف .

لا بد انه قد كان هذا العراف تلك القوى السحرية التى قال
الجميع انه يملكها ، لانه حيا بيولف باسمه قورا ، ورجاه ان يجلس
معه . جلس بيولف بينما تجمعنا واقفين على مسافة غير بعيدة
منهما .

لم يقدم بيولف الى ال « تن غول » اية هدايا ، كما ان رجال
الشمال لم يقدموا أى مظهر من مظاهر الاحترام والانحناء لهؤلاء
البشر الصفار : فهم يعتقدون ان اعطيات الاقزام يجب ان تقدم
مجانا ، ومن الخطأ ان تستحث عطاءات الاقزام بالهدايا . وهكذا
جلس بيولف وراح « التن غول » ينظر اليه بامعان ثم أطبق عينيه
وبدا يتكلم وهو يهز جذعه الى الخلف والامام وهو جالس . كان
التن غول يتحدث بصوت عال حاد النبرات كصوت طفل وقد نسر
لى هرغر معانيه كما يلى :

« يا بيولف أنت محارب عظيم ولكنك التقيت بمعركة حياتك
وبندك فى وحوش الضباب ، أكلة الموتى . سيكون هذا صراعا حتى
الموت ، وستكون بحاجة الى كل قوتك وحكمتك لتتغلب على هذا
التحدى » . واستمر يتحدث بهذا الشكل لبعض الوقت وهو يهتز الى
الامام والى الخلف . وكان فحوى حديثه ان بيولف كان يواجه قدرا
صعبا كنت أدركه كما كان يدركه بيولف نفسه بما فيه الكفاية . ومع
ذلك حافظ بيولف على صبره وهدوئه .

كما لاحظت أيضا ان بيولف لم يظهر أى انزعاج حين راح القزم
يسخر منه ، وهى السخرية التى كررها القزم عدة مرات . قال
القزم : « لقد أتيت الى لانك هاجمت الوحوش فى المستنقع الاسن

المالِح ، دون أن يجديك ذلك شيئاً . ولهذا جئت الى تطلب النصيحة والتحذير ، كما يطلب الطفل ذلك من والده تسألني ماذا على أن افعل لان كل خطي قد اوقعت بي وفشلت . ثم ضحك العراف طويلا لهذا الحديث . عاد وجهه بعدها الى الجد والوقار مرة اخرى .

« اى بيولف » استأنف العراف حديثه قائلا : « اننى ارى المستقبل ولكننى لا استطيع ان اخبرك الا بما تعرفه تماما . فانت وكل محاربك الشجعان قد استنفرتم كل مهارتكم وشجاعتكم لتشنوا هجومكم على الوحوش فى صحراء الرعب . بهذا خدعتم انفسكم لان هذا لم يكن ابدا بطل حقيقى .

سمعت هذه الكلمات بكثير من الدهشة لان ما جرى بدا لى بطوليا حقا وبما فيه الكفاية .

ثم اضاف « التن غول » قائلا « كلا كلا يا بيولف النبيل ! فقد انطلقت لتنجز مهمة كاذبة ، وكنت تدرك فى اعماق قلبك البطل انها لم تكن اهلا لذلك . وكذلك ايضا كانت معركتك مع « تنين الكورغن » المضىء لا تستحق النزال ، تلك المعركة التى كلفتك حياة محاربين كثيرين شجعان . فما القصد وما الهدف من كل خططك هذه ؟ » ولكن بيولف لم يحجر جوابا ، بل جلس الى جانب القزم وانتظر .

استأنف القزم حديثه قائلا : « ان تحدى بطل عظيم انما هو فى القلب وليس فى الخصم . ماذا بهم اذا انقضت على الوندول فى اوكارهم وقتلت العديد منهم وهم نائمون ؟ قد تستطيع قتل الكثيرين الا ان هذا لن ينهى الصراع اكثر مما يمكن لبتير الاصابع ان يقتل انسانا . فلكي تقتل انسانا عليك ان تفرز سيفك او رمحك فى الرأس او فى القلب ، وكذلك الامر مع الوندول . انت تعرف كل هذا جيدا ولست بحاجة لاستشارتى او لنصيحتى لتدركه » . وبهذه الطريقة راح القزم وهو يهتز الى الامام والى الخلف يطهر نفس بيولف . ولقد تقبل بيولف توبيخاته وملامته برحابة صدر ، لانه لم يجب ولكنه اطرق براسه فقط .

ثم استأنف «التن غول» خطابه قائلا « لقد قمت بعمل رجل ، مجرد رجل ، وليس عمل بطل حقيقى . فالبطل ينجز من الاعمال

ما لا يجرؤ رجل على القيام به . فلكي تقتل الوندول عليك ان تضرب في الرأس وفي القلب . عليك ان تقهر امهم في كهوف الرعد » . لم افهم معنى هذه الكلمات ابدا ، في حين استمر القزم يقول « انت تعرف هذا وتعرف ان هذا كان الصحيح دائما ، خلال كل عصور الانسان . هل سيموت محاربوك الشجعان واحدا تلو الاخر ؟ ام انك ستضرب امهم في الكهوف ؟ انا لا اقدم لك بهذا نبوءة انما اقدم لك الخيار ما بين البطل والانسان » .

هنا تمت بيولف باجابة ما ولكنه تحدث بصوت منخفض ضاعت كلماته على مع صفير الريح التي كانت تعصف بمدخل الكهف . الا انه مهما كان فحوى هذه الكلمات فقد استأنف القزم حديثه قائلا : « ذلك هو جواب البطل يا بيولف ولم اكن اتوقع اى جواب آخر منك ، ولهذا فسادعم مسماك » . ثم دعا القزم بعض بنى جنسه ليقتربوا منه خارجين من زوايا ظلمة الكهف الى النور . وعندما كشفهم الضوء كانوا يحملون بأيديهم اشياء كثيرة .

قال التن غول « هاك هذه الحبال المصنوعة من جلود الفقمة التي اصطدناها في اول ذوبان الجليد . ستساعدك هذه الحبال على ان تصل مدخل كهوف الرعد من ناحية البحر » . قال بيولف « انا اشكرك على هذا » . بعدها اضاف « التن غول » يقول « وهاك ايضا سبعة خناجر طرقت بالبخار والسحر اقدمهسا لك ولمحاربيك . السيوف العظيمة لن تكون ذات فائدة او جدوى في كهوف الرعد . فاحملوا هذه الاسلحة بشجاعة .. وستنجزون مهمتكم وامنيتكم » . اخذ بيولف الخناجر وشكر القزم عليها ، ثم وقف وهو يقول : « ومتى تقوم بهذه المهمة ؟ » .

اجاب « التن غول » قائلا « امس افضل من اليوم ، وغدا افضل من اليوم الذي يليه . لذا اسرع ونفذ نياتك بقلب ثابت وساعد قوى » .

ويعود بيولف للسؤال قائلا : « وما الذي سيحدث ان نحن نجحنا ؟ » . ويجيب القزم على الفور « عندها سيجرح الوندول جرحهم المميت ، وسيقلب الوندول وامهم الراى في اكثر من امر وهي في نزع الموت الاخير وللمرة الاخيرة . وبعد هذا المصاب الاخير

سيحل السلام في هذه الأرض وسيعود نور الشمس نخالدا فيها أبدا . أما اسمك فسيحل في أغاني المجد والخلود في تصور بلاد الشمال الى ابد الابدین » .

هنا يتمم بيولف قائلا « هكذا تغنى أغاني الرجال الاموات » . ويحيب القزم وهو يضحك ثانية وبهجة تشبه ضحك الاطفال أو البنات الصغار « ذلك صحيح . وتغنى كذلك أفعال الأبطال الذين يعيشون بهذا الشكل أيضا ، لكن أفعال الرجال العاديين لا تغنى أبدا ولا تصير أناشيد أبدا . أنت تعرف ذلك جيدا » .

ويغادر بيولف الكهف بعد أن يقدم لكل منا خنجرا من خناجر الأقزام . ونهبط خارجين من تلك الشقوق الصخرية التي تعصف بها الرياح ونعود الى المملكة والى قاعة روث غار الكبرى بينما الليل يهبط بطيئا .

كل هذه الامور حدثت ورأيتها بأم عيني .

الفصل السادس والعشرون

أحداث الليلة السابقة للهجوم

لم يات الضباب تلك الليلة فقد هبط من على التلال ولكنه توقف بين الأشجار ولم يزحف باتجاه السهل . في قاعة روث غار الكبرى أقيمت وليمة عظيمة شارك فيها بيولف ورجاله باحتفال عظيم . وقد ذبح كبشان عظيما وألتهما بالكامل (١) . وقد شرب الجميع كميات هائلة من شراب الميد ، وضاجع بيولف لوحده أكثر من نصف دزينة من الفتيات الجوارى وربما أكثر من ذلك . ولكن رغم كل هذا المرح لم يكن لا هو ولا رجاله مسرورين حقا . فمن وقت لأخر كنت أراهم ينظرون الى جبال جلد الفقمة وخناجر الأقزام التي كانت قد كومت في إحدى زوايا القاعة .

وانضمت أنا الى صخب المحتفلين ، فقد صرت أشعر أنني واحد منهم ، أو هذا ما بدا لي على الأقل بعد أن قضيت كل هذا الوقت

(١) يقول دالمان (عام ١٩٢٤) « انه في مناسبات الاحتفالات كان يؤكل لحم الكبش لزيادة الحيوية الجنسية لان الحيوان الذكر ذا القرون كان يعتبر متفوقا على الانثى » ولكن في الواقع فان كلا الكبش والنجعة كان لهما قرون هذه الفترة .

في صحبتهم . والحقيقة انى في تلك الليلة شعرت انى قد ولدت شماليا .

اما هرغر وقد اخذت منه نشوة الخمر كل ماخذ فقد حدثنى بصراحة عن ام الوندول فقال : « ام الوندول هذه عجوز مفرقة في الهرم وتعيش في كهوف الرعد . وتقع كهوف الرعد هذه في صخرة من صخور الجرف غير بعيدة من هنا . ولهذه الكهوف فتحتان واحدة عن طريق البر والثانية من البحر ، ولكن المدخل البرى عليه حراسة مشددة يقوم بها الوندول الذين يحمون امهم العجوز ، ولهذا فنحن لانستطيع ان نهاجمهم من ناحية البر لاننا بهذه الطريقة سنقتل جميعا . لهذا سنهاجم من البحر . »

سألته : « وما هى طبيعة ام الوندول هذه ؟ » فاجاب هرغر قائلا انه ما من شمالى يعرف ذلك بعرفة صحيحة ، ولكن يحكى انها عجوز هرمة ، اكبر سنا من الحيزيون الشمطاء التى يدعونها ملاك الموت ، وانها ايضا كانت مخيفة المنظر ، وانها كانت ترتدى الافاعي فوق رأسها وكأنها اكايل الغار ، وانها ايضا قوية فوق كل تصور . واضاف اخيرا ان الوندول كانوا يلجأون اليها لترشدهم في كل مناحى حياتهم (1) . ثم اشاخ هرغر بوجهه عنى وغاب في سبات عميق .

(1) قال جوزيف كاترول ان « هناك نزععة في الاسطورة الجرمانية والنورسية للنظر الى النساء على ان لهن قوى خاصة ومزايا سحرية ولهذا تجب خشيتهن وعدم الثقة بهن . كل الالهة الرئيسية من الرجال ، ولكن الفالكاريز **Valkyries** والذى يعنى حرفيا « مختارى القتل » ، هن نساء يتقلن المحاربين الاموات الى الجنة . وكان يعتقد ان هناك ثلاثة اقدار تخلق مع ولادة كل انسان وتقرر مصير حياته . هذه الاعداد تسمى اوث اى الماضى ، ليرتهاندى اى الحاضر وسكند اى المستقبل . هذه الاعداد « تحيك قدر الانسان » ، والحياتة هى عمل النساء . وفى التصويرات الشعبية كانت هذه الاعداد والالهة تصور على انها صبايا شاباب . اما وورد **wyrd** وهو الاله الانجلى سكسونى الذى كان يتحكم بالقدر فقد كان ايضا الها ويفعوض ان الربط ما بين النساء وقدر الرجل كان استمرارية لمفاهيم سابقة عن النساء باعتبارهن رموز الخصب فالهات الخصب كن يتحكمن بنمو وازهار المحاصيل وكل الاشياء الحية على الارض .

ويلاحظ كاترول ايضا ان « فى الواقع العمل ندرك ان العرافة والقاء التعاويذ وطقوسا عرافية اخرى انما كانت توكل للنساء المسنات في المجتمع النورسى او الشمالى . واضافة الى ذلك فان الافكار الشعبية او العامية عن النساء كانت تتضمن عنصرى قويا من الشك . فطبعا **Havamal** لا يجوز لاحد ان يثق بكلمات فتاة او امرأة متزوجة ، لان قلوبهن قد صنعت على شكل دولاب دوار . واضافة الى انهن غير ثابتات على امر بطبيعتهن » .

يقول بتديكسن « كان يوجد بين اوائل الاسكندنافيين نوع من تقسيم القوة حسب الجنس : فالرجال كانوا يتحكمون بالفضايا الطبيعية والمادية فى حين ان النساء يتحكمن بالفضايا النفسية » .

والان حدثت هذه الحادثة ، في اعماق الهزيع الاخير من الليل ،
وبينما كانت الاحتفالات تقترب من نهايتها والمحاربون غلى وشك
النوم طلب بيولف الى ان اذهب اليه . تجلس بجانبى وراح يشرب
الميد من قرن تحول الى كأس . لم يكن مخمورا ، كما رايت ، وكان
يتحدث ببطء بلغته الشمالية بحيث افهم مقصده . قال لى اولا :
« هل ادركت معنى كلمات القزم الشبه غول ؟ » فاجبت باننى فهمت
ماقال بمساعدة هرغر الذى كان يشخر الان قربنا . قال لى بيولف :
« اذن فانت تعلم اننى ساموت . » قال هذا بعينين مضيئتين وب نظرة
ثابتة . لم ادر بم اجيب او اى استجابة ابديها الا اننى في اخر الامر
قلت له على الطريقة الشمالية « لا تصدقن اى نبوءة حتى تشر (1) » .
قال لى بيولف ايضا : « لقد رايت وتعرفت على كثير من عاداتنا .
قل لى الحقيقة . هل ترسم الاصوات ؟ » فاجبته بان نعم . « اذن
فكن حريصا على سلامتكم ، ولا تبالح في جراتك وشجاعتك . انت
الان تليس وتحدث كشمالى وليس كاجنبى . فاعمل جهدك لان
تبقى حيا . »

وضعت يدي على كتفه كما رايت رفاقه المحاربين يفعلون عندما
يحيون فابتسم عندها وقال « انى لا اخاف شيئا ولست بحاجة الى
الترويح عنى . انى اطلب اليك ان تعمل من اجل سلامتكم ولمصلحتك
انت . اما الان فافضل شىء نفعله هو ان ننام . »

قال هذا واشاح بوجهه عنى مكرسا كل انتباهه الى احدى
الجوارى التى راح يضاجعها على مسافة لاتزيد عن بضعة خطوات
منى . فادرت وجهى بعيدا وأنا اسمع انات وضحكات تلك المرأة ،
غير انى سرعان مارحت في سبات عميق .

(1) هذه صياغة معدلة شائعة بين الشماليين وهي بصيغتها الكاملة على الشكل التالي:
« لا تمتدحن النهار حتى ياتى المساء ، ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى يجرب
ولا الصبيبة العذراء حتى تتزوج . ولا الجليد حتى يتبدد ، ولا تمتدحن شرابا حتى
يشرب » . هذه النظرة الحكيمة الواقعية والساخرة الى حد ما الى الطبيعة البشرية والى
العالم انما هى امر يشاطر العرب الاسكندنافيين الايمان به . فالاسكندنافيين تماما غالبا
ما يعبر العرب عن هذا بالفاظ ساذجة او ساخرة . وهناك قصة صولية عن رجل سال
حكيميا : « لنفترض اننى كنت مسافرا فى الريف وكان على ان اتوضا فى نهر . قالى
اى جهة على ان اولى وجهى وأنا اتوضا ؟ » ويجيب الحكيم قائلا « اتجه باتجاه ثيابك
حتى لا تسرق » .

كهوف الرعد

قبل أن تضىء أولى خيوط الفجر السماء ، كان بيولف ورجاله وأنا بينهم ننطلق على ظهور الجياد تاركين مملكة روثغار شاقين طريقنا على حافة الجرف المطل على البحر . لم اكن اشعر بانى على مايرام فى ذلك اليوم فقد كان راسى يؤلمنى ، كما كانت معدتى تؤلمنى من آثار احتفالات الليلة السابقة . ومن المؤكد ان كل محاربى بيولف الاخرين كانوا فى حالة مشابهة ، ومع ذلك لم يبد أى من هؤلاء الرجال أى علامة من علامات الضيق . عدت خيولنا بقوة وهى تلتف على اطراف الجروف التى كانت على طول ذلك الساحل عالية مخيفة وسحيقة ، والتى كانت تنهاوى على شكل صفيحة من الحجر الاغبر باتجاه البحر المزيد الهائج تحتها . وفى بعض المناطق على هذا الشريط الساحلى كنت ترى بعض الشيطان الصخرية ، الا ان الارض الخضراء والبحر غالبا ماكانا يلتقيان مباشرة والامواج تتحطم كالرعد على الصخور . هكذا كان الوضع فى معظم اجزاء الساحل .

رايت هرغر وهو يحمل فوق حصانه جبال جلد الفقمسة التى اخذناها من الاقزام فأسرعت خطى جوادى لالحق به . سألته عن هدفنا فى ذلك اليوم ، ولو انى فى الحقيقة لم اكن مهتما كثيرا بهذا الهدف فقد كان راسى يؤلمنى ومعدتى تحترق احتراقا اليما .

قال هرغر « فى هذا الصباح سنهاجم ام الوندول فى كهوف الرعد . وسنقوم بهذا الهجوم من البحر كما قلت لك بالامس » .

وبينما كنت راكبا نظرت من فوق جوادى الى البحر فى الاسفل الذى كانت امواجه تتحطم فوق الجروف الصخرية ، وسالت « هل سنهاجم بواسطة السفن ؟ » اجاب هرغر وهو يضرب بيده على جبال جلد الفقمسة « كلا » . عندها أدركت قصده فى أننا سيكون علينا أن نتدلى من فوق الجروف بواسطة الجبال ثم بطريقة ما او باخرى سندخل تلك الكهوف . كان خوفى لايوصف لمجرد هذا التصور فلم

اكن احب ابدا ان اكون معرضا للسقوط من الاماكن العالية . حتى
البنيات العالية في مدينة السلام كنت اتحاشاها . عندما عبرت عن
احساسى هذا لهرغر قال لى « اعترف بالجميل فانك محظوظ » .
سالت عن مصدر حظى فاجاب هرغر قائلا « ان كنت تخاف الاماكن
العالية فانك اليوم ستتغلب على هذا الخوف وهكذا ستكون قد
تغلبت على تحد عظيم وستعد بين الابطال » . فقلت له « انا لا اريد
ان اكون بطلا » . وما ان سمع هذا حتى ضحك وقال اننى انما اعبر
عن مثل هذه الراء لانى عربى وحسب . ثم اضاف اننى متحجر
الراس وهو تعبير كان الشماليون يعنون به حالة ما بعد الشرب او
السكر . وكان ذلك صحيحا كما سبق وبيئت .

وكان صحيحا ايضا اننى كنت شديد الحزن والقلق لمجرد التفكير
بان على هبوط الجرف بتلك الطريقة ، وفي الحقيقة كان شعورى
كما يلى : كنت على استعداد ان اضاجع امرأة في الحيض ، بل كنت
على استعداد لان اشرب من كاس ذهبية او اكل روث خنزير ، وان
اقتلع عيني حتى وان اموت او ان افعل كل هذه الاشياء مجتمعة
على انحدر من على ذلك الجرف الملعون . وازضافة لذلك كنت اعانى
من مزاج متعكر . قلت لهرغر « قد تكون انت وبيولف وكل جماعتكم
ابطالا كما قد يروق لمزاجكم ولكن لا علاقة لى انا بكل هذا الامر ولا
اريد ان اكون واحدا منكم » . ضحك هرغر لكلماتى ثم نادى بيولف
وحدثه بسرعة . اجابه بيولف وهو ينظر من فوق كتفه وكانما
يقمز بى . وهنا قال لى هرغر : « بيولف يقول ان عليك ان تفعل كما
نفعل . » وفي الحقيقة احسست الان باننى اغرق في حالة يأس فقلت
لهرغر ، « انا لا استطيع ان افعل ذلك . وان انتم اجبرتمونى على ان
افعله فساموت حتما . » سال هرغر « كيف ستموت ؟ » اجبت
« اننى سافلت قبضتى عن الحبال . » هذا الجواب جعل هرغر
يضحك من اعماقه مرة اخرى وراح يعيد كلماتى على مسمع من جميع
الشماليين فضحكوا جميعا لما قلت . بعد ذلك تحدث بيولف بكلمات
قليلة . قال لى هرغر « ان بيولف يقول انك ستحل قبضتك اذا
ارخيت الحبال من يدك ، ولن يفعل ذلك الا احمق مجنون . وبيولف
يقول انك عربى ولكنك لست مجنونا . » وهاكم وصفا حقيقيا لطبيعة

الرجال : قال بيولف اننى كنت أستطيع الهبوط على الحبل ، وانه نتيجة كلامه صرت أعتقد به وأصدقته قدر ما يصدقته هو وشعرت بالسعادة تدخل قلبى ولو بقدر قليل . وقد لاحظ هرغر ذلك فقال : « كل انسان يحمل في طياته نوعا من الخوف خاصا به ومقصورا عليه . وهكذا تجد رجلا يخاف الاماكن المغلقة وآخر يخاف الغرق ، بينما كل منهما يضحك على الاخر ويدعوه غبيا . وهكذا فان الخوف ليس الا مجرد هواية مفضلة يجب ان تعتبر من نوع تفضيل امرأة على اخرى او لحم الضان على لحم الخنزير او الملقوف على البصل وما الى ذلك . نحن نقول الخوف هو الخوف »

لم اكن في مزاج يسمح لى بتأمل فلسفاته ، وقد اخبرته بذلك وفى الحقيقة صرت احس باننى اكثر قربا الى الغضب منى الى الخوف . ومرة اخرى ضحك هرغر فى وجهى وقال هذه الكلمات : « الحمد لله الذى وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها » .

قلت مجيبا باقتضاب اننى لم اكن ارى فائدة فى استمجال النهاية ، فأجاب هرغر قائلا « فى الواقع لا أحد يرى ذلك » ، ثم اضاف « انظر الى بيولف . لاحظ كيف يجلس منتصباً وكيف يهمر حصانه متقدماً مع انه يعرف بما لا يقبل الشك بانه سيموت عما قريب . » اجبته « انا لا اعلم انه سيموت . » ويجيب هرغر قائلا « نعم ولكن بيولف لن يعرف ذلك » ثم امتنع هرغر عن اضافة أى شىء آخر وانطلقنا على ظهر خيولنا لبعض الوقت حتى استقرت الشمس ساطعة مشرقة فى كبد السماء . وأخيراً أعطى بيولف اشارته آمراً بالتوقف فترجل كل الرجال وبدءوا بالاستعداد لدخول كهوف الرعد .

كنت اعلم حق العلم ان هؤلاء الشماليين كانوا شجعاناً الى حد التهور ، ولكنى حينما نظرت الى انحدار الجرف تحتتنا شعرت بقلب يلتوى وينقلب رأساً على عقب داخل صدرى ، وظننت لو هلة اننى سأفرغ معدتى فى اية لحظة . وفى الحقيقة كان الجرف سحيقاً بلا حدود ليس فيه أى مقبض ليد أو قدم ، وكان ينحدر لمسافة ربما تصل الى اربعمائة خطوة . وفى الحقيقة كانت الامواج المتلاطمة بعيدة سحيقة تحتنا الى درجة بدت معها وكأنها صور امواج مصفرة ، دقيقة رقيقة كأنهم رسوم فنان . ومع ذلك كنت أدرك انها كبيرة

كبير كل الامواج على الارض وأن الانسان سيدرك ذلك حالما يهبط الى مستواها في الاسفل .

كان الانحدار على هذه الجروف بالنسبة لى جنونا مابعد جنون من كلب مزبد . ولكن الشماليين كانوا مزالوا يندفعون قدما بطريقة طبيعية تماما . وأمر بيولف بفرز عصى خشبية قوية فى الارض ، وحول هذه الاوتاد ربطت حبال جلد القممة بينما راحت النهايات الحرة تتطاير على جانب الجروف .

وفى الحقيقة لم تكن الحبال طويلة بما فيه الكفاية لمثل هذه المسافة ، فكان لابد من استعادتها ثانية ووصل جبلين الواحد بالآخر لصنع جبل واحد كاف للوصول الى الامواج عند السفح .

وفى الوقت المحدد كان لدينا جبلان طويلان كانا يتدليان على جانب الجرف . تحدث بيولف للجمع فقال : « سأهبط أنا أولا ، وحينما اصل الى القاع ستعلمون جميعا أن الحبال قوية وأن الرحلة يمكن انجازها . ساكون بانتظاركم عند نهاية الحبل وعلى الحافة الضيقة التى ترونها فى الاسفل » .

ونظرت بدورى الى الحافة الضيقة . أن تسميها ضيقة يعنى أن تسمى الجبل لطيفا . كانت فى الواقع اضيق شريط من الصخر المسطح تلتطمها امواج البحر وتفلسها باستمرار . ثم استمر بيولف قائلا « عندما تكون جميعا قد وصلنا القاع سيكون بإمكاننا أن نهاجم أم الوندول فى كهوف الرعد . » قال هذا بصوت ذات نبرة طبيعية كتلك التى يأمر بها عبدا بأن يهين له أى حياء منزلى أو أى عمل عادى . ودونما اضافة راح يهبط جانب الجرف .

والان اليكم وصفا لطريقة الهبوط والتى وجدتها رائعة مثيرة للاعجاب رغم أن الشماليين لم يكونوا يجدون فيها أمرا عجبا . فقد قال لى هرغر بأنهم يستعملون هذا الاسلوب لجمع بيوض طيور البحر فى فترات معينة من السنة ، حين تبني طيور البحر أعشاشها على سطح الجرف . ويتم الامر بالطريقة التالية : توضع انشودة حوا ومنط الرجل الهابط بينما يجتهد كل زملائه لانزاله من على الجرف . فى هذه الاثناء يقوم هذا الرجل من أجل تدعيم وضعه بالتمسك بحبل لان يتدلى على سطح الجرف . وبعد ذلك يحمل الرجل

الهابط عصا قوية من خشب البلوط مثبتة من احدى نهايتها بسير
جلدى حول وسطه ، يستعملها كعصا ليدفع نفسه هنا وهناك بينما
يهبط السطح الصخري(١) .

الفصل الثامن والعشرون

بينما كان بيولف يهبط ويتضاءل حجمه في عيني لاحظت انه كان
يتاور بالانشوطة والحبل وبالعصا بمهارة فائقة ، ولكنى لم اخذع
نفسى ابدا بالاعتقاد بان هذه كانت قضية تافهة ، فلقد رايت وادركت
انها كانت عملية صعبة وتتطلب مرانا طويلا . وبعد طول عناء وصل
بيولف السفح سالما ووقف على الحافة الضيقة بينما الموج يتلاطم
ويتحطم فوقه . وفي الحقيقة كان قد بلغ من الضالة والصرع بحيث
صار من الصعوبة بمكان بالنسبة اليها ان نراه يلوح بيده وهي
الاشارة التى كانت تعنى انه وصل بسلام . والان استعدت الانشوطة
ومعها العصا البلوطية . ثم التفت الى هرغر قائلا « الان جاء دورك »
قلت اننى اشعر بالوهن واننى اتمنى ان ارى شخصا آخر يهبط قبلى
لكى اجيد دراسة طريقة الهبوط . اجاب هرغر « ان الامر يصبح
اكثر صعوبة مع كل هبوط لان عدد الذين يتقون هنا فى الاعلى يصبح
اقل كلما هبط رجل الى الاسفل . والرجل الاخير عليه ان يهبط
بدون العقدة بالمره ، وسيكون ذلك الرجل اكثر لان ساعديه كالحديد
واننا نعبر عن محبتنا لك بالسماح لك بان تكون الرجل الثانى فى
الهبوط . هيا واهبط الان » .

ولقد رايت فى عينيه انه لم يكن هناك امل فى التأخير ، وهكذا
ادخل وسطى فى العقدة وقبضت على العصا الغليظة بيدي اللتين
كانتا ازوجتين بسبب العرق ، كما كان كل جسمى ايضا لزجا ولقا
بسبب العرق ، وكنت ارتجف فى مهب الريح حين انزلت على جانب
الجرف ورايت لآخر مرة الرجال الشماليين الخمسة وهم يجهدون
فى شد الحبل ثم غابوا عن ناظرى وبلدت اهبط .

(١) فى جزر الفارد فى الدانمرك مازالوا يمارسون اسلوبا شبيها فى تسلق الجروف
لجذب بيوض الطيور . هذه البيوض التى تشكل مصدر غذاء اساسى لاهالى تلك الجزر .

كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن ابتهل الى الله بصلوات كثيرة وأن أسجل أيضا في عين فكرى وفي ذاكرة روحى ، تلك المغامرات والتجارب العديدة التى يمر بها الانسان وهو يتدلى من حبال فوق هذا الجرف الصخرى الذى تمزقه الرياح . ولكن ما ان غبت عن ناظر الاصدقاء الشماليين فوقى حتى نسيت كل نياتى وهمست « حمدا لله » وأعدتها مرات ومرات كشخص فقد عقله أو كمن توقف عقله من العمل أو كطفل أو مجنون .

وفي الحقيقة لم أعد أتذكر الان الا القليل مما جرى . فلا زلت اذكر أن الريح تقذف بالانسان جيئة وذهابا عبر الصخرة بسرعة لا تستطيع معها العين ان تثبت النظر على السطح الذى كان رماديا مزيفا للنظر ، واننى كثيرا ما كنت اصطدم بالصخر فاهشم عظامى وأجرح جلدى . وقد ارتطم راسى مرة فخيلى الى اننى ارى بقما بيضاء ناصعة كأنها النجوم أمام عينى ، وظننت لوهلة اننى سأفقد الوعى الا أن ذلك لم يحصل . وفي الوقت المحدد والذى بدا لى فى الواقع انه كان يعادل طيلة حياتى بل وأكثر وصلت السفح وأمسك بيولف بى من كتنى وقال انى هبطت هبوطا جيدا .

وعادت العقدة فارتفعت ثانية بينما كانت الامواج تتحطم فوقى وفوق بيولف بجانبى . وكنت أحاول جاهدا ان احتفظ بتوازنى على هذه الحافة الزلقة ، وقد شغل هذا ذهنى وانتباهى الى حد لم أراقب فيه الاخرين وهم يهبطون الجرف . فقد كانت رغبتى الوحيدة هى فى ان أمنع الامواج من أن تقذف بى فى البحر . وفي الحقيقة رأيت بعينى ان الامواج كانت أعلى من ثلاثة رجال يقف الواحد منهم فوق الاخر ، وحين كانت تلطم الموجة الصخر كنت احس للحظة بفقدان الوعى وكانى فى دوامة من الماء البارد وقوته تقذف بى بحلقة دائرية . وكثيرا ما قذفتنى هذه الامواج وأخلت توازنى وكنت أنضح بالماء من كل جوانب جسدى وأرتجف الى حد كانت أسناني معه تصطك كما تفعل الخيول العادية . ولم أستطع ان أنطق بكلمة واحدة بسبب أسناني المضطكة .

هبط جميع محاربى بيولف بسلام ، وكان اكشفو آخر من هبط بقوة عضلات مساعديه وحسب . وعندما لامست قدماه حافة الجرف

اخرا كانت ساقاه ترتجفان دون ان يستطيع التحكم بهما كما
منتفض الانسان الذى يصارع نزع الموت . وكان علينا ان ننتظر بعض
الوقت حتى تمالك نفسه ثانية .

بعد ذلك تحدث بيولف : « سننزل فى الماء ثم نسبح حتى الكهف .
وساكون اول السابحين . احملاوا خناجركم بين اسنانكم ، بحيث
تكون ذراعا كل منكم طليقة فى مصارعة التيارات والامواج » .

نزلت على كلمات الجنون الجديد هذه كالصاعقة فى وقت لم اعد
استطيع فيه تحمل اى جهد آخر . فقد بدت خطة بيولف لعينى
حماقة مابعدھا حماقة . ولقد رايت الامواج تتحطم وتتفجر فوق
الصخور المتداخلة ، كما رايت الامواج تنسحب بقوة ماردا جبار
لكى تستعيد قوتها ثانية وتعود الى اللطم من جديد . وفى الحقيقة
اعتقدت وانا اراقب كل هذه انه ما من انسان يستطيع ان يسبح
فى تلك المياه وانه لا بد وان يتناثر الى شظايا عظام فى رمشة عين .

ولكنى لم احتج ولم اغضب فقد تجاوزت حدود كل خوف .
اعتقد اننى كنت قريبا بما فيه الكفاية من الموت الى حد لم يعد يهمنى
معه ان انا اقتربت اكثر فاكثر . وهكذا اخذت خنجرى الذى وضعته
فى جزامى لان اسناني كانت ماتزال تصطك ببعضها عاجزة عن ان
تمسك بالخنجر فى فمى . اما عن الشماليين الاخرين فلم تبد عليهم
اية آثار للبرد او للتعب ، بل كانوا يحيون كل موجة وكأنها منشطا
جديد . وكما كانوا يتسمون بسعادة انتظار المعركة القادمة ، وق
كرهتهم لهذا الشعور الاخير .

كان بيولف يراقب حركة الامواج ليختار الفرصة المناسبة ، ثم
قذف بنفسه فى الموج المتلاطم . ابطأت ثم دفعتى احدى الذى كنت
دائما اعتقد انه هرغر . فسقطت فى البحر الهائج الدوار ذى البر
المخدر . وفى الحقيقة شعرت براسى يدور وينقلب راسا على عقب
واموج الى هذا الجانب او ذاك ، ولم اكن استطيع رؤية اى شىء سور
المياه الخضراء . ثم رايت بيولف وهو يرفس الامواج فى اعماق
البحر فتبعته بينما راح يسبح فيما يشبه الممر بين الصخور . و
نصرفت فى كل شىء كما كان يفعل وذلك على النحو التالى :

فى لحظة ما كان تلاطم الامواج يندفع خلفه يحاول ان يقتلعه ويد

به الى المحيط الهائل وكذلك الامر معي . وفي تلك اللحظات كان نرلف يتمسك بالصخور بيديه ليقاوم التيار ، وكذلك فعلت . تمسكت بالصخور بقوة بينما رثناى تكادان تتفجران . وبلحظة اخرى كانت الامواج المتلاطمة تقفز بالاتجاه الاخر فادفع بسرعة هائلة نحو الامام ، واقفز فوق الصخور والعقبات . ومرة اخرى كانت الامواج تغير اتجاهها وتنحسر الى الخلف كما فعلت في السابق فاضطر لان اأحدو حدو بيولف واتعلق بالصخور . وفي الحقيقة كانت رثناى تحترقان كما لو ان نارا مشتعلة كانت تلتهب فيهما ، وكنت اعرف في اعماق اعماقي اننى لم اكن أستطيع الاستمرار فترة اطول في هذا البحر الجليدى . ثم عادت الامواج الهادرة تندفع الى الامام فقدفتنى في ذلك الاتجاه وانا الطم هنا واضرب هناك . وفجأة وجدت نفسى واقفا اتنفس الهواء . وفي الحقيقة حدث هذا كله بسرعة شعرت معها بدهشة لم افكر معها بالشعور بالارتياح والذي كان هو الشعور المنطقى في تلك اللحظة ، كما لم يخطر على بالى ان أحمد الله لحظى الجيد في البقاء حيا . رحت استنشق الهواء بلهفة بينما رفع كل محاربى بيولف حولى رءوسهم فوق سطح الماء وراحوا يستنشقون الهواء مثلى .

والآن اليكم ما رايت : كنا فيما يشبه البركة او البحيرة داخل كهف له قبة صخرية ناعمة ومدخل من ناحية البحر كنا قد اخترقناه لتونا . وامامنا مباشرة كان هناك فراغ صخرى مسطح . وقد رايت ثلاثة او اربعة اشكال سمراء تجلس القرفصاء حول نار مشتعلة ، وكانت هذه المخلوقات ترتل بأصوات عالية . وفهمت الان سبب تسمية هذا الكهف بكهف الرعد لانه مع كل تحطم للامواج المتلاطمة كان الصوت يتجاوب داخل الكهف بقوة كانت تؤلم الأذان ، حتى ان الهواء نفسه بدا وكأنه يهتز ويضغط بقوة :

في هذا الكهف ، قام بيولف ومحاربوه بهجومهم وقد انضمت انا اليهم . وبخناجرنا القصيرة قتلنا اربعة شياطين في الكهف . وقد تمكنت من رؤيتهم بوضوح ولاول مرة على ضوء النار المتأججة التي كانت السنة لهيها تتراقص وتقفز بجنون مع كل لطفة من لطفات الامواج المرعدة . اما منظر هذه الشياطين فكان كالتالى : كانوا يبدون كالبشر في كل مجال ولكن في نفس الوقت لم يكونوا كاي انسان على

سطح الارض . كانوا مخلوقات قصيرة ، عراض الاكتاف يجلسون القرقصاء ، وكان الشعر كثيفا على كل جزء من اجزاء جسداهم باستثناء راحة اليد وكعب القدم والوجه . كانت وجوههم كبيرة جدا لها فم وفكان كبيران بارزان وكانت ملامحهم قبيحة . كما ان رءوسهم كانت اكبر من رءوس البشر العاديين ، اما عيونهم فكانت غائرة بعمق في رءوسهم ، وحواجبهم كثة ضخمة ليس بسبب الحواجب المليئة بالشعر ولكن بسبب العظام البارزة . وكانت اسنانهم ايضا كبيرة حادة مع انه صحيح ايضا ان اسنان الكثيرين منهم كان مبرية مهترئة ومنبسطة .

الفصل التاسع والعشرون

وفي مجالات اخرى من معالم اجسامهم ، وفيما يتعلق بالاعضاء التناسلية والفتحات العديدة فان الوندول يشبهون البشر ايضا في هذا المجال . كان احد هذه المخلوقات يموت ببطء وكان يحاول ان يرسم بعض الاصوات بلسانه بدت لاذنى وكانها نوع من انواع الكلام ، ولكنني لم استطع ان اتأكد من هذا وانا اعيد قص الحادثة دون التزام بهذا الموضوع .

القي بيولف نظرة فاحصة على هذه المخلوقات الاربعة الميتة ، بفرائهم السميك ، ثم سمعنا ترتيلا رهيبا تتردد اصداؤه وكان صوت يرتفع ثم ينخفض على ترانيم رعد تلاطم الامواج ، وكان الصوت ينبعث من اعماق الكهف الحالكة . عندما قادنا بيولف الى تلك الاعماق .

وهناك وقعنا على ثلاثة مخلوقات اخرى كانوا منبطحين على الارض ووجوههم متجهة الى الارض وايديهم مرفوعة تضرعا باتجاه مخلوق عجوز مختبئ في الظلال . هذه التضمرعات كانت تشبه التراتيل وكان المتضرعون غارقين بتراتيلهم الى حد لم يلاحظوا معه وصولنا . لكن المخلوق العجوز رآنا وصرخ صرخة مرعبة حين اقتربنا منه . وقد اخذت ذلك المخلوق على انه ام الوندول ولكنها ان كانت انشى لم ارى اثرا لذلك لانها كانت على درجة من الهرم اصبحت معها لا جنس لها . انقض بيولف وحيدا على المتضرعين وقتلهم جميعا بينما المخلوقة الام راحت تتراجع في الظلام وتصرخ صراخا مرعبا . لم استطع

رؤيتها بوضوح ولكن ما سأرويها إلا حقيقى رأيتة بعينى : كانت
مخاطة بالافاعى التى التفت حول قدميها على يديها وحول عنقها .
وكانت هذه الافاعى تفتح وتلتق بالسنتها . ولان هذه الافاعى كانت
فى كل مكان حولها وعلى جسدها وعلى الارض أيضا فلم يجرؤ اى
محاربى بيولف على الاقتراب منها .

ثم هاجمها بيولف فاطلقت صرخة خوف رهيبة عندما غرز خنجره
عميقا فى صدرها دون أن يعير الافاعى اى انتباه . طعن ام الوندول
عدة طعنات بخنجره ولكنها لم تنهوا ولم تسقط بل بقيت واقفة رغم
الدم الذى كان ينسكب منها كما لو كان يتدفق من ينبوع ، ومن
الجراح العديدة التى اوقعها بها بيولف . وبقيت طيلة تلك الفترة
تصرخ بصوت يثير أشد الرعب .

وأخيرا تهاوت وسقطت ميتة فاستدار بيولف ليواجه محاربيه .
عندها رأينا أن هذه المرأة ، أم اكلة الموتى ، قد جرحته . كان دبوس
فضى شبيه بدبابيس الشعر قد دفن فى أمعائه . وكان هذا الدبوس
يهتز عند كل نبضة قلب . انتزعها بيولف من مكانه أنتزاعا فانسكبت
وراءه دفقة من الدم ، لكنه لم يركع على ركبتيه رغم جرحه القاتل ،
بل بدلا من ذلك وقف واعطى أوامره بمغادرة الكهف .

نفذنا الامر منطلقين من الباب الثانى المنفتح على اليابسة . هذا
المدخل كان محروسا لكن كل الحرس الوندول كانوا قد فروا عند
سماعهم صرخات امهم المحتضرة . غادرنا المكان دون اى انزعاج حيث
قادنا بيولف خارج الكهف ومن هناك عدنا الى خيولنا . وعند ذلك
نقط انهار بيولف وسقط على الارض .

امر اكشفو بوجه حزين غير مألوف أبدا بين الشماليين يطفى عليه
امر بصناعة مايشبه النقالة حملنا بيولف عليها عبر الحقول الى مملكة
روث غار . وطيلة ذلك الوقت كان بيولف مرحا جورا ومنطلقا .
لم افهم الكثير مما قال ، ولكن سمعته مرة يقول : « لن يكون روث غار
سميد لرؤيتنا ، اذ عليه أن يقيم وليمة أخرى وقد أصبح الان مضيقا
مستنزفا الى ابعد الحدود » . ضحك المقاتلون لهذا كما ضحكوا
لكلمات اخرى اطلقها بيولف ، وقد لاحظت أن ضحكهم كان امينا
مخلصا .

وصلنا الى مملكة روث غار حيث استقبلنا بالهتافات والسعادة الفامرة ولم يكن هناك اى اثر للحزن ، رغم ان بيولف كان جريحا يعانى الموت وقد تحول لحمه الى اللون الرمادى وراح جسده يهتز بينما كان يضىء عينيه شعاع من روح مريضة مرتعشة بالحمى . هذه علامات كنت أعرفها جيدا ، وكان يعرفها أيضا اهل الشمال .

أحضر لبيولف وعاء من حساء البصل ، ولكنه رفضه قائلا ، « أنا مصاب بمرض الحساء ، فلا تزعجوا انفسكم من اجلى » . ثم طلب اقامة احتفال وأصر على أن يتراسه هو شخصيا ، جلس خلاله منتصبا على مقعد حجرى الى جانب الملك روث غار وشرب شراب اليد وفرح ومرح كثيرا . كنت بجسائه حين قال للملك روث غار فى وسط الاحتفالات ، « ليس لى عبيد » . اجاب روث غار « كل عبيدى هم عبيدك » . فقال بيولف « ليس عندى خيول » . ويجيب روث غار ثانية « كل خيولى هى خيولك . لا تشغل بالك بهذه الامور » . وكان بيولف وقد ضمدت جراحه سعيدا وراح يبتسم وقد عاد اللون الى خديه ذلك المساء ، وكان يبدو وكأنه يزداد قوة مع مرور كل لحظة من ذلك المساء . ومع انى لم اكن لاصدق بان هذا ممكن ، فقد راح يضاجع فتاة جارية ، قال لى بعدها مازحا « الرجل الميت ليس ذا فائدة لاي انسان » .

ثم غاب بيولف فى سبات عميق ، بينما ازداد لونه شحوبا وتنفسه بطنا . وكنت اخشى الا يستيقظ من نومه هذا . ربما فكر هو أيضا بنفس الطريقة ، لانه حين نام أمسك بسيفه وقبض عليه بشدة بيده .

الفصل الثلاثون

الوندول ونزع العون الاخير

رحت أنا أيضا فى سبات عميق . لكن هرغر ايقظنى بهذه الكلمات : « عليك ان تاتى بسرعة » . وبعدها سمعت صوت رعد بعيد . نظرت

الى النافذة الجلدية(١) فادركت ان الفجر لم يبرغ بعد ، لكتى استللت سيفى رغم انى فى الواقع كنت قد غفوت وأنا مرتد درعى دون ان اهتم بخلمه . ثم اسرعت الخطى خارجا ، حيث كانت الساعة قبيل الفجر والهواء ضيبيا ثقيلًا يملؤه هدير حوافر بعيدة .

قال هرغر « انهم الوندول ياتون الينا . انهم على علم بجراح بيولف القاتلة ، وهم يطلبون الثار الاخير لمقتل امهم » .

اتخذ كل من محاربى بيولف ، وأنا بينهم ، مكانا على امتداد التحصينات التى كنا قد اقمناها لمقاومة الوندول . وقد كانت دفاعات ضعيفة جدا ، ولكن لم يكن هناك بديل عنها . رحنا نحقق فى الضباب محاولين استشفاف رؤية الخيالة العادين على خيولهم باتجاهنا . ولقد كنت اتوقع خوفا عظيما وهلما ، الا انى لم اشعر بشيء من هذا ، اذ كنت قد رايت ملامح الوندول ، وكنت اعرف انهم مخلوقات ككل المخلوقات ، وان لم يكونوا بشرا كما القرودة ايضا تشبه البشر . ولكنى كنت اعرف انهم قاتون وانهم يموتون .

ولهذا لم يكن لدى اى خوف ما عدا توقع هذه المعركة الاخيرة . وكنت فى هذه الحال وحيدا ، لانى وجدت ان محاربى بيولف بدأ يمتريهم ويظهر عليهم الخوف الشديد رغم محاولاتهم الجاهدة لاختفاء هذا الخوف . وفى الحقيقة بما اننا كنا قد قتلنا ام الوندول التى كانت قائدهم ايضا فانا فقدنا بيولف ايضا الذى كان قائدا ، ولم يكن هناك اى مظهر من مظاهر الفرح بينما كنا ننتظر ونصفى الى تقدم الرعد واقترابه منا .

ثم سمعت حركة ورالى وحين التفت رايت ما يلى : كان بيولف وقد شحب لونه حتى اصبح كلون الضباب نفسه وقد تلفع بالبياض حول جراحه ، كان واقفا منتصبا على ارض مملكة روث غار وعلى كتفيه كان يجلس غرابان اسودان واحد على كل كتف . ما ان راى

(١) التعبير الحرفى هو نافذة الخنزير ، فقد كان الشماليون يستعملون الجلود المطبوخة بدلا من الزجاج ليعطوا نوافذهم الضيقة . هذه الاغشية او الجلود كانت شفافة لكن لم يكن بإمكان المرء ان يرى الكثير من خلالها ، الا ان الضباب كان يخترقها الى داخل البيوت .

الشماليون هذا المنظر حتى صرخوا ذعرا من قدومه ثم رفعوا أسلحتهم في الهواء وصاحوا صيحة الحرب (١) .

لم ينطق بيولف بكلمة واحدة كما لم يلتفت الى اية جهة ابدا ولم تصدر عنه اية اشارة توحى بأنه كان يميز أيا منا ، ولكنه صار بخطوات متزنة الى الامام مجتازا خط التحصينات ، وهناك راح ينتظر هجوم الوندول . وفجأة طار الغرابان فقبض على سيفه رفدنج واستعد لمواجهة الهجوم .

ما من كلمات تستطيع ان تصف الهجوم التهاى للوندول في ذلك الفجر الضبابى . وما من كلمات ستكون قادرة على وصف حجم الدماء التى أهرقت ولا الصيحات التى ملأت الجو الثقيل ولا الخيول ولا الفرسان الذين ماتوا في هذه الملحمة المخيفة . وبأم عيني رايت اكثفوا بدراعيه الفولاذيتين : رايتهم والله وقد قطم رأسه دفعة واحدة سيف من سيوف الوندول فسقط الرأس على الارض وراح ينط ويقفز كدمية طفل بينما اللسان كان لا يزال يتحرك فى فمه . ولقد رايت ويث ايضا يتلقى رمحا فى صدره ألصقه بالارض وسمره هناك حيث راح يتلوى كسمكة أخرجت لتوها من البحر . ورايت فتاة طفلة داستها حوافر الخيول فتحطم جسدها وسوى بالارض بينما كان الدم يتصبب من أذنها . ولقد رايت امرأة كانت احدى جوارى الملك روث غار : كان جسدها قد شطر شطرين بينما كانت تركض هاربة من أحد الخيالة : كما رايت أطفالا آخرين كثيرين قتلوا بنفس

(١) هذا المقطع من المخطوطة تم تجسيه من مخطوطة الرازى الذى كان اعتماده الاول ينصب على التقنية العسكرية . وسواء عرف ابن فضلان أم لم يعرف أو سجل أم لم يسجل فان مغزى ظهور بيولف ثانية غير معروف ومن المؤكد أن الرازى لم يضلها من عنده رغم أن المغزى واضح بما فيه الكفاية . ففى الاساطير الشمالية يظهر أودن عادة وهو يحمل غرابا على كل كتف من كتفيه . هذان الطيران يأتيانه بكل اخبار العالم . وأودن هذا كان الاله الرئيسى فى هبكل الالهة الشمالية وكان يعتبر الاب الكسوفى . وكان يحكم خاصة فى أمور الحرب ، كما كان يعتقد أنه من وقت لآخر يظهر بين الناس ولكن نادرا : بشكله الالهى لانه كان يفضل أن يتخذ مظهر المسافر العادى البسيط . ولقد قيل أن العدو كان يفزع ويفر من مجرد حضوره .

ومن المفيد أن تعرف أن هناك قصة تروى عن أودن انه يقتل ثم يبحث بعد تسعة أيام . ويعتقد معظم المطلعين أن هذه الفكرة سابقة لاي تأثير مسيحي . وعلى كل حال فان أودن المبعوث حيا يبقى قائما وكان يعتقد أنه لا يهد وان يموت أخيرا فى يوم الايام .

الطريقة . ولقد رايت خيولا تتراجع ثم تهوى ليهوى عنها فرسانها
فيهوى عليهم بدورهم الرجال والنساء ويلدبحونهم ذبح النعاج وهم
ما زالوا مستلقين على ظهورهم مذهولين . ورايت وغلف ، ابن روث
غار يهرب من وسط المعركة ويختبئ طالبا امان الجبان . اما المنادى
فلم آره ذلك اليوم .

ولقد قتلت آنا بنفسها ثلاثة من الوندول ، كما اصبت برمح فى
كتفى الذى كان اله يشبه الم الوقوع فى النار . فقد كان دمي يفلئ
على طول ذراعى وحتى داخل صدرى . وكنت اظن اننى سانهار ولكنى
استمررت فى القتال .

بدأت الان الشمس تتراءى شيئا فشيئا من خلال الضباب وسرعان
ما بسط الفجر نوره علينا وبدا الضباب بالانسحاب كما اختفى
الخيالة ايضا . وفى ضوء النهار الساطع رايت الجثث منشورة فى كل
مكان بما فيها الكثير الكثير من جثث الوندول لانهم لم يجمعوا
موتاهم هذه المرة . وكانت هذه شارة نهايتهم الابدية ، فقد اصبحوا
فى فوضى واضطراب عظيمين ولن يستطيعوا ان يهاجموا روث غار
ثانية وادرك كل سكان المملكة مغزى ذلك وفرحوا لذلك فرحا
عظيما .

فمسلس هرغر لى جراحى وكان مرحا مسرورا حتى ادخل جسد
بيولف الى قاعة روث غار الكبرى . كان بيولف قد مات فوق موته
الاول ميتات كثيرة : فقد كانت جثته محفورة بسيوف عشرة خصوم
على الاقل ، وكان وجهه وجسده غارقين فى دمه الذى كان ما زال
دافئا . ما ان راى هرغر هذا المنظر حتى تفجرت الدموع فى عينيه
وراح يحاول اخفاء وجهه عنى ولكنه لم يكن بحاجة الى ذلك فقد
اجسست بدموعى آنا الاخر تنشر الضباب فى عينى .

مدد جسد بيولف امام الملك روث غار الذى كان من واجبه الان
ان يلقى خطابا . لكن الملك المعجوز لم يكن قادرا ان يفعل شيئا كهذا
ولكنه ردد هذه الكلمات فحسب : « هذا محارب وبطل اهل لان يكون
الها . ادقنوه كما يدفن عظماء الملوك » . ثم غادر القاعة . واعتقد ان
كان يشمر بالخجل والعار لانه لم يشترك شخصا بالمعركة ، كما ان
ابنه وغلف . عرب كجبان رعديد وقد رآه الكثيرون يفعل ذلك
بسموه تصم مرآة . وقد يكون هذا مما زاد عار الاب وخجله ،

او قد يكون هناك سبب آخر لم أدركه . وفي الحقيقة كان رجلا في غاية الهرم .

وحدث الآن أن همس وغلف بصوت خفيض قائلا للمنادي : « لقد قدم لنا بيولف هذا خدمة عظيمة ، وما يزيد عظمة هو موته في نهاية هذه الخدمة . قال هدايمد أن غادر أبوه الملك القاعة » .

سمع هرغر هذه الكلمات كما سمعتها أنا أيضا ، وكنت اول من استل سيفه . فخاطبني هرغر قائلا « لا تنازل هذا الرجل فهو ثعلب مكار ، وأنت مجروح » . قلت له « ومن يهتم بالجراح ؟ » واندفعت متحديا وغلف الابن وفي القساعة نفسها . استل وغلف سيفه في اللحظة التي لطمني بها هرغر لكمة قوية من الخلف جاءتني على غفلة فسقطت وأنا الف وأدور ثم التحم هرغر في معركة رهيبية مع وغلف . واستل المنادي سيفه أيضا وتحرك خلسة بهدف الوقوف خلف هرغر وطمعته في الخلف . هذا المنادي قتلته بنفسه بقرز سيفي عميقا في بطنه ، فصرخ المنادي صرخة خرجت معها روحه . سمع وغلف صيحته ، ورغم أنه كان يقاتل بشراسة من قبل فانه أبدى الان الكثير من الخوف في صراعه مع هرغر .

وحدث الآن أن الملك روث غار سمع قعقة السيوف فعاد ثانية الى القاعة الكبرى ورجا ايقاف القتال ولكن عيضا ، فقد كان هرغر مصرا عنيدا في مطلبه . ولقد رايت به يقف منتصبا بجانب جسد بيولف ثم يطلق سيفه صوب وغلف فيطمعته ويسقط وغلف على طاولة روث غار ثم يتناول كأس الملك ويسحبها صوب شفتيه . لكن الحقيقة هي انه مات دون أن يشرب . وهكذا انتهت القضية .

اما رفاق بيولف والدين كان عددهم ثلاثة عشر ، فلم يبق منهم الا أربعة وأنا منهم . وضعنا جثة بيولف تحت سقف خشبي وتركنا جسده مع كأس من شراب الميد في يديه ثم خاطب هرغر الناس المتجمعين قائلا : « من سيموت مع هذا الرجل العظيم ؟ » عندها تقدمت امرأة كانت جارية من جوارى الملك روث غار وقالت انها ستوت مع بيولف ، فبدأت اقامة الاستعدادات المتعادة عند اهل الشمال لعملية الدفن (هنا رغم أن ابن فضلان لا يحدد مرور فترة

زمنية معينة فلا بد أن تكون قد مضت بضعة أيام قبل حفل الدفن
(الرسمي) .

جهزت سفينة على الشاطئ تحت قاعة روث غار وأقيمت فيها
كنوز الذهب والفضة كما أقيمت فيها جثتا حصانين أيضا . وبنيت
فيها خيمة وضع فيها بيولف الذي كان الموت قد حجر جسده الآن .
كان جسده قد اتخذ لون الموت الأسود في ذلك المناخ البارد . ثم
أخذت الجارية إلى كل من مقاتلي بيولف ثم جرى بها إلى مضاجعتها .
وهي تقول لي « ان سيدي يشكرك » وكانت تعابير وجهها وتصرفاتها
في أروع حالات المرح والسرور وبحال أكثر تعبيرا من حالات السرور
المعتادة والتي يبديها الشماليون في مثل هذه الظروف . وبينما كانت
ترتدي ثيابها فانيتها ، تلك الثياب التي كانت تحتوى العديد من قطع
الذهب والفضة قلت لها بأنها كانت ممتعة غاية الامتاع مسرورة غاية
السرور .

وقد كان رأيي بها أنها كانت صبية جميلة فانتة فتية غضة ومع
ذلك كانت ستموت بعد قليل ، وهو ما كانت تعرفه كما أعرفه أنا .
قالت لي : « اننى مسرورة فرحة لاننى سالتقى بسيدي عما قريب » .
ولكنها لم تكن قد شربت شيئا من شراب الميذ أبدا ، وكانت تحكى
عواطفها بصدق . كانت ملامح وجهها تشع مشرقة كملامح طفل سعيد
أو كملامح بعض النساء حين يحضن طفلا . هكذا كانت طبيعة
الاشياء .

قلت لها : « أخبرى سيدك عندما تلتقين به بأننى عشت وسأعيش
لاكتب » . لا أدري ان كانت قد فهمت هذه الكلمات . قلت لها
مضيفا « لقد كانت تلك رغبة سيدك » .

« اذن سأخبره بهذا » . وبهذه الجملة تركتني بفيض من السرور
وانتقلت إلى محارب آخر من محاربي بيولف . لا أدري ان كانت
قد فهمت مغزاي وقصدي لان الشكل الوحيد من الكتابة الذي يعرفه
هؤلاء الشماليون هو الحفر على الخشب أو على الحجر ، والذي
لا يفعلونه الا نادرا . ثم ان حديثي بلسان أهل الشمال لم يكن
واضحا . لكنها رغم ذلك كانت مرحة سعيدة واستمرت كذلك .

في المساء وبينما كانت الشمس تفرق نفسها في مياه البحر ، كانت

سفينة بيولف قد أصبحت جاهزة على الشاطئ ، فأخذت الصبية
الغضة الى داخل السفينة . وهناك قامت الحيزبون المعجوز المسماة
بملاك الموت بوضع الخنجر بين اضلاعها بينما قمت انا وهرقر بشد
الحبل الذي خنقها واطفاً إنفاسها ، ثم اجلسنا بجانب بيولف
وغادرنا السفينة .

لم اتناول طعاماً او شرباً طيلة اليوم ، لاننى كنت اعلم اننى
سأشارك فى هذه الامور ، ولم اكن ارغب فى معاناة حرج افراغ
معدتى فى هذه الظروف . ولكن الغريب اننى لم اشعر باى مقت
او غضاضة فى اى من افعال ذلك اليوم ، كما لم يغم على ولم اشعر
بدوار فى رأسى وأحسست بالفخر بينى وبين نفسى . والحقيقة ان
تلك الصبية المسكبة ابتسمت لحظة موتها وبقيت تلك الابتسامة
متحجرة على وجهها بعد خنقها بحيث جلست بجانب سيدها والبسمة
عالقة على وجهها الشاحب اما وجه بيولف فكان اسود وعيناه مغمضتين
لكن تعابيره كانت هادئة وديمة . هكذا كانت آخر رؤية لى لهلدين
الشماليين .

واشربت النار فى سفينة بيولف ثم دفعت الى عرض البحر ، بينما
وقف الشماليون على الشاطئ والصخري ورفعوا ابتهالات كثيرة الى
آلهتهم . وبأم عينى رأيت السفينة تحملها التيارات كطوافة تحترق
ثم غابت عن ابصارنا وهبط ظلام الليل مرة اخرى على ارض
الشمال .

الفصل الحادى والثلاثون

العودة من بلاد الشمال

قضيت بضعة أسابيع اخرى برفقة محاربى ونبلاء روث غار .
كان ذلك وقتاً ممتعاً ، لان الجميع كانوا ودودين كرماء ، وقد اعدتوا
عناية عظيمة بجراحى التى شفيت تماماً والحمد لله . ولكننى اسبغت
اشعر بالرغبة فى العودة الى بلادى . ولقد أعلمت الملك روث غار باننى

كنت مندوب خليفة بغداد وانه يجب على ان اتم مهمتى التى ارسلنى لانجزها والا استحققت غضبه .

لكن هذا لم يكن ليثير اهتمام روث غار الذى قال اننى محارب نبيل وانه كان يرغب فى ان ابقى فى مملكته لاحيا حياة محارب مكرم . وقال اننى كنت صديقه الابدى واننى استطيع ان احصل على اى شىء ارغبه ويستطيع هو ان يقدمه لى . الا انه كان مترددا فى السماح لى بمغادرة مملكته واخترع كل انواع الاعداد واسباب التأخير التى قد تخطر على بال . فى البدء قال روث غار انه على ان اعتنى بجراحى مع انه كان واضحا ان هذه الجراح قد شفيت تماما . ثم عاد وقال انه يجب على ان استعيد قوتى مع انه كان واضحا ان قوتى قد عادت الى . واخيرا قال انه يجب على ان انتظر اعداد سفينة ، وهو امر لم يكن سهلا . وحين سألت عن الوقت الذى يستغرقه اعداد سفينة كهذه اعطانى الملك جوابا غامضا ، كما لو ان هذا الامر لم يكن يهमे كثيرا . وفى اللحظات التى كنت فيها الح بالمطالبة فى الرحيل كان يغضب ويتساءل عما اذا كنت غير مكثف او راض عن كرمه . وجوابا على ذلك كنت مضطرا ان امتدح سماحته وكرمه واردد كل تعابير الرضى والقناعة . وسرعان ما ادركت بان الملك المعجوز كان اقل حماقة مما كنت اظن من قبل .

عدت الى هرغر لاحدثه عن مأساتى ، وقلت له : « ان هذا الملك ليس بالاحمق الذى كنت اظن » . قال هرغر مجيبا « انت مخطيء لانه فى الواقع احمق مجنون ولا يتصرف تصرف العاقلين » ثم اضاف بانه سيرتب امر رحيلى مع الملك .

وكان الاسلوب الذى اتبعه كالتالى . طلب هرغر مقابلة الملك فى خلوة ثم قال له انه ملك عظيم حكيم كان شعبه يحبه ويحترمه وما ذلك الا للطريقة التى كان يعتنى بها بقضايا مملكته وشعبه . ويبدو ان هذه اللحظة بالذات قال له هرغر انه من بين ابناء الملك الخمسة لم يبق الا واحد منهم ، وكان ذلك وولف غار الذى كان قد ذهب ليقوم بدور الرسول عند بيولف ، وبقي بعيدا . ثم اضاف هرغر بانه لا بد من استدعاء وولف غار للعودة الى الوطن وانه يجب اعداد جماعة

تقوم بهذه المهمة ، لانه لم يعد هناك من وريث آخر للمملكة سوى وولف غار .

حدث الملك بكل هذه الامور ، واعتقد بأنه قال شيئا كهذا وعلى انفراد للملكة وليو التي كان لها تأثير كبير على زوجها الملك .

ثم حدث فى احدى الولايم المسائية ان دعا الملك روث غار الى تجهيز سفينة وبحارتها لتذهب فى رحلة لاعادة وولف غار الى المملكة . طلبت ان انضم الى طاقم البحارة ، وهو ما لم يستطع الملك المعجوز ان يرفضه . وقد استغرق اعداد السفينة بضعة ايام ، قضيت معظمها برفقة هرغر الذى اختار الان ان يبقى فى المملكة .

فى احد تلك الايام وقفنا معا على الجرف ننظر من عل الى السفينة الراسية على الشاطئ وقد تم اعدادها للرحلة وزودت بكل المؤن الضرورية . قال لى هرغر : « انت على وشك الانطلاق فى رحلة طويلة . وسنصلى جميعا من اجل وصولك بالسلامة » .

وعندما سألته لمن سيصلى من اجلى اجاب قائلا « سنصلى للاله اودن وفريه وثور وورد والعديد من آلهتنا الاخرين الذين قد يكون لهم اثر فى سلامة رحلتك » . كانت هذه طبعا اسماء آلهة الشماليين .

اجبت قائلا : « انى اؤمن باله واحد هو الله الرحمن الرحيم » . قال هرغر « انى اعلم هذا ربما كان اله واحد فى بلادكم كافيا ، ولكن ليس هنا . فهنا . آلهة كثيرة وكل له اهميته ، وسنصلى لهم جميعا من اجلك ومن اجل سلامتكم » . عندها شكرته لان صلاة الكافرين جيدة قدر ما هى مخلصة صادقة ، وما شككت لحظة فى اخلاص هرغر .

كان هرغر يعلم منذ وقت طويل اننى كنت على عقيدة مختلفة من عقيدته ولكن ما ان اقترب وقت رحيلى حتى راح يسأل مرارا وتكرارا عن معتقداتى ثم ، وفى لحظات مفاجئة يحاول ان يضبطنى متلبسا ليتعلم الحقيقة . وكنت انظر الى أسئلته العديدة على أنها شكل من أشكال الامتحان كما امتحن بيولف مرة معرفتى بالكتابة . ولكنى كنت دائما اجيبه بنفس الطريقة مما كان يزيد فى حيرته .

وفي أحد الأيام قال لي غير محاول الادعاء بأنه لم يسألني سابقا :
« وما هي طبيعة الهك الله ؟ » .

قلت له « الله هو الواحد الاحد الذي يحكم كل الاشياء ويرى كل
الاشياء ويعلم كل الاشياء ويتصرف بكل الاشياء » . كانت هذه كلمات
اعدتها على مسامعه مرات ومرات في الماضي .

وبعد وقت قصير سألني هرغر « الا تفضب الهك الله هذا ابدا ؟ »
قلت « طبعا انى افضبه ولكنه غفور رحيم » وسأل هرغر « اهو
غفور رحيم عندما يرى ذلك ؟ » اجبت بان هذا الواقع فراح هرغر
يتأمل اجابتي بامعان . واخيرا قال لي وهو يهز رأسه ياسا : « ان
المخاطرة كبيرة جدا . . فالانسان لا يستطيع ان يحل كل ثقته وايمانه
في شيء واحد ، سواء اكان ذلك الشيء امرأة او حصانا او سلاحا او
اى شيء مفرد . » قلت له « ومع ذلك فانا اضع كل ثقتي في هذا
الواحد الاحد » . اجاب هرغر قائلا « ماتراه هو الافضل ، ولكن هناك
الكثير الكثير مما لا يدركه الانسان . وان ما لا يعلمه الانسان هو عالم
الالهة . »

من هذا ادركت انه لا يمكن اقناعه باعتناق معتقداتى ولا انا باعتناق
معتقداته ، وهكذا افترقنا . وفي الحقيقة كانت ساعة فراق حزين
جدا وكان قلبي يتفطر الما لاننى كنت ابتعد عن هرغر وعن بقيسة
المحاربين . وقد شعر هرغر بنفس الشيء . أمسكت به من كتفيه
وامسك هو من كتفى ثم انطلقت الى السفينة السوداء التى حملتنى
الى بلاد الوائز . وبينما كانت هذه السفينة يطاقمها القوى تنساب
مبتعدة عن شواطئ فندان وقع بصرى على أعلى السطوح المتوهجة
المتألقة لقاعة هاروت الكبرى وعندما التفت الى الجانب الاخر وقع
بصرى على المحيط المديد امامنا . والان حدث ان .

(وهنا تنتهى المخطوطة فجأة عند هذه النقطة ، والتي هى نهاية
صفحة مخطوطية باليد تنهيا الكلمات الموجزة التالية
Munc Fit
ومع انه واضح ان للمخطوطة تيمة فانه لم تكتشف اى مقاطع اخرى .
هذه بالطبع هى الحادثة التاريخية بكل صفاتها الا ان كل مترجم قد


علق على هذه المنطقية الشاذة لهذه النهاية المفاجئة ، والتي تشير احتمال
بداية مغامرة جديدة ، أو منظر جديد قريب قد نهرم علينا معرفته
لاكثر الاسباب هرفنية هرفتها السنوات الالف الماضية .

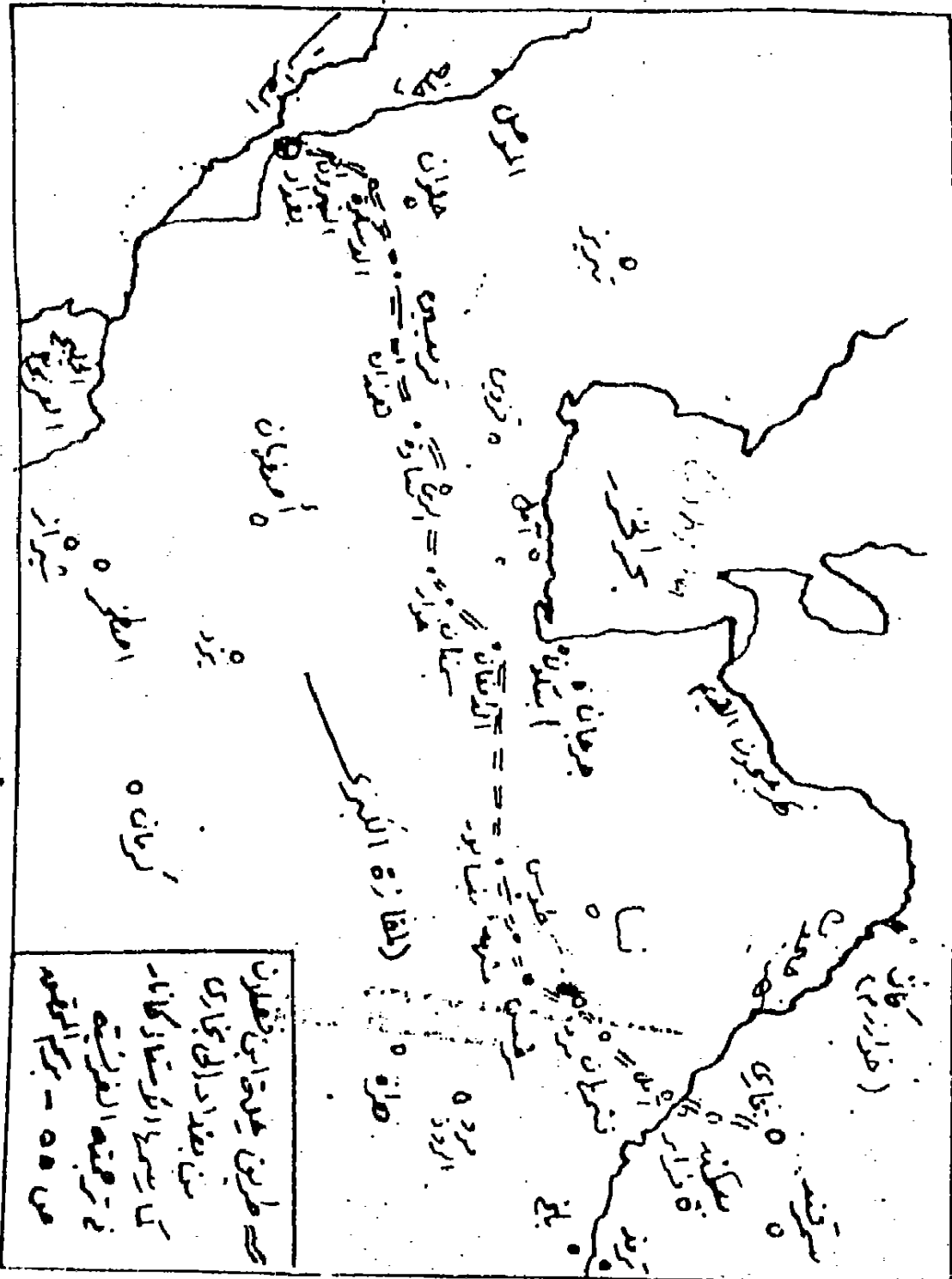
تمت

رقم الايداع : ١٧٣٧٨ / ١٩٩٩

I. S. B. N

4-0691-07-077


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية



طريق الرضاة

من طرفين خلافة ابن خلفون
 من بغداد إلى بخارى
 كما يسمى الرضاة كذا كانا
 في زمنه الفرسية
 من ٥٥ - برسم التمام

مجلة

الهلال

مهدي الأبداع الثقافي
واشعاع الفكر المعاصر

الهلال

تصدر أول كل شهر

تحرير: مصطفى نبيل



هذه الرواية نشرناها عام ١٩٨٥ ونفدت في أسابيع قليلة
واليوم في نهاية عام ١٩٩٩، هي حديث الناس في كل أنحاء
العالم، بعد أن ، تحولت إلي فيلم عالمي باسم «المحارب رقم ١٣»
إخراج جون ماكترنييات ، وبطولة انطونيو بانديراس وعمر الشريف ،
وأجمعت كل الاقلام أن الغرب بدأ يغير من صورته عن العربي، فهو
هنا رحالة مغامر عاشق للعلم، والمعرفة، مؤمن بالله، ولماح وشديد
الذكاء .

مؤلف هذه الرواية هو مايكل كرايتون واحد من أغلى الأدباء
المعاصرين، وهو الذي قام بانتاج الفيلم بنفسه، وهو صاحب
مشهورة منها «حديقة الديناصورات»، و «عالم الغرب» كما أنا
من أكثر خبراء الكومبيوتر مهارة.

إنها رواية عن العرب القدامى، برؤية معاصرة، تناسب اية

. ٢٠٠٠

الثمان



To: www.al-mostafa.com